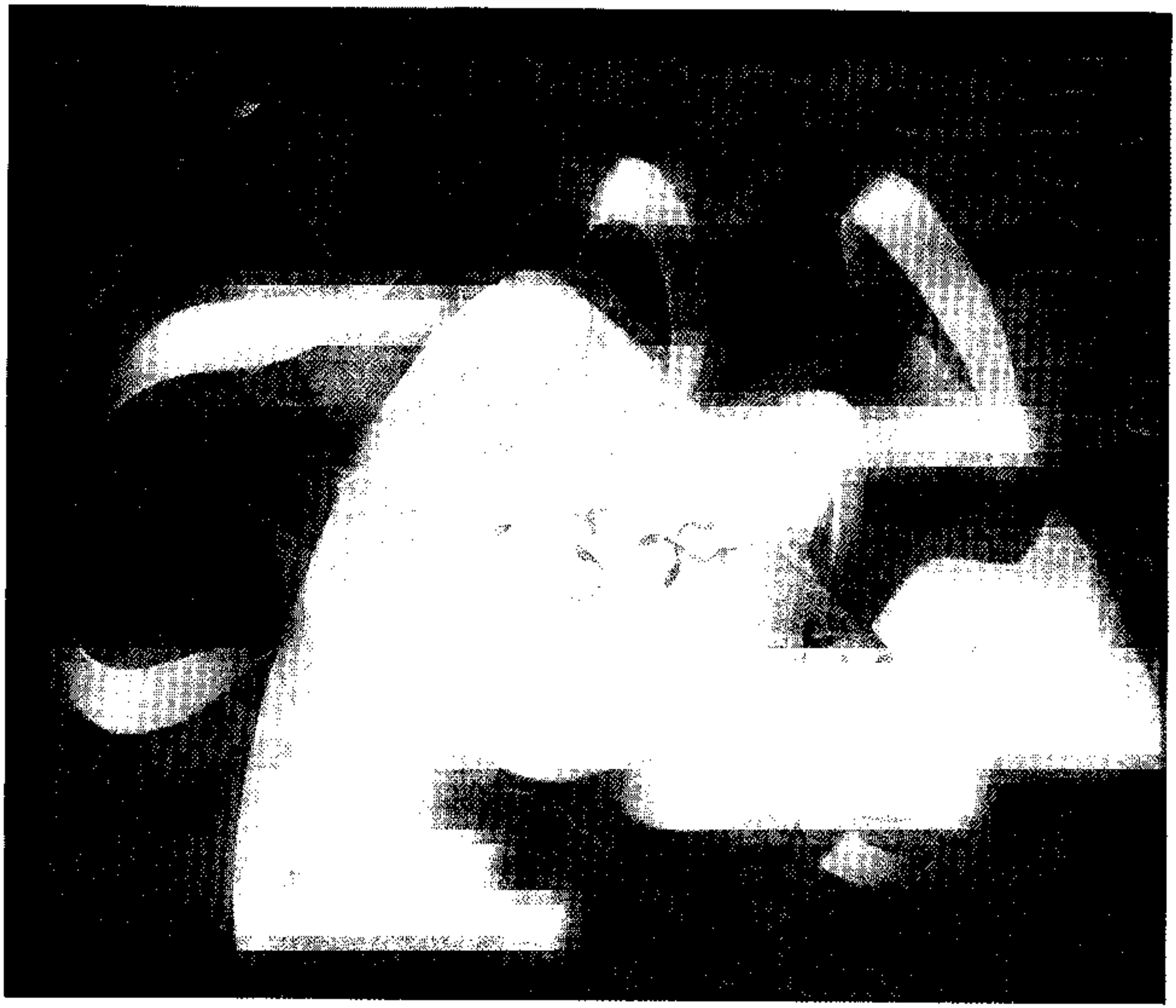
الصادق النيهوم

كلمات الحق القوية



مكتبة النيهوم
سلسلة المقالات: (1)
تالة للطباعة والنشر

الصادق النيهوم

كلمات الحق القوية

مكتبة النيهوم ـــ سلسلة الدراسات (1)

تاله للطباعة والنشر

كلمات الحق القوية

مكتبة النيهوم ــ سلسلة الدراسات (1)

الصادق النيهوم

Email: talabooks@hotmail.com

المایة ــ الجماهيرية العظمى

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية العربية الشعبية الاشتراكية العظمى

مؤسسة الانتشار العربي

ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103

Email: arabdiffusion@hotmail.com

بيروت – لبنان

الطبعة الأولى 2002

المحتويات

1

رسالة من هلسنكي

مرة أخرى.. ثلج

ومقهى صغير معتم مصنوع من جذوع البوند في «آنا فاتن» بحذاء النهر، وطفل يلعب بزجلاته فوق النهر نفسه.. لقد اكتمل الشتاء، وتجمّد المحيط منذ الأسبوع الماضي، وعبرته العربات بأقصى سرعتها، وبالت فوقه الكلاب.

وقد كان ثمة أربعة عصافير ميتة في الثلج.. إن الموت شيء فظيع محزن.. خاطف.. وقال أحد الأوغاد: ـ إن النساء كلهن بشعات.. اسمع.. سأقول لك، هذه حقيقة، إنكم في الشرق تعاملوهن بطريقة عادلة.. أجل يا سيدي.. بالحبس.

وسألته في ملل: ولمَ كانت تلك الطريقة عادلة؟

فقال على الفور وهو يشدّني من معطفي: أجل.. بالضرب.. لماذا! إنهنّ مخلوقات سخيفة، وكلّما كبرت واحدة انضمت إلى الشيطان.. أنا أقسم لك يا سيدي.. إن تلك طريقة عادلة..

وقاطعته صديقته: أوه دعنا لا نتحدث عن ذلك.. إنه لا يحتمل أن يقول له أحد شيئاً عن بلاده.. وسوف يتشاجر معك.

وكان صاحب المقهى العجوز ينظر في عيني مباشرة.. كان يقتعد كرسياً مستديراً في الركن وقد بدا عبر العتمة مثل تمثال رديء من الخزف.

وسألتها: ولماذا أتشاجر معه؟

فقالت بضيق حسناً.. أنت تعرف ذلك.. لقد تشاجرت معي في كل مرة.. قلت لك فيها شيئاً عن الشرق.. إن «باول» يتحدث الآن حديثاً عاماً ولكني أراهن أنك ستعتبر ذلك إهانة بطريقة ما.. إن المرء في الواقع لا يستطيع أن يقول لك شيئاً عن بلادك دون أن يتورط في الشجار معك، ثم أضافت بالألمانية: أنت تعرف ذلك فلماذا تجادلني الآن؟

وهتف صديقها: ولكن.. إيرما.. أنا لم أقل شيئاً يعتبره إهانة! لقد أخبرته لتوي أنهم يعاملون نساءهم بطريقة عادلة.. وأنهم..

وقاطعته إيرما مرة أخرى: أجل، ولكنه سيعتبر ذلك إهانة بطريقة ما.. أنت لا تعرفه! لقد قال لي مرة إنه يعتبر كل أوروبي عدواً دنيئاً صغيراً للشرق.

وفتح باول فمه: ماذا ؟ حقاً..؟

واجتاحني إحساس بالحيرة.. وشرعت يدي تؤلمني.. أنا لم أقل ذلك بالضبط.. ولكن إيرما كانت تتحدث إلى بعض الطلبة عن الأطفال في ليبيا ذلك اليوم.. وقالت إنهم كانوا يجرون وراءها مطالبون بالبقشيش أثناء عملها في السفارة.. وإنهم مهملون في الشوارع.. وقالت إن نساءنا مضحكات.. وإن

منظرهن يعتبر كارثة.. وقد أساءني ذلك فقلت لها إنني أعتبر كلامها عقيماً دنيئاً مثلها..

وقالت إيرما: ولم يتحدث إليّ بعد ذلك قط..

وهتف باول فاتحاً ذراعيه: ولكن يا صديقي.. إذا كان ذلك حقاً..

ولم أستطع أن أنتظر فقلت له: لم يكن ذلك حقاً يا باول.. لم يكن ذلك حقاً من أي نوع.. إن الأمر أكثر من أن تفهمه إيرما.. إنها مجرد فتاة طائشة.. خرقاء.. والذي يحدث في بلادنا عمل جاء نتيجة لظروف مرهقة لا تعرفها إيرما بأي حال.. ودعنا نسألها الآن.. ماذا تعني نساؤنا بالنسبة لصديقتك.. هيا.. قولي يا إيرما ماذا تعني نساؤنا بالنسبة لك..

وقالت بضيق: لا أقول.. أنا لن أقول شيئاً.. إنك ستتشاجر معي بعد ذلك..

واندحر شيء في داخلي.. واعتراني فتور ممل..

كانت العصافير الأربعة ما تزال ملقاة في الثلج وقد شرعت الريح تنفخ رئتيها، فقد تجمدت قلوبها أثناء الليل وماتت ميتة مفجعة. إن ذلك يحدث دائماً للعصافير التي تبكي في الهجرة.. كانت صغيرة.. متوحدة عبر الساحة.. ولقد هاجرت من أقصى الجنوب وعبرت البحر لكي تحتفل بالربيع في الشمال.. وفجأة خطر لي أنني أبحث عن شيء ما، فيما شرعت إحدى الفتيات تغني بصوت منخفض!

ظننت.. عندما كنت طفلة أني سأجمع كل الأفكار العظيمة والجميلة..

وأعطيها لله..

وقال باول: أوه.. دعك من ذلك.. لماذا لا يتحدث أحدكم.. ماذا حدث؟

فقالت الفتاة: ماذا! لا شيء.. ولكن دعونا نرقص، ثم نهضت وتبعها الباقون، وعندما نهض باول في النهاية خطر لي ما كنت أبحث عنه فقلت بيأس انتظروا.. هل تعرفون قصة الفيل والعميان؟

وردت إيرما، وكانت ما تزال جالسة، أجل لماذا؟

وسألتها: هل تعرفينها؟

فقالت: أجل.. أعرفها لماذا؟

وقلت لها وقد استثارني الحماس: ولكن ذلك ما ظللت أبحث عنه يا إيرما، إن أحداً من العميان لم يعرف قط أنه يتلمس فيلاً.. لقد قال أحدهم عن رجله إنه جذع شجرة.. وقال الآخر عن رأسه إنه قدر.. ألا ترين؟ لقد استحال ذلك المخلوق الجليل الفاتن إلى جذع.. وقدر.. وأشياء أخرى حمقاء..

وسألها باول: ماذا يعني بذلك؟

فقالت إيرما: اوه إن ما تقوله عن بلاده لا يتجاوز ما قاله العميان عن الفيل.. هذا ما يقصده.. إنه لا بد أن يهينك بطريقة ما عندما يرغب في ذلك.. لقد ظللت معه شهرين كاملين في ألمانيا وكان يقول لي شيئاً مفزعاً جديداً كل يوم..

كانت إيرما قد قضت الصيف كله هناك.. كانت تجيد الرقص والكذب واللغة الألمانية.. وكانت تتحلى دائماً بقرطين

طويلين من العاج.. وكانت عيناها مستديرتين سوداوين مثل عيني النورس.

وفجأة قال باول: حسناً دعونا نتحدث أجل حقاً يا إيرما، أنت لا تستطيعين أن تقولي ذلك عن أي بلد.. إن الشرق بلاد كبيرة.. وقديمة.. ومعقدة.. وأنت لا تعرفين شيئاً عن ذلك.. حسناً، إن النساء مضحكات هنا أيضاً..

وسألته إحدى الفتيات: باول! لماذا تقول ذلك الآن؟

فالتفت إليها هاتفاً فاتحاً ذراعيه: ولكن.. أليس هذا حقاً.. هل يستطيع المرء أن يمنع نفسه من الضحك وهو يرى قطعان الفتيات والنساء تتناطح في المقاهي وعربات الترام! ماذا؟ لماذا ننكر ذلك إنهم يحبسون نساءهم في الشرق وهذا حل متطرف.. ولكن ما يحدث هنا حل متطرف آخر واهٍ لماذا؟ أنا سويدي مثلكم ولكن ماذا أقول؟ مثلكم إن نساءنا مضحكات إلى حد الموت..

كان باول طالباً في الجامعة.. وقد اصطادته إيرما هناك.. وكان والداه يعيشان منفصلين منذ عشرين سنة وقد زرته مرة.. كانت أمه مخمورة ومعقدة وبذيئة، وكانت طبيبة في مستشفى استوكهلم.. وقد قالت لي إنها لا تكره أحداً في العالم سوى اليهود.. وحيوان الخرتيت زوجها بونتي ماكد..

وقال باول بحزن مفاجئ: أنا لا أشعر بأي فخر.. وليس من العدل أن تحبسوا نساءكم.. ولكني أقول لك.. أجل يا سيدي.. إنكم ستغرقون في مشاكل جنسية مقززة إذا مشيتم وراءنا مباشرة..

وضحكت إيرما بهزء..

فيما نظر الآخرون إلى باول.. وقلت ببطء: ولكننا لن نمشي

وراءكم إن ذلك لا يمكن أن يحدث في حضارتين على التوالي. أنا محتار مثلكم.. ولكني أعرف أنهم سيجدون طريقهم هناك.. إنهم يحاولون كل يوم.. ولدينا أمهات يعرفن ذلك.

وسألت إيرما يعرفن ماذا؟

وأغمضت عيني: يعرفن! يعرفن أن ثمة مقصلة تقع في مكان ما بين الشجاعة وبين الطيش.. إن المشكلة يا إيرما أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي استطاع أن يكذب على نفسه.. وأعتقد أنكم وقعتم في هذا الفخ هنا وعليهم أن يتجنبوه في بلادنا..

وفجأة داست إيرما على قدمي تحت المنضدة.. وعندما نهضت لترقص بعد ذلك بدت صغيرة.. وجميلة.. وبسيطة، وتطاير شعرها الذهبي فوق عينيها.. وكانت تفتح شفتيها مثل كرزتين ناضجتين.. مؤلمتين.

وأغمضت عيني.. واندحر شيء في داخلي مرة أخرى.. ولقد كان مفاجئاً وخاطفاً مثل لذعة العقرب، ومددت يدي في يأس.. كانت أمي تجلس أمامي مباشرة، وكانت عيناها عجوزين مؤنستين.. وكانت تبدو متعبة قليلاً.

وشدت على يدي وقالت بلهفة: ماذا! حدث؟

وواصل ذلك الشيء اندحاره في داخلي.. كان يمضي إلى قلبي مباشرة.. وتكسرت مواشير الضوء في القمة.. والتمع العالم كله مرة واحدة في ومضة حريرية.. متفجرة. ولفّني شيء بارد.. أجوف متصلب مثل حدّ المدية وقلت لها: أنا أموت. إن ذلك يحدث الآن..

وشدّت على يدي الأخرى وأغمضت عينيها.. كانا مثل مصباحين انطفآ فجأة.. وافتقدتهما افتقدتهما وبكيت.

وفي الخارج.. نامت الطيور في الثلج..
وتجمّد النهر..
تجمّد وجه السماء كله..
ثلج.. لا شيء آخر.. سوى الثلج..

1966

2

عندما يكبر طفلي

مثل بقرة بلا ذيل.. أنا أكلني الذباب.

وتجعّد وجهي العجوز، وسوف يواصل تجعّده حتى يصير «شريحة» في النهاية.. إن الرجال لا ينبتون فوق الكرم مثل التين، ولكن وجوههم تتجعّد عبر الطرق الطويلة وتصبح شريحاً في نهاية المطاف..

وأنا كنت طالباً ذات يوم.. وكنت أحب تلك اللعبة المدهشة.. ولقد ذهبت إلى المدرسة حتى في أيام المطر.. وحضنت كتبي تحت معطفي لكي لا تبتل.. ولم يكن وجهي مجعّداً.. كان مثل وجه أي طفل في العالم مثل وجه جدي حديث الولادة..

وتعلمت الجبر والهندسة، وعندما عرفت أن مساحة الدائرة تساوي ٢ ط نق ٢ أعطوني وسامين مبهجين ثم قالوا لي: دعك من ذلك، تعال نعلمك الأدب.. وذهبت معهم فقد أحببت تلك اللعبة المهيبة.

وفي اليوم الأول طلبوا مني أن أحفظ وصف السفينة، الذي كتبه «القاضي الفاضل» كان كلاماً محيّراً محزناً ولكني أفرغت جهدي وحفظته، وعندما نسيته بعد ذلك أفرغت جهداً مضاعفاً وأعدت حفظه.. وفي النهاية أصبحنا أصدقاء، وأحببت «القاضي الفاضل» وتمنيت لو أنه ما زال حياً ليكتب أشعاراً أخرى؟

وقال لي معلمي ذلك اليوم: هل رأيت أنه يشبّه السفينة بالطائر؟ أليس هذا محيّراً؟ إن السفينة لا تبدو مثل الطائر! أو لعلها تبدو.. من يدري؟

وذهبت إلى الميناء لأرى السفن.. لقد ذهبت إلى كل موانئ العالم.. ونزلت في المرافئ المزدحمة، وجلست على الأرصفة الطويلة الممتدة عبر جبال السفن.. ورأيت تلك المخلوقات الهائلة تنطلق وراء الخلجان تجرّها القاطرات.. ورأيتها تجثو عند المداخل الصخرية وتطلق صفارتها المفجعة للوداع ثم تبحر في اتزان.. كانت سفناً حقيقية.. وكانت وقورة.. متكبّرة.. ولم تكن تشبه الطيور قط.

وكتبت إلى معلمي رسالة من إحدى الموانئ.. قلت له:

لقد رأيت سفينة حقيقية ولم تكن تشبه الطائر، فلماذا قلت ذلك لي؟

وردّ معلمي في النهاية: أنا لم أقل شيئاً. متى قلت لك ذلك؟

وكنت إذ ذاك في مدريد.. وكنت قد قضيت شهراً كاملاً أنصب فخاخي لفتاة اسمها فيرى.. وعندما اصطدتها أخذتها إلى حانة وقلت لها مغمضاً عيني:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم

وسألتني: لماذا تقول ذلك الآن؟

وأجبتها: هذا شعر.. شعر حقيقي.. وقد مات الشعار من فرط الحب.. وتجعّد وجهها.. كانت تعتقد أنني قلت ذلك الشعر.. ثم هزّت رأسها الغبي في النهاية، وانطلقت تجري عبر النفق كالأرنب المذعور.. واعتراني اليأس أول الأمر ثم انطلقت أجري وراءها فإن السلحفاة تسبق الأرنب في نهاية المطاف..

وأصبحنا صديقين مرة أخرى.. بعد أن أقسمت لها أنني لم أكتب ذلك الشعر، وأنني سمعته من معلمي كما سمعت هي «سيجفريد الأخرق» من السنيور لوكا..

وقالت بضيق: ولكنني لم أقرأ لك شيئاً من سيجفريد.. هل سمعتني أقول شيئاً عنه.. لقد نسيته كله.. وعليك أن تنسى ذلك أيضاً.

وتشاجرنا في النهاية على أي حال..

فإن المرء لا بدّ أن يقول للآخرين ما يعرفه بطريقة ما. أعني لا بدّ أن يقول شيئاً بين حين وآخر.. ولذا فقد سافرت إلى القاهرة لكي أقرأ ما حفظته هناك.. واصطدت حفيدة القاضي الفاضل نفسها. كانت تعمل في ملهى البالميرا.. وكانت تتقاضى جنيهاً كاملاً عن كل كأس.. ولقد أفرغت جيوبي لكي أقرأ لها قصيدة جدها، وعندما خرجت آخر الليل من الملهى كنت أحسّ برغبة خرقاء في أن أخترق ميدان العتبة من وراء سور الأزبكية مثل عربة الخديوي توفيق.. ولكن الطريق كان مسدوداً في النهاية.. وقد اضطررت أن أقفز فوق الأسلاك الشائكة وتمزقت يدي.. وعند الفجر باعني أحد الأوغاد خاتماً من الزنك.

«كركة» كانت تحيل الرجال إلى خنازير.. كانت تطعمهم لوزاً محشواً بنبات الردّ وتطلب منهم أن يغمضوا أعينهم في الظلام لكي يصيروا خنازير بيضاء، ولقد أحبّ الرجال هذه اللعبة المهيبة وانقلبوا جميعاً إلى خنازير.. حتى عولس صار خنزيراً أبيض وانطلق يجري في شوارع إسبرطة بذيله البذيء.. وعندما شجّ الأطفال رأسه في النهاية اقتعد حجراً وشرع يبكي! ولكني لست عولساً.. أنا بقرة بلا ذيل، وقد أكلني الذباب.

قال معلمي: إن الواحد لا يقبل القسمة على اثنين..

وعندما فعلت ذلك أخذتني الشرطة وحرّروا لي مخالفة، ثم حكموا علي بالإعدام..

وفجأة تنبثق في غرفة المشنقة شفتان باردتان مثل حبتي شمار واهتف:

فيرى.. ماذا تفعلين هنا؟

لا شيء.. جئت أودعك؟

ولماذا جئت تودعينني؟

إنهم سيشنقونك.. أليس كذلك؟

وأخفض رأسي.. وأرى إلى المشنقة العجوز.. لقد تآكلت إحدى عارضتيها وتهدلت حبالها فوق العارضة الأخرى.. بينما طلي حبل العنق بشحم الحوت النتن.. وأهتف فجأة:

ولكن.. ألا يبدو ذلك محيّراً؟ إنهم يعلموننا في مجموعات ثم يتركونا نذهب إلى المشنقة كل على حدة أعني مثل النعاج (كل نعجة تعلق من كراعها) أليس ذلك محيراً؟

وسألتني فيرى: ماذا؟

إنها لا تعرف النعاج لأنها لم تر في حياتها سوى الخنازير.. على مدى البصر خنازير..

وأقول لها: مثل الخنازير.. كل خنزير يعلق من كراعه.

وفي الصباح جاءني الحارس.. وربطني بحبل، وأخرج لساني، ووضع رأسي نحو القبلة، بينما سألني أحدهم عن أمنيتي..

وقلت له: أرجوك أطلق سراحي وأنا أعدك بأنني لن أظلم الناس أبداً..

فنظر إليّ ولم يصدقني..

وتذكرت شيئاً قاله المسيح، فقلت له:

وسوف أتركهم يظلموني.

فنظر إليّ ولم يصدقني أيضاً..

وفجأة.. وفيما سقط شعاع الشمس في عيني، توجهت أحزاني مثل قشور السمك وانطلقت آلاف الأميال عبر صدري المتعب.. ورأيت «لوكا» يمشي وحده بحذاء جسر الماردينا في آخر الليل بمدريد.. كان ممتلئاً بلحم البقر والخمر.. وكانت خواتمه تلمع في الظلام مثل عيون القطط.. وكان معلماً كبيراً في مدريد.

وضربني لوكا بعصاه، كان قد ظن أنني كلب السنيورة «تاريسا» وكان يضرب كل كلب بعصاه. وعندما عرفني قال لي في غضب:

ولكن.. ماذا تفعل أنت هنا؟

وقلت له: أنا يا سيدي جئت لأرى السفن لأن القاضي الفاضل قال إنها تشبه الطيور.. أعني خطاطيف الماء.. يا سيدي.

ومضى لوكا في سبيله..

ثم سمعته يضرب كلباً في نهاية الشارع.. وفيما انطلق الكلب يعوي خلال الليل خطر في ذهني أنني لو كنت رجلاً مهماً.. لو كنت غنياً.. أو حكيماً لو كان عندي سكين لقتلت ذلك الكلب..

عندما يكبر طفلي.. عندما يولد ويكبر.. سوف أحكي له قصة شنقي المحزنة.. وسوف أقول عندما أحمله إلى المدرسة:

إنهم يلتقطون صوراً تذكارية في الداخل.. حاول أن تبدو دائماً نظيفاً.. وسعيداً.. وممتلئاً بالرضا. أو حاول أن تكون نظيفاً فحسب.

أخي القارئ أو ماذا تريدني أن أقول له؟

عندما يولد.. ويكبر.. وتحمله الحياة مسؤولية جيل كامل؟

1966

3

الشعر وتجّار البترول

كل كلمة.. كل شيء مصاب بالحزن.

والمطر يهطل بلا انقطاع، والعالم محارة معبأة بالماء، فأين يذهب الفقير يا سيدي الشيطان؟

إن الفلسفة لا جدوى فيها..

فالعالم ملك المرابين وحدهم، وكسرة الخبز يزرعها الفلاح ثم يأكلها سيده مدهونة بالعسل، ويعده بالذهاب إلى الجنة في نهاية المطاف..

حدث ذلك دائماً.. ويحدث غداً.. وكلما أعلن أحد الفلاحين عن جوعه، يحمله سيده إلى سوق العبيد، وتفتح السوق في الحال:

من يشتري عبداً من قوقاز؟

ومن يشتري رجلاً بقرش؟ ولمن تهز الفلسفة رأسها، فالمرابي لا يرى سوى رأس الدينار، والعبد للبيع، ليحلب الثور من قرنيه ويحرس عنزات سيده في الحريم..

هل تحبون قراءة الشعر؟

يا أصدقائي التجار في سوق البترول، وباعة الحمص، والخبز والقسطل والصلوات؟

وهل تحبون أبا زيد الهلالي؟ فقد كان صديقكم، وكان يعبئ جيوبه بالذهب من تونس الخضراء، حتى أصابها بالجدب.. وقد قتل كل من وقف في طريقه، ومشى على جثتهم متغنياً بالذهب حتى مشى اللّه على جثته في النهاية وحمله إلى الجحيم في نعش ذهبي..

فبلّغوه السلام..

وبلّغوه أن ما حدث في تونس.. حدث في غيرها.. وأن الرجال جميعاً أبو زيد الهلالي..

وعندما تأتي العاشوراء انتظموا لكي تفرقوا الصدقات على صفوف الجائعين التي سوف تفرش الطريق بين الفندق وبين سوق الظلام رافعة أيديها بالدعوات أو اطلبوا من الدولة أن تفعل ذلك بالنيابة عنكم.. فقد فعلت كل شيء بالنيابة عنكم حتى الآن..

الدولة بنت مدارس أولادكم وأعادت إصلاح الشوارع لكي تشعروا بالراحة داخل عرباتكم وبنت المنازل للعمال الذين يحفرون مناجمكم عبر الصحراء وأعطتهم فرص العلاج والتأمين لكي تخفف من ألم ضرباتكم الطائشة فوق ظهورهم.. الدولة فعلت كل شيء من أجلكم، فيما واصلتم أنتم كنز الذهب والشعير يا أصدقائي تجار البترول.

وعندما تدفعون ضرائبكم الطفيفة تنتهي مهمتكم.. فالشعب تطعمه الدولة، والجائعون ينالون صدقاتهم يوم عاشوراء، والكنز يخرجه الصياد دائماً، هكذا حدث في ألف ليلة..

وهذا بلد ديموقراطي، يعطي كل إنسان فرصته، فما ذنب التاجر إذا كانت مواهبه ترشده إلى مكان الكنز وحده وأي فرصة يستحقها الفقراء الذين لا يملكون حاسة جيدة للشم، غير أن يجتمعوا يوم الصدقات، ويرفعوا أيديهم إلى اللّه طالبين منه أن يحفظكم إلى الأبد مثل التماثيل فليحفظكم اللّه إذا شاء.

ولكن ما تفعلونه ـ يا تجار البترول ـ عمل يملأ قلب الشيطان نفسه بالخجل.. فقد نسيتم، أو لعلكم لم تنسوا: أن كل إنسان يأتي إلى العالم عارياً، فإذا غادره بقطعة قماش فلا بدّ أنه حصل عليها من الآخرين.. وأنتم تريدون أن تغادروه في نعش من الذهب، فهل تكفي جثث شعبنا لكي تعتصروها في ألف نعش؟

أم أن الدولة مطالبة بأن تخلق لكم ذلك بالسحر؟

وما فائدة الذهب في قبر مظلم يا أصدقائي الفراعنة؟ أنتم لا ذنب لكم في ما حدث، فقد كان الأمر كله صدفة طيبة، ولكنكم أسأتم الفهم لمعنى الصدفة ذاتها.. وأصبحتم فراعنة.

فالمساواة في الفرص التي تهيئُها الدولة لشعبنا لا يمكن أن تفهم باعتبارها فرصة لمعركة حرة، يفوز فيها الأقوى والأكثر قدرة على الشم بل هي فرصة للعدل، لإعطاء كل إنسان ما يستحقه بطريقة عادلة، وإعانة هذا الإنسان على رفع مستوى قدراته بانتظام.. فإذا سقط أحد ما على الطريق فلا بدّ من إعانته على الوقوف.. وكل من يدوس فوق جثته يعتبر قاتلاً حقيقياً..

فهل فعلتم شيئاً من أجل رفع قدرات شعبنا..

هل فعلتم شيئاً واحداً منذ اقتحام المعركة.. وهل توقفتم عن الاعتماد كلية على جهود الدولة وحدها.. أم كنتم تمشون فوق الجثث طوال الوقت؟

أنتم نلتم فرصتكم كلها، كما نالها أي رجل في أي بلد ديموقراطي، ولكنكم أسأتم استعمالها بطريقة مشينة لأنكم ـ يا أصدقائي الفراعنة ـ فارغو الرؤوس إلى حدّ الغم.

هل تقرأون الشعر؟

وهل سمعتم أن ثماني جامعات في الولايات المتحدة تنفق عليها مؤسسات تجارية.. وأن أحد التجار أنشأ سبعين معهداً لإيجاد علاج للسرطان، وأن نصف الأدوية التي تأكلونها الآن تمّ ابتكارها في هذه المعاهد. هل سمعتم مرة عن رجل اسمه شميلنج ـ أنشأ ثلاثة آلاف مدرسة لتعليم العمال الألمان، وأن ألمانيا ـ بفضل هذا الرجل ـ لا تحتوي أمياً واحداً الآن..

وهل تعرفون مرض السل فقد تمّ إيجاد علاجه في معهد روكفلر، الذي كان تاجراً مثلكم.. ولم يكن مصاباً بالسل.

ورالف سكوت ـ ذلك تاجر أحمق آخر، بدّد ثروته في تعليم مواطنيه الأمريكان في القرن الماضي، وقد تخرّج من أحد مدارسه العمالية، ولد اسمه ـ غراهام بل ـ واخترع التليفون الذي ترفعون سماعته الآن وتقولون ـ هاللو ـ والصنداي تايمز ـ أنشأها أحد تجار اللبن.. ـ والهيرالد تريبيون ـ أنشأها شيطان آخر.. والمكتبات العامة التي تمتد بين شارع سان باول في هامبورغ وبين شارع ـ لابينتا ـ في ميلانو أنشأها كلها التجار ولم تشتر أي من الدول كتاباً واحداً فيها.

وحديقة سبيليوس ـ في الأرجنتين بناها تاجر سويدي باعتبارها هدية من السويد إلى أمريكا اللاتينية.... فلماذا فعل ذلك؟ لماذا لم يسافر إلى القاهرة ويكتر شقة في الزمالك ويملؤها بالخير..؟

وجائزة نوبل ـ تنفق عليها مؤسسة تجارية.. وقد كان نوبل تاجراً مثلكم، وقد اخترع الديناميت ثم أنشأ جائزة للسلام باعتبار أن الشر لا يوقفه إلا عمل الخير.. هل تعرفون ذلك..

ـ وشركة اسو ـ التي تدورون حول مائدتها، تنفق ربع أرباحها على المعاهد العلمية في بلادها، وفي أحد هذه المعاهد نبتت فكرة السفر إلى القمر، وتخرّج المهندسون الذين قاموا بتنفيذها....

هل تقرأون الشعر؟

وهل فعلتم أنتم شيئاً من أجل هذا البلد.. وهل توقفتم عن الاعتماد كلية على جهود الدولة، فهي غنية بما فيه الكفاية.. وقد دفعتم ضرائبكم إلى خزانتها، ولم يعد ثمة ما يدعو لإقلاقكم..

هل فعل أحدكم شيئاً واحداً من أجل ـ ليبيا ـ سوى زيادة متاعبها في إيجاد العملة الصعبة للإنفاق على فتيات النوادي الليلية الشرهات.. وشراء منتجات الآخرين من السيارات إلى علب البصل المحفوظ.

المجد للأعالي..

وعلى الأرض السلام.. والفرص.. والبترول.. فليشرب عمالكم من البحر حتى يحرق الملح صدورهم ولتومض كلمات الحكمة عبر السعال وليجتمع الفقراء يوم عاشوراء ويرفعوا أيديهم إلى اللّه مطالبين بالصدقات..

خذ.. هذا قرش لك.. وقرش آخر بقشيش..

وهذا شال تحمله لزوجتك، وتبلغها السلام.. وعد لأراك في العام التالي.. فأنا تسعدني رؤيتك.

ويمتلئ السوق بالشحاذين كما حدث في ألف ليلة..

ولكنهم شحاذون من نوع جديد.. إنهم ليسوا جائعين.. وليسوا في حاجة إلى ذلك القرش.. إنهم تجار صغار ممتلئون بالنهم مثلكم، وهم يأخذون قروشكم المضحكة الضالة ويلعنون الزمن الذي ـ لم يرشدهم إلى الكنز قبلكم.

إنهم ليسوا في حاجة إلى الأكل.. ولكنهم في حاجة إلى الإحساس بالكرامة.. في حاجة إلى مدرسة.. إلى كتاب.. إلى إنسان يشعرهم بالقيمة.. إلى تاجر يعرف معنى الصدقة..

وأنتم لا تعرفون ذلك..

إنكم لا تعرفون سوى وجه الدينار، ولا تستطيعون أن تعطوا شيئاً سواه.. والصدقة إحساس ذكي بحاجة الآخرين الحقيقية.. إنها ليست توزيعاً للقروش بين الأيدي الممدودة.. وليست استعراضاً للثروة أمام مجموعة من الشحاذين. إنها مسؤولية الأغنياء تجاه الشعب كله..

مسؤولية الإعطاء الحقيقي في المكان المناسب.. لذا كانت الكلمة الطيبة صدقة أيضاً، وليس القرش وحده..

وشعبنا ليس فيه فرد واحد يحتاج إلى قروشكم حقاً..

ولكنه مليء بالفجوات التي يتحتم عليكم إعانة الدولة في إغلاقها.. إنه شعب بسيط أميّ، يحتاج إلى كثير من كل شيء والدولة لا تستطيع أن تقوم بذلك كله وحدها..

فالعمال الذين يعملون في حقولكم لا تستطيع الدولة أن تعلمهم إلا إذا أبديتم أنتم تعاوناً معها..

والسعاة والسائقون وعشرات الرجال الآخرين الذين يقومون

بخدمتكم لا يستطيع أحد أن يسد حاجتهم إلى الرعاية سواكم، وقطاعات الشعب الأخرى التي تساهم في إنماء ثروتكم تملك الحق في كثير مما لديكم.. وبلادنا كلها تملك هذا الحق..

فأنتم لستم كل شيء هنا.. أنتم مجرد جيل واحد في ألف جيل..

فهل تقرأون الشعر؟

وهل ينشئ أحدكم مكتبة في إحدى القرى.. أو يكتري معلماً لكي يقول لعماله إن الأرض كرة وإنها تدور دائماً..

وهل يستطيع أحدكم أن يقنع زملاءه بإلغاء الاحتفال يوم عاشوراء وجمع نقود الصدقة لإنشاء مدرسة.... أو مستشفى.. أو مسرح يعرض شيئاً غير أفلام رعاة البقر..

وهل تكفون عن خداع أنفسكم؟ فإن البنات في أثينا والقاهرة لا يشعرن بأية عواطف تجاهكم.. إنهن أكثر بؤساً من أن يفهمن موقفكم.

وهل ـ تحبون ـ أبا زيد الهلالي؟.

فقد كان رجلاً استعراضياً مثلكم، وكان يجب أن يقف في نافذة صديقته وينثر الصدقات على الفقراء..

لا.. ليس ثمة فائدة، فإن الذهب مرض مثل بقية الأمراض.. وقد وصل إليكم قبل أن تشفوا من الجهل.. واختلطت الحمى بالحمى حتى لم يعد ثمة أمل في الشفاء.. فبلغوا أبا زيد الهلالي السلام وقولوا له إن ما حدث في تونس.. حدث في غيرها.. وإن الإنسان لم يتعلم شيئاً خلال الأحد عشر قرناً التي قضاها في الجحيم..

ولتواصل الدولة بذل جهودها وحدها فقد فعلت ذلك حتى الآن.. وسوف يعين الله بلادنا لكي تفعل ذلك دائماً..

1966

4

خسائري طفيفة

خسائري طفيفة: أنا ما زلت قادراً على المشي..

وما زالت شوارع العالم تمد لي يديها مبدية غاية الودّ... والمقاهي المضاءة طوال الليل تبيع السجاير وأكواب اللبن الدافئة، وأصدقائي باعة السجق يقفون في انتظاري على كل الأرصفة:

«هل تشعر بالجوع يا سيدي؟ هل أبيعك من هذا السجق؟»

ويتدخل بائع آخر من الرصيف المواجه: «لا تشتر منه، إنه لا يملك رخصة للبيع» ثم يضيف بازدراء: «هذا ياسكا القذر، هل سمعت عنه؟»

ويحتقن وجه ياسكا من الغضب، ويشرع في شتم زميله.. ثم يدعوه للشجار خلف الساحة «سأحطم رأسك هناك وأصنع منك سجقاً»..

ويقول لي زميله: «هل سمعت أنه يصنع السجق من أي شيء!»

وفجأة يدرك الاثنان معاً وفي لحظة واحدة أنني لست أبيض الجلد.. ويصيح البائع من الرصيف المواجه: «أي زبون عجيب هذا.. إنه أسود اللون» ويرد ياسكا وهو يتفحصني بنظراته الخرقاء: «أجل! هل رأيت ذلك؟ إنه مجرد زنجي».

ثم يصلني الصوت الساخر: «متى وصلت من الجحيم.. هل شوى أحدهم جلدك هناك؟»

ويقول ياسكا متراجعاً إلى الوراء «إنه مجرد زنجي.. دعه يمضي لشأنه» ثم يشير لي بيده، طالباً أن أبتعد، وأعبر الشارع إلى طرف الرصيف الآخر.

وفجأة تخطر في ذهني إحدى لعبي القديمة وأصيح لهما بأعلى صوتي «تعالا طارداني.. ومن يمسكني منكما اشتري منه بدولار» ويطلب مني ياسكا أن أقسم، ثم أرى إلى ظل البائع الآخر يتسلل بحذاء الجدار محاولاً أن يفاجئني عبر العتمة.. وفي لحظة واحدة ننطلق معاً عبر أزقة أوسلو مثل أحصنة السباق.

ويهطل المطر..

ويغسلنا جميعاً ويحمل أحزاننا إلى البالوعات، ثم أفقد طريقي وأتوه في الحواري الموحلة.. وأتوقف عن الجري.. أين أنا الآن؟ إن كل ما أعرفه أنني ما زلت أمشي..

هذه أوسلو، مدينة أمرسون العجيب الذي انطلق منذ ستين عاماً يسابق بريطانيا للوصول إلى القطب، فوق زحافة تجرها الكلاب.. كان أمرسون إذ ذاك مجرد شاب معدم لا شيء لديه سوى زحافته الصغيرة وفريق من الكلاب الروسية، وكانت بريطانيا تعبئ بعثة هائلة مزوّدة بأسطول كامل من البواخر العملاقة لكي تصل إلى القطب وتضمه إلى أملاك الإمبراطورية

وكانت الجمعية الملكية قد عهدت بقيادة البعثة إلى «سكوت» العظيم بنفسه، لكي تضمن كسب السباق بصورة مؤكدة..

ومع ذلك، فلم تكسب بريطانيا السباق..

واستطاع أمرسون أن يخترق جليد أنتريكا فوق زحافته الصغيرة، منزلقاً عبر آلاف الأميال الثلجية المقفرة إلى القطب نفسه، فيما كان سكوت يجر معداته الثقيلة وعرباته وبغاله في بطء مشين، ثم ينفد صبره ويقرر أن يغامر بالمضي وحده، متخلياً عن معداته، مكتفياً بأربعة مرافقين عديمي الخبرة مثل طلاب المدارس.. ويموت «سكوت» في النهاية داخل خيمة ضائعة في كثبان انتريكا، متضوراً جوعاً مثل أحد ذئاب القطب التي تتأخر في الهجرة..

وكانت آخر كلمات «سكوت» في مذكراته: «لقد وصلنا إلى القطب، ووجدنا أن أمرسون قد سبقنا إليه وترك لنا رسالة إلى ملك بريطانيا.. إن القطب الآن منطقة نرويجية..».

وهكذا عاد الغزاة بأجساد الموتى..

ثم دخلت بريطانيا سباقاً آخر يختص بأوسلو..

وقررت في بداية الحرب الماضية أن تبعث أسطولها لاحتلال النرويج واتخاذه قاعدة العمليات الحربية الموجهة ضد ألمانيا من البحر والجو.. وحمل الجواسيس نص الخطة إلى هتلر مباشرة، وفي تلك الليلة سمع العالم أن السلاح الجوي الألماني سوف يذهب في نزهة إلى أوسلو..

وضاعف البريطانيون سرعة أسطولهم في المحيط..

وجرت البواخر بأقصى ما تستطيع.. وبدأ السباق كله في

لحظة واحدة ولكن بريطانيا خسرت مرة أخرى، واجتاحت قاذفات القنابل الألمانية دفاع النرويج في أربع ساعات فقط، ثم هبط المظليون وأعطوا مملكة النرويج لهتلر، الذي ظلّ يحتفظ بها في قبضته حتى انهارت قواته في روسيا، وحطّم زوكوف رأسه بمطرقته القوقازية المتوحشة..

سباق! هذه هي أوسلو.. مدينة كتبت تاريخها عدواً.. ثم قررت أن تجلس تحت المطر في حراسة المصانع وباعة السجق الشجعان الذين لا يكفون عن مطاردة السواح حتى يسلبوا منهم كل العملة الفكة:

«هل تشعر بالجوع يا سيدي؟ هل أبيعك من هذا السجق؟».

ويفتش السائح داخل جيوبه ثم يقلع منطلقاً مثل أحد أحصنة السباق حتى يضيع في الأزقة فليس ثمة حل آخر على أي حال.

وباعة السجق يقفون على كل الأرصفة.

من هلسنكي إلى أقصى قرية في الدانمرك بلا انقطاع، يحملون صناديقهم الزجاجية ويطوفون بها متسكعين فوق أرصفة المحطات والشوارع، معلنين رغبتهم في ملء بطنك بلحم الخنزير مقابل أي شيء.

«ماكارا» هل تريد «ماكارا»؟

وأنظر إليه شزراً محاولاً أن أخيفه بطريقة ما، ثم أتسلل بحذر عبر أحد الأبواب الجانبية، وأجد شوارع استوكهولم تمد لي يديها على عادة الأصدقاء القدامى مبدية غاية الود.

«سكابلورا أيها الغريب».

وأغمض عيني وأحس باليد الحريرية فوق كتفي، ثم تصلني

رائحة العطر مثل عربة محمّلة بزهور الجادوار: إن الموضة في استوكهولم هذه الأيام هي أن تلبس ملابساً عربية وتأكل ـ بأصابعك وتطلي وجهك بطلاء برونزي مثل وجوه العرب.

استوكهولم تجري لاهثة وراء أي شيء عربي..

برامج التلفزيون لا تعرض سوى الحلقات التي تجري أحداثها في البلدان العربية.. دور السينما تتسابق لعرض أفلام هوليوود عن حقول الزيت العربية.. ومطاردة المجرمين الدوليين في أزقة بغداد ودمشق وصنعاء.... قصص الصحف والمجلات تمتلئ عن آخرها بالمغامرات في بلدان العرب..

ليس ثمة شيء في استوكهولم الآن لا يلبس عقالاً وجلباباً أبيض ويقول بلغة عربية فظيعة: «أنا أحب فاتمة»!

الموضة جاءت من أمريكا بالطبع..

من البلد الجهنمي الذي لا يكف عن الإساءة إلى أحد.. والذي استهلك تاريخ الهنود الحمر في أفلامه اللعينة، وقتلهم جميعاً بمسدس أحد رعاة البقر، ثم جاء يسرق تاريخنا ليجعل منا هنوداً في عواصم العالم:

* ولد أمريكي اسمه «القديس» يعيد أمراء العرب إلى عروشهم ويقتل أعداءهم بحذائه اللامع دون أن يفسد تسريحة شعره!

* ولد آخر اسمه «دايك» يتسلق شرفة قصر الحاكم في مواعيد غرامية مع الجواري تثير البكاء!

* بنت أمريكية أكثر قبحاً من الشيطان في أسوأ حالاته، تجعل «الشيخ» يركع على ركبتيه عارضاً عليها أن «يقتل» جميع

زوجاته لكي تتزوجه، ثم يدبر خطة لخطفها بلواء كامل من الجيش، ولكن فارسها يأتي من أمريكا وينقذها في آخر لحظة ملحقاً هزيمة منكرة بالجيش كله!

* «جيمس بوند» يجر وراءه غولة أمريكية معبئة عينيها بالكحل لكي تبدو مثل سيدة عربية تطارح الفارس الأوروبي الغرام في حديقة القصر!

قصص عجيبة مصابة بأسوأ النوايا تسلّط أسنانها في سمعتنا طوال الوقت مثل السناجب المسعورة.. وبقية العالم يشاهد اللعبة في اهتمام ويختزن في رأسه الفارغ كل شيء يسمعه، لكي يعيد قوله بمجرد أن يرى أحدنا هناك.

«هل نذهب إلى المقهى يا علاء الدين».

وأنظر حولي.. وأراها تقف فوق الرصيف الآخر، غارقة في الطلاء مثل أحد المهرجين.. حافية القدمين، مطوّقة يديها بأساور العاج، مطلعة كراعها اللعينة مثل كراع نعجة مسلوخة..

وأقول لها: «فاتمة يا خبيبتي تعالي طارديني، وإذا لحقت بي، اشتريتك بدولار». ثم تعتريني مشاعر السأم، وأحس بالعقم يمزق قلبي مثل أسنان المنشار الصادئ... والسموات الرمادية تناصبني العداء.. والمطر يحرق عيني بالماء الصاعق البرودة... وأرى إلى المهرجة المسلوخة تتسلل وراء ألواح الإعلانات محاولة أن تبدأ لعبة المطاردة.. «تلك لعبة قديمة.. إن أحداً منكم لا يستطيع اللحاق بي.. فأنتم وراءنا بألف سنة».. وأعبر الشارع المواجه ثم أستدير إلى فردريك قاتن وأجتاز الميدان المزدحم إلى محطة القطار: «تذكرة إلى بيتنا».

ويرفع الموظف رأسه ويقول على الفور: «وأين بيتكم يا علاء الدين؟».

خسائر طفيفة.. أنا ما زلت قادراً على المشي..

وما زلت أحسن العدو مثل كل قطط إفريقيا.. وإذا كنت أتهالك أحياناً عبر لحظات اليأس المفرغة.. فقد ظللت دائماً أؤمن بالشمس الطالعة في اليوم التالي.. وظللت قادراً على الانتظار..

والشمس تطلع دائماً..

حتى هنا ـ في أقصى الشمال ـ تطلع الشمس دائماً.. وكل ما أحتاجه أن أنتظر انقشاع السحب الكريهة..

وإهانات المهرجين لا تخيفني..

فشعوبنا لن تخسر معركة بالأكاذيب.

خسائري طفيفة.. أنا لم أفقد شيئاً سوى الشمس..

1966

5

كلمات الحق القوية

كلوديا ديفارج صحفية ألمانية شقراء..

كانت تذرع بلاد الشرق الأوسط لكي تكتب عن النساء والإسلام..

وعندما عادت إلى ألمانيا بعد عامين حافلين بالحب والرجال والمتاعب، أعلنت كلوديا الجميلة فجأة أنها مشمئزة من بلادنا.. وأنها تكرهنا لأننا تعساء..

ثم ارتكبت كلوديا خطأ لا يغتفر..

فقد افترضت أنها وضعت يدها على «سرّ تعاسة المرأة المسلمة».... وافترضت أنها تستطيع أن تقدم حلاً جذرياً للمشكلة.. ثم أغمضت عينيها وشرعت تكتب مجموعة من المقالات المحيرة عن المرأة في بلادنا.. وكان الخطأ الفظيع الذي ارتكبته في غمرة حماسها النزق أنها اعتبرت «الإسلام» رأس المشكلة..

ولم تكن كلوديا تعرف شيئاً حقيقياً واحداً عن الإسلام..

ولم تكن مؤهلة لذلك بأي وجه.. ولكنها كانت تملك عدداً لا يحصى من صور العجائز والنساء المحجبات، وكانت تحمل في رأسها فكرة مضحكة ـ هي في الواقع كل ما تعرفه أوروبا عامة عن الإسلام والشرق.

ولكن الصحف الكبيرة أتاحت لها فرصة لكي تنقل أفكارها إلى كل بيت في ألمانيا.. وخلقت منها أسطورة خارقة.. وتعلمت كلوديا كيف تنتهز الفرصة الجيدة وتغذي جوع الناس إلى الأوهام، فكتبت عشرات القصص الفظيعة عن قتل النساء في «بلدان المسلمين».. عن جرائم الاغتصاب والسجن والجنس والحشيش والإجهاض.. وقالت كلوديا إن الإسلام «يأمر» بالزواج بأربع.. وإنه يعتبر «المرأة» حيواناً دنساً ويأمر بالاغتسال من دناستها، وقالت كلوديا أشياء كثيرة أخرى أشد فظاعة، ونشرت عشرات الصور للعجائز الفقيرات في الجزائر ومراكش، وخلقت كل ما تريد خلقه من الحكايات.

ثم حدث شيء غريب، فقد أعلن البروفسور «كونتز» فجأة أنه يريد أن يتحدث مع الآنسة ديفارج في مناظرة عامة، وأنه يشك في أن الآنسة المذكورة تعرف شيئاً واحداً عن الموضوع الذي تكتبه للشعب الألماني.

وحملت الصحف دعوة المستشرق العجوز، واضطرت كلوديا أن تواجه اللحظة الفظيعة وحدها، وعندما نهض كونتز ليفتتح الحديث بعد ذلك، بدا متأثراً مرتجف الصوت، وقد قال:

لقد تفضلت الآنسة ديفارج مشكورة بتلبية دعوتي للاستفهام منها عن نقطة رئيسية فيما كانت تكتبه عن المرأة المسلمة،

والذي فهمته من مجموعات تلك المقالات أن الآنسة ديفارج تعتبر الإسلام (كدين) مسؤولاً عن تلك المهزلة، وهذه هي النقطة التي سوف أركز أسئلتي عليها، أما باقي ما كتبته الآنسة ديفارج فأنا لا أريد أن أتعرض له لأن تلك المشكلة لا تخصني بطريقة مباشرة، فهي مشكلة كريهة معروفة، وليس ثمة جدال في أن مركز المرأة في البلاد العربية، خاصة، مركز سيئ وممقوت.. ولكن، هل ذلك نتيجة ظروف تاريخية معيشية، أم هو نتيجة مباشرة لاعتناق الإسلام.. وهذا أول أسئلتي..

وقالت كلوديا: هما معاً يا سيدي الأستاذ.. إن الدين جزء من التاريخ.. واستأذنها كونتز: معذرة.. دعيني أضع سؤالي بطريقة مباشرة هل تعتبرين «الإسلام» سبباً في سوء مركز المرأة المسلمة؟

نعم..

وهل تحددين «الإسلام» باعتبار أنه ضد المرأة أو في جانبها؟

إذا اعتبرنا مركز المرأة الأوروبية الحاضر فإن الإسلام ضد ذلك.

وأومأ المستشرق بيده ثم قال ببطء: معذرة يا آنسة ديفارج، فنحن لا نعرف بعد عما إذا كان ما فعلته المرأة الأوروبية الآن هو الشيء الصحيح الجيد.. ولكني لا أريد أن أناقش ذلك على أي حال.. فدعيني أضع السؤال هكذا: هل أساء «الإسلام» إلى المرأة المسلمة كما قلت؟

أجل.. بالتأكيد..

هل تفسرين ذلك؟

وقالت كلوديا: لقد حبسها... سلب حريتها وحبسها في البيت.

هل فعل الإسلام ذلك؟

أجل..

هل أنت متأكدة يا آنسة؟ فأنا لا بد أن أطلب منك إبراز النص..

وقالت كلوديا: سأقول لك النص إذا أردت.. ولكن هذا شيء معروف.. لقد طلب «القرآن» من كل امرأة مسلمة أن تلزم بيتها.. ثم قرأت ترجمة النص القرآني ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾.

وسألها كونتز: هل يثبت ذلك شيئاً؟

فقالت بدهشة: أجل.. لماذا؟ لا يعني ذلك أن النظر إلى وجوه النساء محرّم؟.. ثم إن باقي الآية يعدد الأقارب الذين لا يحرم عليهم ذلك.. هل أقرأ باقي النص؟

وابتسم كونتز وأومأ لها بيده: شكراً أنا أعرف ذلك.. ولكن هذا النص بالذات نزل في شأن نساء النبي (ص). وليس في شأن كل النساء.

والقرآن يقول قبل ذلك: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ فليس هذا هو النص الذي أطلبه منك..

ونهضت كلوديا واقفة وقالت في غيظ: ماذا يعني ذلك يا سيدي.. هل تريد أن تنكر أن القرآن أمر بحبس المرأة..

وهزّ لها كونتز رأسه في هدوء.. فيما صاحت: ولكن هذا

هو ما حدث.. وقد أمرت المرأة بأن تلزم بيتها، ثم اعتبرت نصف إنسان..

وقال كونتز: نصف إنسان! متى؟

فقرأت كلوديا ترجمة النص القرآني: ﴿يوصيكم اللّه في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾.

وماذا يثبت ذلك!

إن الرجل يساوي امرأتين..

وضحك المستشرق العجوز ثم قال في ود: هذه آيات في الميراث وقوانين اقتصادية، أنا لست مؤهلاً لنقاشها معك..

وقالت كلوديا: وما رأيك في النص القرآني: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾.

وسألها كونتز: ألهذا قلت إن القرآن يأمر بالزواج بأربع؟

أجل..

ولكنك أخطأت فهم النص يا آنسة، فالترجمة غير سليمة والقرآن يضع شرط العدالة للزواج بأكثر من واحدة.. وهو شرط يكاد يكون مستحيلاً طبقاً للقواعد البشرية العادية. ولو أصدرت إحدى الحكومات الإسلامية قانوناً يلزم من يتزوج بأكثر من واحدة بأن يثبت قدرته على العدل بينهن لما استطاع أن يثبت ذلك أحد..

ولكن الحكومات الإسلامية لا تستطيع تحريم الزواج بأكثر من واحدة؟

وقال المستشرق: إن مثل ذلك القانون يعتبر غير ضروري.. فالقرآن يضع شرطاً واحداً.. وكل ما تحتاجه السلطات المختصة هو أن تطلب إثبات القدرة على القيام بذلك الشرط... وهذا إعجاز القرآن يا آنسة ديفارج: إنه يثبت للإنسان ـ بطريقة عادلة ـ أن قدراته البشرية التي تحدها غرائزه أكثر ضعفاً من أن ترقى إلى مستوى قدراته الإنسانية على العدل.. فالزواج بأربع ـ وهو حاجة دنيوية من كل الوجوه ـ مسموح به إذا استطاع أن يرقى إلى مستوى فكرة العدل الإلهية.. ولكن السؤال العظيم هو: من يستطيع أن يثبت أنه قادر على ذلك..

وقالت كلوديا بنفاد صبر: ولكن العرب يتزوجون بأربع!

فنظر إليها المستشرق ثم قال بهدوء: تلك مشكلتهم وحدهم.. وليست مشكلة الإسلام.. إن هذا ما أردت أن أقوله لك.. فما يفعله العرب الآن لا يعني بالضرورة أن يكون أمراً في الإسلام، بل إنه في الواقع نتيجة ظروف حضارية بحتة.. ولكن دعيني أنهي حديثي يا آنسة ديفارج.. فبالنسبة لما قلته عن أن الإسلام «يأمر» بحبس المرأة، فأنا لا أعرف أن ذلك ورد في القرآن إلا في موضع واحد هو قوله تعالى ﴿واللائي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة فإن شهدوا فأمسكوهنّ في البيوت حتى يتوفاهنّ الموت أو يجعل اللّه لهنّ سبيلا﴾.. وهو أمر ـ كما ترون أيها السادة ـ محدود بشرط ارتكاب الفاحشة.. وذلك الشرط نفسه محدود بشهادة أربعة.. وهذا يعني أن المرأة المسلمة غير ملزمة بالخضوع للرقابة إلا إذا ارتكبت إثم الزنى..

وهذا يعني من ناحية أخرى أن (حبس المرأة في البيت) دون

أن ترتكب ذلك الإثم، إنما هو حكم سابق غير عادل.. وهذا ما كنت أعنيه عندما قلت لكم إن ما يفعله العرب الآن ليس بالضرورة هو الإسلام.. وإذا كان التاريخ يحمل لنا مشكلة فقهية أخرى فيما يخص، «الآيات المنسوخة».. فإن تلك مشكلة لا يمكن نقاشها هنا.. والأجدر بنا أن نركز انتباهنا على الدقة الخارقة التي يتطلبها فهم النص نفسه..

وبالنسبة لفرض الحجاب على المرأة المسلمة، فالنص القرآني يبدأ «بالرجل»: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن اللّه خبير بما يصنعون﴾.

ثم يخاطب المرأة بعد ذلك ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾.

وأول شيء يثبته النص أن المرأة المسلمة غير ملزمة بالبقاء في البيت.. وإلا لما كان ثمة حاجة لأمرها بأن تغض بصرها ألا تخفي زينتها.

فالمرأة حرة من هذه الناحية..

ولكن المطلوب منها أن تلزم جانب العفة.. والنص القرآني يشير إلى غطاء للوجه ـ لا جدال في ذلك ـ وجوب الستر بالخمار، وهذا ما أساءت الآنسة ديفارج فهمه هنا، والقرآن

يطلب أن يصل الخمار حتى يغطي الصدر.. ولكن القرآن يقول بعد ذلك مباشرة إن المرأة يجب ألا تبدي زينتها إلا لزوجها وأقاربها.. ولم يقل يجب ألا تبدي وجهها.. والذين يفترضون أن ذلك ما يقصده القرآن يتعدون حداً مهماً وهو أن القرآن لم يكن (يقصد) بل كان (يأمر) في وضوح لا حدّ له.. وذلك يقودنا جميعاً إلى أن نحاول فهم النص كما هو.. فقد جاء الأمر أولاً مشتركاً بين الرجال والنساء على السواء وتركز في صفة مهمة واحدة (العفة) ثم واصل القرآن الحديث إلى النساء ـ دون الرجال ـ وتركز الحديث مرة أخرى في صفة مهمة واحدة (عدم تعمد الإغراء).. فعندما يراجع المرء ذكر الذين سمح للمرأة أن تبدي زينتها أمامهم نراهم جميعاً لا يخضعون لاحتمال (الإغراء الغريزي) فهم إما أزواج أو أخوة أو محرمون أو شيوخ أو أطفال.. فالمشكلة ليست مشكلة تغطية الوجه بل هي مشكلة «عدم تعمّد الإغراء»..

فالمرأة لا تستطيع أن تغري المحرمين عليها.. أو زوجها بارتكاب الإثم..

ولكنها تتعرض لذلك الخطر عندما ـ تتعامل مع غير هؤلاء ـ كما يحدث بيننا الآن في أوروبا ـ وذكر القرآن الشيوخ والأطفال يدل دلالة واضحة على افتراض الإثم بالإغراء في الحالات الباقية.. والجدير بالملاحظة أن «إبداء الزينة» قد ورد مرتين متتابعتين.. فالمرة الأولى كانت أمراً بعدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها.. ثم سمح بإبدائها في المرة الثانية للأزواج والمحرمين بدون إلزام أو تعمّد بالطبع.. وإذاً فإبداء ما ظهر من الزينة لغير المحرمين ليس حراماً.. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن

الزينة يمكن فهمها باعتبار أنها موضع للإغراء.. وهذا كله يقود إلى فكرة واحدة هي أن المرأة ترتكب إثم المعصية عندما تتعمّد إبداء مفاتنها للإغراء. وحده.. لذا ـ أيها السادة ـ فقد قال القرآن في موضع آخر: ﴿والقواعد من النساء اللائي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهنّ واللّه سميع عليم﴾.

فالستر بالثياب مطلوب لتفادي مشكلة الجنس التي تتبدّى بصورة طبيعية عند تعامل الجنسين... ومن الواضح أن الفكرة تتركز على وجوب تفادي الإغراء أو محاولته بأي وجه.. وعندما تتخفى تلك المشكلة بحكم السن ـ كما في حالة النساء القواعد ـ فإن القرآن يبيح للمرأة أن تلبس ما تشاء في حدود عدم التبرّج.

فالمشكلة ليست مشكلة الخمار أو اللباس..

بل هي مشكلة «العفة الجنسية» التي لا يمكن تحقيقها إلا بإغلاق الطريق مرة واحدة أمام كل النوايا السيئة بالإغراء بالإثم، وذلك أمر موجّه إلى الرجل والمرأة معاً.. ومخالفته توجب عقاباً واحداً لكليهما معاً.. وإذا كان القرآن يخص المرأة بمسؤوليتها تجاه فكرة المعصية الجنسية فإن ذلك قد حدث لأن المرأة في الواقع مسؤولة حقاً تجاه هذه المشكلة فهي التي تتحمل عواقبها كلها.. وهي التي تحمل الطفل وتعوله فيما يستطيع الرجل أن ينطلق حراً لاقتراف معصية أخرى.. وهذه المسؤولية الملقاء فوق عنق المرأة هي التي تحدد مصدر الإغراء. فالرجل لا يستطيع إغراءها لأنها هي التي تحمل المسؤولية، ولكنها تستطيع إغراءه ـ في معظم الحالات ـ إذا رضيت بأن تتحمل العواقب، فالرجل لا يجازف بشيء.

وهذه ـ أيها السادة ـ حلول القرآن لتلك المشكلة المعقّدة، فهو لا يفرض السجن ولا الحجاب على المرأة، ولكنه يطالبها بأن تفهم عواقب التهوّر الجنسي الذي يقود إلى خسارتها أولاً ثم خسارة المجتمع كله ثانياً.. يطالبها «بالتزام العفة» لكي يتمكن المجتمع نفسه من مواصلة بقائه على الطريق المحددة.. بغض النظر عن أشكال اللباس، فالإسلام دين «النية الأصيلة وليس دين المظهر».. والمطلوب هو تفادي فكرة المعصية ذاتها..

فما علاقة هذا بما كتبته الآنسة ديفارج في صحفنا.. ولماذا تصرّ الآنسة الفاضلة على أن تحشر أفكار البشر داخل الأفكار الدينية.. إنني لا أشك في أن مركز المرأة المسلمة مركز سيئ الآن، ولكني أعرف ـ وأرجو أن تعرف معي الآنسة ديفارج ـ أن الرجال الذين يحبسون عجائزهم داخل بيوتهم ويفرضون عليهن مختلف أنواع الأقنعة لا يفعلون ذلك بوحي من أي شيء أكثر من عقدهم النفسية وسذاجتهم وجهلهم الذي فرضته ظروف متباينة.. فأرجو أن تراجع الآنسة ديفارج نفسها.. فقد نسيت في غمرة حماسها أن اللّه لا يمكن أن يظلم المرأة وغيرها.. ولكن الرجال يفعلون ذلك.. الرجال البسطاء الذين قهرتهم ظروف شنيعة وأجبرتهم على الجهالة.. والظلم..

ولتصدقني الآنسة ديفارج عندما أقول لها إنه ليس ثمة دين ولا قانون ـ مهما كان ـ لم يتم تحويره في عصور الجهالة.. أو لم يسأ فهمه..

ولكن الحق يبقى في النهاية أكبر..

أكبر من الرجال.. ومن الجهل.. ومن المظالم التي ترتكب في حق النساء..

1966

6

هل نمت الآن؟

صديقي..!

هل نمت الآن؟

وهل غابت الشمس عندكم؟ فإنها ما تزال موقدة هنا مثل شمعة عجوز، وما تزال الغربان تحلم بالنهر، والمطر يغتسل في المطر، وما زلت أواصل المشي في اتجاه أنفي مثل قوقعة متعبة، مثل أحد الكراكي، في اتجاه أنفي دائماً.

وما دامت الأرض مدوّرة فليس ثمة طريق مستقيم..

□ □ □

هل نمت الآن؟

واندملت رضوض معاركك وكفّ كلب جيراننا عن مطاردتك فقد كان في أعقابك أينما كنت دون بقية الأطفال، كأنك تعلق له قطة فوق ظهرك.. إن الكلاب يا صديقي ـ مثل الناس ـ تعض من يوليها ظهره، فحاول أن تواجه ذلك الكلب

كلما انطلق يجري في أعقابك ومدّ له يدك ودعه يلعقها فالكلاب ـ مثل الناس ـ تحب ذلك جداً. ولا تبك إذا مزق قميصك أو لطّخ حذاءك بالوحل فإن رجالاً أكثر بأساً من كلب جيراننا سوف يفعلون ذلك عندما تكبر، وسوف يمزقون حذاءك وجلدك معاً على الطرق المدببة الملتوية.

فاغمض عينيك حتى يحين ذلك الوقت..

وحاول أن تستمتع بالهدنة.

□ □ □

سألني عنك بائع اللعب؟ كم عمر صديقك؟

وقلت له: خمسة أعوام، خمسة أعوام فقط.

وهل يلعب في التراب؟

أجل..

ويتشاجر مع الأطفال الآخرين ويعقرهم بأسنانه ويحمل الخبز إلى الفرن؟

أجل.. ذلك ما يفعله.

ووضع الرجل العجوز يده تحت ذقنه ودمعت عيناه ثم سألني بخفوت: وماذا أيضاً هل لديه مقلاع؟

لديه اثنان، أحدهما يصطاد به الطيور والآخر يصطاد به أنوف المارة.

يضربهم بقشر البرتقال؟

أجل.. ذلك ما يفعله.

وماذا أيضاً؟

ويمكنه أن يصنع من أي علبة لعبة.

وماذا أيضاً؟

ويمشي حافي القدمين، إن رجليه مثل ودعتين صلدتين، وعندما يذهب إلى البحر يسبح وحده إلى سابع بياضة.

وابتسم الرجل العجوز حتى تجعد وجهه ثم شرع يهز رأسه وقد استثاره الحماس: وماذا أيضاً؟ هل يهرب من المدرسة ويخبئ كتبه عند بائع الخبز؟ وهل يكره المدرسة ويتمنى أن تنهار بعد الظهر؟

أجل..

وإذا ضربته أمه حطّم باب البيت بالأحجار؟

أجل.. ذلك ما يفعله..

ومن يضربه إذن؟

والده، أو أي رجل آخر، ولكن ليس ثمة امرأة تجرؤ على أن تستثير غضبه. وفكّر الرجل العجوز طويلاً ثم مسح عينيه وقال بخجل: أنا لا أملك لعبة تليق بهذا الطفل، إنه أكبر بعشرين عاماً من أي طفل لدينا.. والعالم كله لعبته.

لماذا كبرت هكذا إذا كنت تريدني أن أشتري لك لعبة؟

□ □ □

هل غضبت مني الآن؟

ولم تعد تصدقني، فقد أفرغت جهدي لكي أبتاع لك شيئاً يليق بك، وتوقفت في كل مرفأ وفي الشوارع الكبيرة وأسواق الهدايا، وسألت الناس بدون جدوى.. فقد كانت الحوانيت تغص بلعب البنات فقط، وكانت لعباً مضحكة مريعة لا تستطيع أنت أن تطيقها بأي حال..

أما الأطفال فقد ماتوا جميعاً..

ونبتت على قبورهم تماثيل معطرة الثياب.

ماذا أقول لك؟ إن العالم كله لعبتك حقاً.

□ □ □

هل نمت الآن؟

هل شربت حاجتك من الماء؟ فإن الغزلان لا تسقي أحداً إذا عطش ولكن أمك تقول ذلك لأنها سمعته من جدتها، ولأن جدتها كانت تريد أن لا تبول جدتك في فراشها.

أليس هذا محيّراً ومخجلاً؟

لماذا لا يقولون لك ذلك مباشرة ويتركون الغزلان وشأنها؟ فليس لديها من الماء ما يبلل ريقها.

وهل أنقذ الكذب فراشاً من البلل؟

□ □ □

الساعة الخمسون..

وأنا متعب كأني أجرّ عربة محمّلة بالبغال، والمطر ينمو في المطر.. وليس ثمة من يتحدث معي سوى تماثيل النحاس:

هل تبحث عن طعام أيها الغريب؟

أجل يا سيدي التمثال، عن طعام وشمعة، وطريق أخرى لا نهاية لها يزرعها الرجال بإبر أكثر حدّة، بخناجر مدببة مثل أسنانهم.. بالجحيم والمطر، فأنا أريد أن ألعق ذلك الطريق بلساني وأتعلم الصبر..

وماذا أيضاً أيها الغريب؟

وأبحث عن لعبة لطفل صديقي تركته ورائي يلعب في التراب.

وقال التمثال بلهفة: طفل أما زال ثمة أطفال في العالم؟.. لقد ظننت أن المربين أكلوهم جميعاً.. ولكن.. حقاً! شكراً لك يا إلهي.

وسجد التمثال..

□ □ □

هل نمت الآن؟

وهل كفت قرصات معلمك عن الوخز وشرعت تحلم بالساحرات؟ بمصباح علاء الدين وقوارب المهراجا وجزر العنبر والساحرات؟ فإن اللّه قد خلق ذلك كله لكي تحلم أنت به وتنسى قرصات معلمك، ولكي يحلم به معلمك وينسى قرصات الآخرين.

قد فعل اللّه ذلك لأنه ملاذنا جميعاً، وملاذ الأسماك الصغيرة.. والدودات التي تزحف في الأرض، وملاذ الحيتان والمعلمين والقواقع، ولأنه يعرف كيف يحفل العالم بالوخز والأظافر فتذكر ذلك عندما تحس بالألم، عندما تنهض بهيمة ما من حفرة ما وتنشب مخالبها في قلبك.. تذكر أن اللّه لن يدعك تنزف، وواصل المشي في اتجاه أنفك فإن كل شيء في العالم يمضي في هذا الاتجاه ما عدا الذين يرجعون إلى الوراء.

ولكن.. هل عيّروك بي؟

□ □ □

هل قالوا لك إن صديقك هرب وراء البحر دون أن يودعك،

وإن بيتكم تراب وصديقك يحب شوارع الإسفلت.. هل جلسوا حولك وطفقوا يقرضون قلبك حتى بكيت؟

وهل يبكي الرجال أبداً؟

قل لهم فقط: إذا لم يكن من الموت بدّ. فلا تشحذوا أسنانكم للقتل، وليرع كل خنزير في حقله إذا أرادت الخنازير أن تسمن، ودعوا صديقي وشأنه فهو يعرف كيف يملأ رأسه بالقش.. قش قابل لإيقاد النار على الأقل.

وغداً تصلك هديتي..

□ □ □

طبق محفور في ياقوتة ومطعّم بالعاج لكي تأكل فيه ما تطبخه أمّنا، فليس ثمة إناء يليق بطعامها سوى طبق محفور في ياقوتة ومطعّم بالعاج.

أما باقي الطعام وما تعدّه أيدي النساء الأخريات فقد أكلته أنا في جمجمة برص، ولقد كان بشعاً ومريعاً حتى لقد تقيأ البرص وطلب أن يعود إلى الجحيم.

□ □ □

هل ستحب هديتي ولا تعود تشعر تجاهي بالعار؟ فأنا قلبي عامر بالودّ تجاهك، وأنا لم أنس أن أودعك ولكن أردت ألا تراني أرتجف مثل بياع الثلج في آخر لحظة.. فقد كان وداعاً حقيقياً.. وإن قلل السلاحف نفسها لترتجف في لحظة وداع.

وبعدكم.. كان طريقي كله تراباً.

من مدريد إلى أستونيا بلا طعام سوى لقمة تسوّلتها من

سفارة في الطريق ثم تركتها لهم في ثقب المفتاح ففاقد الشيء لا يعطيه والريح لا يبيعه النخاس.

وامتدت الطرق.

وامتدت الطرق الصامدة أمامي.. والتمعت القمم ورؤوس الإبر، وأحسست بالوحدة في الفراغ الرمادي كما يحس بها فأر في السماء، ولكنني لم أعد فما زال حذائي يقاوم المطر.. وإذا تمزق بعد ذلك، فسوف أواصل المشي وأحلم بالأحذية..

هل نمت الآن؟

□ □ □

فأنا ما زلت أجرّ بغالي عبر شوارع تالينين.

وأرى إلى انعكاس الشمس في الخليج، ومعارك النوارس والأسماك، فثمة مستشرق عجوز ينتظرني غداً لكي أحدثه عن الشعر والشمس والأسماك.. وعن لزوم ما لا يلزم وأحزان أبي العلاء، لأنه يعتقد أن أبا العلاء كان يرى العالم في ضوء الشمس ـ مثلما تراه الأسماك ـ رمادياً وعارياً ومليئاً بالشصوص.

□ □ □

هل تغير الآن شيء؟

وهل حمل الصليب سوى نبي أو لص؟ إن أباك يحمل العالم فوق أكتافه وسوف يضعه فوق أكتافك عندما تكبر، ويخلد هو للراحة فوق أكتافك أيضاً بكل أدواته وضحاياه وذنوبه..

أليس هذا ظلماً؟

هل فهمت ما كان يعنيه أبو العلاء؟

□ □ □

وهل الموت إلا خلاص؟

يا صديقي.. الذي يلعب بالعالم؟

1966

7

الاستقلال.. وشيء آخر

لو كنت شاعراً لكتبت لكم اليوم قصيدة عصماء في مدح الاستقلال، وشرحت لكم فوائده على قافية الطاء، فالحوادث الكبيرة لا بدّ أن يتحدث عنها المرء شعراً، ويختار لها قافية معقدة بقدر الإمكان، لكي يصيب عمال المطبعة بالدوار.. أعني إذا كان المرء شاعراً..

فهل نتحدث بلغة أخرى؟

ليبيا بلد كبير، أكبر من تكساس مرتين، وأكبر من مجموعة الدول التالية معاً: هولندا، يوغوسلافيا، النرويج، سان مارينو، ليختنشتاين، موناكو، إيرلندا، البرتغال ومالطة.. ولو حمل الطوفان هذه الدول ووضعها فوق رمالنا فمن المحتمل ألا يعثر عليها أحد إلا بالصدفة..

أليست ليبيا بلداً كبيراً؟

أما سكانها فما زالوا أقل من سكان شارع «سوشيرو» في طوكيو، وما زال المرء قادراً على أن يضعهم في أربع عمارات

مثل الامباير ستيت ويضع في خدمتهم مليوناً آخر من سكان هونغ كونغ دون أن يتورط في أزمة إسكان.. وذلك يعني أن ليبيا ـ مع موريتانيا وأستراليا ـ إحدى بلدان العالم الثلاث التي يملك كل فرد فيها ألف متر مربع من الأرض، يستطيع أن يحيطها بسياج ويجلس داخلها دون أن يأتي أحد لمزاحمته حتى ينكسر قلبه من الوحدة أو يعود هارباً إلى أرصفة المدينة.. هذه النسبة ترتفع في موناكو إلى خمس عشرة ألف نسمة داخل الكيلومتر الواحد.. وفي «مكاو» إلى اثنين وعشرين ألف!

إن العالم يختنق في الزحام..

أما نحن فما زال لدينا نصف مليون سنة لتحقيق هذه النسبة الفظيعة، ونبدأ في حفر الأنفاق لكي يمشي المارة فوق رؤوس بعضهم.. نصف مليون سنة وبضعة شهور.

فهل نتحدث عن النقود؟

إننا لسنا شعباً غنياً كما يقول الشعراء الطائشون الذين يعتقدون أن تصدير براميل البترول في قوارب الشركات عملية ذهبية مثل أسطورة ميداس.. إننا ما زلنا فقراء إلى حدّ محزن، وما زلنا بلداً نامياً مثل أي بلد آخر في إفريقيا أو آسيا، رغم قصائد الشعر.. وميداس.

فالثروة لا تقاس بكمية النقد..

بل بكمية الفائض بين الإنتاج وبين الاستهلاك، وإذا جاء ميداس اليوم، وسخّر لنا الجبل الأخضر ذهباً فإن ذلك لن يصنع منا شعباً غنياً بقدر ما يعرض قطعان الماعز للموت جوعاً فوق تلال الذهب.. ثم يخل بقيمة المعدن نفسه عندما نضطر

لتصديره في عنابر السفن لكي نشتري رطلاً من البصل المعلّب من امستردام.

فالنقود مجرد تقييم للعمل.

وإذا جاءت مع الريح أو حملها ميداس فإنها تظل وتظل مصدراً للرخاء المؤقت بجانب أخطار التضخم وفقدان السيطرة على ميزان الواردات.

فقد خرج الحفّارون الأمريكيون من معركة الذهب فارغي الأيدي..

وانتهت أيام الثروة فجأة لكي يجد الحفّار نفسه في مواجهة الموت جوعاً دون أن يكون لديه سوى كيس الذهب الفارغ وديون صاحب البقالة والحلاق.. وقد عانت امريكا إذ ذاك مشكلة إيجاد الخبز لأول مرة ثم انزلقت في عملية إفلاس كلية انتهت بالمجاعة العامة التي وضعت اقتصاد الولايات المتحدة على حافة الانقراض..

وكان ذلك هو الدرس الذي أحسن الأمريكان فهمه عندما بدأت عمليات الحفر عن البترول في أواخر القرن نفسه، فقد سارعت الحكومة الفيدرالية لحماية مصدر الخبز المتمثل في الزراعة، وفرضت على الشركات قانوناً معقداً في تحديد مناطق الحفر بحيث لا يتم حفر بئر واحد بأيدي العمال المزارعين في موسم الحرث أو الحصاد ولا تسرق الشركات مصدر الطاقة العامل في الزراعة.. وكانت أمريكا قادرة على إنتاج تسعين في المائة من بترول العالم إذ ذاك، ولكنها لم تحفر سوى سبعة عشر بئراً خلال عام ١٨٩٤ ثم أوقفت عمليات الحفر بموجب قانون يرمي إلى تخزين الاحتياطي تحت رعاية الدولة، وظهر الاصطلاح

الشهير المعروف باسم «الانتاج المتجدد» وهو ما نسميه نحن «بالزراعة»، فحقل القمح يمكن أن يعمل كل عام وإلى الأبد.. أما بئر البترول فلا يمكن استغلاله إلا مرة وحدة.. أي أنه ليس «إنتاجاً متجدداً» وليس إنتاجاً مباشراً أيضاً.. إنه مجرد استهلاك لإيجاد الطاقة المحرّكة للإنتاج الصناعي.. والذين يبيعونه مقابل «الخبز»، يقومون بعملية مبادلة بين سلعتي استهلاك لا يمكن أن تقود إلى أي نمو قاعدي..

أي أن ليبيا ـ رغم البترول ـ سوف تظل تنفق من مدخراتها حتى تتاح لها الفرصة لكي تستبدل السلعة المستهلكة بمصدر متجدد للانتاج.. والطريق الوحيد أن تستبدل البترول بالمصنع أو بالحقل.. أو بكليهما معاً، ولكن ليس بالخبز واللحم والقماش القادم من ليفربول، لأن ذلك ليس إنتاجاً مباشراً وليس إنماءً لأي مصدر حقيقي.. إنه مجرد عملية مقايضة بالمدخرات.

هذه الفرصة هي مسؤولية الشعب وحده..

والذين يحاولون إلقاءها فوق كتف الدولة يرتكبون خطأ بدائياً فيما يخص فهم الديموقراطية الحرة، فنحن اخترنا نظاماً دستورياً مباشراً للحكم، ومن خصائص هذا النظام أن يبدأ دائماً من القاعدة.. فكل ليبي قد نال فرصته في تنمية مخصصاته داخل نطاق رأس مال الكلي.. وكل ليبي ما يزال يملك الفرصة في زيادة هذا النطاق إلى أي حدّ يمكن تصوره، والدولة لا تملك قانوناً واحداً تستطيع بموجبه أن تحدد وجهة الإنفاق لذا فإن إقحام الدولة في مشكلة الاستهلاك مجرد هروب من مواجهة المسؤولية التي يتحمّلها كل فرد في بلادنا عبر رغبته في المحافظة على النظام المطلوب.. وبكلمة أخرى فإن وزارة الزراعة لا

تستطيع أن ترغم أحد المتعهدين بالتخلي عن سيارتين من قوافل سياراته لكي يستثمر ثمنهما في شراء آلة حرث لأن ذلك المتعهد يظفر بحماية الدستور الذي يعطيه الحق في أن ينفق نقوده كيفما يشاء.. ووزارة الصناعة لا تستطيع أن ترغم أحد بناة العمارات على إنشاء مصنع أو نول للنسيج لأن القانون لا يجيز لها أن تفعل ذلك.

فالمشكلة تخص الفرد العاجز عن فهم مسؤوليته تجاه الديموقراطية التي ينعم بها... وليس ثمة عمل أسوأ من أن يجلس المتعهدون وبناة العمارات في المقاهي ويطالبوا الدولة بزراعة ليبيا ومدّها بالمصانع.

فالدولة لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا غيّرت نظامها، وحملت المتعهدين إلى السجن وصادرت ممتلكاتهم باعتبارها استثماراً سيئاً.. وهذا آخر ما يتمنى أي ليبي أن يحدث له. فالديموقراطية تبدو مريحة في نهاية المطاف.. وبناة العمارات وقوافل سيارات النقل ما زالوا ـ رغم حماسهم يوم الاستقلال ـ بعيدين بعداً محزناً عن مصلحة ليبيا... ولكنهم عندما يجلسون في أحد المقاهي ويتكلمون في السياسة والاقتصاد وفي واجبات الدولة يحس المرء كأنهم هبطوا لتوهم من السماء في غلاف الملائكة.. وكأن الدولة لا شأن لها سوى تعذيب هؤلاء الملائكة بعلب البصل المحفوظ القادم من أمستردام..

فالأكاذيب لا حدّ لها..

والرجال في ليبيا ما زالوا يفهمون الوطنية باعتبارها صراخاً من إهمال الدولة وحدها.. وتجميع الأكاذيب المخجلة فوق أرصفة المقاهي في أيام العطلة.. والجري خلال أشهر الصيف

وراء مؤجري الشقق المفروشة وباعة البنات على طول ساحل الفقراء مستعرضين حصيلتهم من مدخرات ليبيا، كأن تلك النقود قد جاءت بطريق العرق الشريف..

فهل تكفي مائة بئر مليئة بالبترول؟

وهل يكفي الجبل الأخضر إذا حوّله ميداس إلى ذهب؟ فإننا ما زلنا ـ رغم وطنية الأغنياء ودموعهم ـ شعباً فقيراً محدود الموارد إلى حد محزن، وما زالت آلاف الأميال من أرضنا تحترق في الشمس، وأسماكنا يبيعها الصيادون في اليونان.. وخرافنا تتضاءل باطراد عبر المراعي المهجورة على الدوام..

وهذا العمل السيئ لم تفعله الدولة.. بل الشعب.

المتعهدون وبناة العمارات.. الذين لم يكفوا عن ردم نقودهم في ازيار القديد منذ أن أعطتهم الدولة منحة الحرية..

وهذه الحقيقة الأولية المحزنة..

لا بدّ أن يذكرها المرء في أعياد الاستقلال.. مثل قصائد الشعر مثل قافية الطاء لكي يعرف شعبنا حقيقة الدموع التي يذرفها الحواة على أرصفة المقاهي.. ونوع المشكلة التي تواجهها الدولة لكي تزرع ليبيا أو تمدّها بالمصانع.

فقد أحرقت الأكاذيب صدر المقاهي..

وأحرقتها العمارات.. وأحزان المتعهدين!

8

ملل

المسيح ولد لتوّه..

وطفق يبكي كعادة الأطفال، والعام يموت متورم الأنف في حانة معتمة.. والأجراس ما تزال تدق.. والنساء.

واحد+ واحد = اثنين، إلا إذا كان أحدهما امرأة.. عندئذٍ يصبح الحساب لعبة غشيمة فحاصل الجمع أكثر من اثنين دائماً. وفي ليبيا: واحد ونصف، لأن الليبيين يعدّون على أصابعهم، «وأصابع يدك ليست سواء!».

المرأة النصف تحمل ليبيا والرجال فوق رأسها..

وتغسل الجوارب وتعالج تسويس الأسنان بالقطران وتنقع الغسيل ريثما تفلي رأس جارتها من القمل، وتعيد طلاء الأبواب في عاشوراء، وتمسح أرضية البيت وتخمن الوقت بامتداد الظل لكي تعرف متى تنضج الخميرة وتعد مصيدة الفئران وتربّي الأطفال بيد وتعجن باليد الأخرى..

والشعراء في ليبيا يدعونها «القمر» ويتغزّلون بلون حذائها الفيلاني.. وعندما يعود زوجها في المساء يحك جلده ويقرأ ما يتيسر من الصحف ثم يرفع صوته مطالباً بالقمر: «احضروا الجارية، واحرقوا اللبان في مباخر الفضة واطعموا الكلب على الفور لكي يرزقنا اللّه ولداً!».

فالبنت غير مرغوب فيها..

البنت تعاد للبقال!

في ليبيا واحد+ واحد = واحداً ونصفاً..

وعندما تتجمع العجائز محطمات الأقدام حول موقد النار وينضج الشتاء في السماء وتتصاعد رائحة النعناع والقسطل وتثغو نعجة العيد الوقورة.. تسبح الأحلام في عيون العجائز مثل الفوانيس وتخفق قلوبهن وراء مكة في هودج من أهداب الفراشات: «يا سعد من رأى عرفات وشرب ماء زمزم وشجّ رأس الشيطان بحجر».

ثم يهطل المطر من عيون العجائز حول موقد النار..

وتثغو نعجة العيد الوقورة.

في ليبيا واحد + واحد = واحداً ونصفاً..

لأن بربروسا سقط في الحساب، ومضى يناقش في السياسة ويلعن الانتخابات.. وشركة النقل ومصلحة الري. وقد بلغ به الضيق مداه عندما سمع في المقهى أن ديغول ذهب إلى القوقاز!

«القوقاز» صاح بربروسا «هذه معمعة واضحة».

وطمأنه بائع الحمص: «لا تخف إن الألمان له بالمرصاد» ثم

ارتفعت أصوات عامل المقهى وماسح الأحذية والقديس الصغير النظيف الثياب، وبدأ بربروسا الملحمة بثبات: «لو كان هتلر حياً».

لو كان هتلر حياً يا أمنا العجوز!

واحد + واحد = واحداً ونصفاً..

لأن التوراة قالت ذلك، لأن الرجال يعدّون على أصابعهم «وأصابع يدك ليست سواء».. في ليبيا!

وعندما تصل ضاربة الودع حاملة العالم في قفة، تتجمع البنات حولها في الحال، ويحضرن الغربال والبيض والقروش الفكة ويوشوشن الودعات بأحلام الحب المرتجفة في عروقهن حتى تحترق قلوب القواقع الميتة..

«هل يعرفني حبيبي يا سيدتي الودعة، وهل يعرف أنني أنتظره وراء شقوق الباب كل يوم، لابسة أبهى ما لدي معطرة بزيت العنبر.. وأبتسم له وراء الباب».

وتطرح المنجمة الودعات فوق الغربال وتحصي القروش من خلال الثقوب لكي لا تبيع كذبة زائدة فيما تتهامس الودعات مذعورات «وراء الباب.. وراء الباب؟».

المسيح ولد لتوّه..

وطفق يبكي كعادة الأطفال.

واحد + واحد = واحداً فقط.

لأن الحساب ـ مثل القصائد ـ يحصى بالبيوت، ويباع لكافور الإخشيدي والسلطان مقابل الخلع والدنانير، فإذا دفع كافور الثمن أعطاه بربروسا أحسن ما لديه، وإذا كان كافور

مجرد طباع على الآلة الكاتبة يهجوه بربروسا ويعطيه النسخة السادسة ويطلق عليه النار..

«هذه الجارية ثمنها ألف..»

وهذه ثمنها مائة بينتو وستة أرطال. والنخاس تصدر رخصته من إدارة السجل العقاري فالمرء حرّ في أملاكه ما دام قد بلغ سن الرشد وأنجب بناتاً.

وعندما يبدأ المشتري في المساومة يقول بربروسا بحزم «أنا لا أماكس، هذا هو الثمن.. وتذكر أنني أسلمك بضاعة ممتازة مختومة بالشمع على كفالتي».

فإذا لم يكن الختم جيداً.

أعيدت البضاعة إلى الجمرك.

آخر الأنباء: أن المسيح ولد لتوّه، وطفق يبكي كعادة الأطفال.

وأنه العام مات متورم الأنف من البرد، وأضاء الناس حول نعشه كل ما لديهم من مصابيح النيون وأحرقوا عينيه بالتبغ.

أما في ليبيا فقد انقطع التيار وأضاء الناس لمبات الغاز وتجمعت العجائز حول موقد النار. وعاد الأطفال من الغدير مجعدي الأقدام وطالبوا بطبق التمر وحكاية «الثعبان».

«كان يا ما كان».

وكان الغول يطحن العظام، والشرر يتطاير من منخريه، وحوله الدجاج الأسود والعقارب السوداء. وقد خافت الأميرة عندما رأته على هذه الحال، واختبأت تحت النطع مثل البرغوث، وأسلمت أمرها للواحد المنان..».

متى يا سيدي بربروسا تطحن القمح وحولك الحمام؟

في ليبيا واحد + واحد = واحداً ونصفاً.

والمرأة النصف تحمل ليبيا فوق رأسها، وتربي الأجيال بيد، وتعجن الخبز باليد الأخرى..

والشعراء يدعونها «القمر» ويتغزلون بحذائها الفيلاني.

1966

9

اليأس واللعبة الأخرى

انتهى الصيف في يوم واحد..

وطفقت هلسنكي تغتسل في المطر مثل محارة بيضاء، وأقفرت شوارع العالم ومهرجانات الشمس، لم يعد ثمة ما يرى سوى بقايا أوراق الشجر والسموات الرمادية والنوارس المقرورة وراء تماثيل النحاس..

ثم لون الضوء الأزرق المرتجف عبر خيوط المطر، والعجائز بائعات الصحف على طول ضفة النهر، وأشجار الكامو المكتئبة..

* الغجرية نيتافوري تحزم حقائبي في ركن الغرفة المعتم. وتمزق كتبي وتشتم بلا انقطاع: «هذا موت مزر، أنت لا تستطيع أن تقيم هنا.. إنك لن تحتمل شتاءنا هذه المرة.. اذهب، سوف يمزق نوفمبر جلدك. فأنت لا تعرف نوفمبر».

وقلت لها: أنا أعرف نوفمبر.. دعيني وشأني..

ولكنها لم تبال بي، وواصلت جمع أشيائي المبعثرة في أنحاء

الغرفة، ثم وجدت إحدى الصور في جيب سترتي فطفقت تتأملها باشمئزاز، مصدرة صوتاً وقحاً من بين شفتيها.. وقالت في النهاية: «الطيور على أشكالها تقع، أي مخلوقة جائعة هذه.. ولماذا تبدو عيناها مثل فردتي حذاء!».

وكانت تلك صورة صغيرة لفيروز حملتها معي سنين طويلة مثل تميمة لا تقدر بثمن، ولم أكن أملك صورة غيرها، ولكن العجوز مزقتها رغم توسلاتي، وطلبت مني أن أكف عن مطاردة البنات!

وانطويت في ركن الغرفة المعتم، وطفقت أراقب حزم الضوء الشتائي المرتجف وراء النافذة: «إن الغرفة مقززة.. وكذلك الفقر والعجائز ولكن المرء لا بد أن يكون شجاعاً، لا بدّ أن يرفع رأسه ويواصل المشي مهما تضاعف دفع الريح.. مهما حدث. أليس كذلك يا سيدي الحزن؟».

وقالت نيتافوري: «الصيف مات، وسوف نموت نحن بدورنا. عندما يصل نوفمبر.. إن كل الناس يجب أن يموتوا حتى يستطيع يسوع أن يحملهم إلى السماء» ثم أغلقت حقيبتي وأضافت بغيظ: «ولكن لماذا لا يتركنا وشأننا».

* وأغمضت عيني وتركتها تهذي، فأنا لا أفهم شيئاً مما تقوله.. وليست مهمتي أن أفهم سخافات كل المخلوقات بما في ذلك العجائز المجعدة مثل أكياس التبغ، وقد ضعت في دروب العالم دون أن يهتم أحد بشأني، وأكلني الصدأ والجرذان، وأنا أزحف وراء الناس لأتعرّف عليهم، فلم أستطع في النهاية حتى أن أتعرف على رأسي الذي أحمله..

وصاحت العجوز فجأة: «هيلا فيتي.. ماذا دهاك الآن؟».

وقلت لها: «اذهبي إلى جهنم بنفسك، وكفي عن شتمي، إنني لا أريد أن أتحدث مع أحد.. وليس لدي ما أقوله».

وعندما نهضت مطرقة وعبرت الباب إلى الخارج مثل جروة مكتئبة.. تمنيت أن تعود وتصفعني أو تعض يدي حتى تدميها، فقد كان ذلك أهون من أن تتركني وحيداً.

وسألتها فجأة: «هل أصنع لك فنجاناً من القهوة.. أنت تعرفين أنني أريدك أن تبقي هنا قليلاً..» ولكنها لم تبال بي وذهبت إلى غرفتها دون أن تقول شيئاً.

منذ سنوات كنت مستعداً لأن أراهن بعنقي على أنني أستطيع أن أكسب صداقة أي إنسان إذا تعلمت لغته.. كنت أملك مقياساً عجيباً للتعرف على الناس.. وكنت أعتقد أن كل ما يحتاجه المرء لكي يكسب صداقة الآخرين هو أن يفتح لهم قلبه ويمتنع عن الإساءة إليهم مهما حدث.. ولكنني الآن أشعر بالخجل تجاه ذلك الوهم، إنني لم أتعلم شيئاً طوال السنين الأخيرة سوى أنني لا بدّ أن أشعر بالخجل تجاه ذلك الوهم.

فالناس لا يبيعون صداقتهم مقابل ابتسامتك.

إنهم أكثر أنانية من أن يهتموا بابتسامات أحد، إنهم يريدون شيئاً في مقابل كل شيء.. والعجوز نيتافوري مثل بقية الأصدقاء تنتظر مني أن أجلس أمامها ونناقش معاً «لماذا لا يتركنا يسوع على الأرض، ولماذا يجب أن نموت متجمّدين في شهر نوفمبر» فإذا قلت لها إنني لا أعرف لماذا، تنطلق مذعورة إلى غرفتها، وتعلن الحرب مباشرة..

ولكن ما قيمة ذلك..

ولماذا يرغم أحد ما صديقه على أن يعيش أفكاره ويحبها؟ لماذا لا يكتفي بابتسامته ويظل صديقه إلى النهاية دون أن يتسبب في إحراجه..

* إنني مستعد لأن أراهن الآن على أن المرء لا يفقد صداقة أحد الناس إلا إذا كان يعرف لغته..

أما إذا ظل بعيداً عنه..

إذا وضع حاجزاً أمامه.. فما أسرع أن يصبح صديقه النبيل.. وما أسرع أن يتبادل الناس الابتسامات في الشوارع وعربات النقل العامة والمقاهي المزدحمة، هازّين رؤوسهم بلا انقطاع، مبدين كل أمارات الودّ على وجوههم دون أن يتبادلوا كلمة واحدة..

فإذا سقط أحدهم تحت عجلات القطار، تزاحموا حوله مظهرين حزنهم حتى يختنق في الزحام.. وإذا شرع اثنان يتلاكمان جاء الناس لينهوا تلك المعركة مطالبين بالتسامح..

كل ذلك دون كلمة واحدة..

دون معرفة من أي نوع.. أما إذا تمّ الاتصال في يوم ما، وأضاف المرء كلمات الودّ إلى ابتسامته، فما أسرع ما تنمو الصداقة لكي تصبح مثل حصان الأساطير نصفه جان ونصفه شيطان..

وتخطط الحدود على الفور..

ويعلن الطرفان أن اجتياز تلك الحدود عقوبته الموت.. ويتعيّن على المرء عندئذٍ أن يراعي خطواته ويقيسها، ويدهن كلماته

بالقشدة، ويركع على الأرض مطالباً بالغفران إذا زلّت إحدى قدميه بالصدفة.

* «هيلا فيتي» هذا ما تقوله الغجرية نيتافوري «هيلا فيتي واذهب إلى جهنم وتمتع هناك بشجر الزقوم» ثم يقولون لك في السويد: «فيرباسكا.. خذ هذه الكلمة..» ويلكمونك في بنغازي دون أن يقولوا لك شيئاً..

الناس كلهم سواء..

واختلاف اللغات مثل اختلاف بصمات الأصابع لا يعوق الأيدي عن قذف الحجارة.

* فجأة سمعت العجوز نيتافوري تتسلل ورائي.. فالتفت إليها ثم قررت أن أركع على الأرض وأقبّل يدها.. كانت يداً مجعّدة مزرية مثل مخلب جرذ.. وكانت تلتمع بخواتم الماس.. ثم صنعت لها قهوة، ووعدتها بأن أخلي غرفتها في نهاية الشهر..

وسألتني ببرود: أين ستمضي..

فقلت لها إنني لا أدري بعد.. فأنا لا أملك مكاناً أذهب إليه..

وفي الحال قدّمت اقتراحها: «هيلا فيتي»..

ووقفت أبحث عن شيء أقوله ثم وجدت إحدى إسطواناتي فوق المنضدة فمسحتها بقميصي ووضعتها في الجهاز.. وخيّل إلي أن صوت المطر قد خفّ فجأة.. ثم وصل صوت فيروز:

* انتهى الصيف في يوم واحد..

«أمشي على طرقات منسية بدنية غياب وراح يغيب المطر..

أنطر شي إيد تسلم عليه شي صوت عم بيقول مسا الخير..»

وأقفرت شوارع العالم كله، وغداً يحملني القطار بين بقية أكياس الشوفان إلى القرية المجاورة..

ليس ثمة ما يدعو للحزن.. أنا أحس بحريتي لأول مرة فلم يعد لدي ما يربطني بالناس.. تركت لهم غرفتهم ولغاتهم وأشياءهم الثمينة والرخيصة على السواء وذهبت مع أكياس الشوفان..

ما أبدع مشاعر اليأس عندما يتعلم المرء كيف يحبها..

إنها تستطيع أن تعطيك كل ما ترغب فيه، وتعطيك لحظة السلام التي يلهث العالم وراءها محمّلاً بالآمال على كل لون..

فإذا توقف المرء ووضع ذلك الحمل جانباً.. إذا تخلّص المرء من أوهام الآمال المضحكة، وأغمض عينيه وجد كل ما يبحث عنه داخل لحظة واحدة من اليأس..

هل ثمة من يصدق ذلك؟

أنا أعتقد أنني عشت هذه التجربة، وأعتقد أنني لم أخطئ في فهمها.. وسوف تتيح لي السنوات القادمة معرفة أكثر على أي حال.. فأنا أزمع أن أمضي مع أكياس الشوفان إلى آخر إسطبل في العالم..

* مددت يدي إلى العجوز نيتافوري وتمنيت لها حظاً سعيداً كما يقول الناس دائماً.. ثم استدرت عبر الشوارع المقفرة والمطر.. ثمة عجوز يائسة مثلي قالت ذات يوم: لو أن الأصدقاء يبيضون لما مات أحد من الجوع.

ما أفظع كلمات العجائز..

1966

10

مدارس العمّال المُحزنة..!!

القوقعة الكريهة لا تهتم بغير رأسها.

فإذا ضمنت حمايته داخل عظمها، أغمضت عينيها في طلب النوم وطفقت تحلم بالمد.. ولن تهتم بعد ذلك إذا غرق العالم في الطوفان..

لا تجهدوا أنفسكم في فهمي.. سأقول لكم..

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش داخل ودعة ولكنه يستطيع أن يكون أكثر أنانية من أي قوقعة كريهة.. وعندما يفعل الإنسان ذلك، فإن نظام العالم كله يصبح مهزلة..

فالحياة هنا بناها اللّه على أساس المشاركة..

على أساس نية طيبة يملكها المرء تجاه الآخرين، ويبذل جهده لكي يحققها لهم.. والحياة ـ يا إخوتي القواقع ـ مستمدة من ضوء الشمس وحده.

أنا واحد منكم.. فدعونا نزحف معاً ونتحدث بلغتنا: منذ

عدة سنوات نشأ في ليبيا نظام يستهدف «تعليم الشعب».. نظام يريد أن يخلق شعباً واعياً بأي ثمن، وقد بلغ حماسنا إذ ذاك مداه، ومشينا جميعاً في صف طويل واحد إلى البناء الأبيض اللون الحافل بالعلم..

مشى الأطفال في المقدمة..

وجاء الكبار بعدهم في المساء وأضيئت قاعات المدرسة وبلغ الزحام أشده في سوق المعرفة، حتى أن المرء كان يضطر لأن يقفز من النافذة لكي يجد مكاناً..

وفتح كتاب المطالعة..

وقرأ الأطفال ـ لأول مرة ـ أن الدجاجة ليست حيواناً مفترساً، ثم رأوا صورها الملوّنة، واستطاع معلمهم أن يثير شوقهم إلى المعرفة، وكان ذلك ـ في الواقع ـ عملاً من أعمال الخير..

ثم جاء العمال في المساء.

كان بعضهم قد جاوز الخمسين من عمره.. وكان بعضهم ما زال شاباً، ولكنهم كانوا جميعاً رجالاً كباراً مجربين وممتلئين بالخبرة على كل نوع.. وكانوا يملكون ـ مقدماً ـ الشوق إلى المعرفة.. فليس ثمة ما يدفع المرء إلى أن يضحّي براحته ووقته، ويخوض في الغدران لكي يصل إلى المدرسة سوى شوقه لأن ينال نوعاً من المعرفة..

وعندما دخل المعلم قاعة الدرس، حدث شيء جديد..

فقد كان المعلم ـ لأول مرة في تاريخ المدارس ـ أصغر سناً من طلابه.. كان يقل عنهم خبرة.. ويقلّ عنهم تجربة.. وكان لا يملك شيئاً واحداً يستطيع أن يقوله لهم، سوى أن يحلّ لهم

شفرته الخاصة المعروفة باسم «الحروف»، أي أن يعلمهم القراءة والكتابة..

ولكن المعلم لم يفعل ذلك.

بل فتح أمامهم درس المطالعة، وقال لهم إن الدجاجة ليست حيواناً مفترساً!!

وكان المعلم مضطراً لأن يرتكب هذه الحماقة رغم أنفه.. فقد كانت وزارات التعليم تملك شيئاً اسمه الشهادة الابتدائية، وتعطيها للذين يجتازون امتحانات الوزارة فقط..

وكان السؤال يأتي على هذا النحو: الدجاجة ليست.. «أكمل» فإذا كان المرء لا يعرف حيلة كتاب المطالعة، فإنه لا يستطيع أن يكمل هذا السؤال كما تريد الوزارة إلا إذا كان مجنوناً..

ثم جاء درس المحفوظات..

وكان المعلم مستعداً لأن يجد شيئاً نافعاً يقوله لطلبته الكبار، ولكن المنهج المقرر لا يسمح بالأشياء النافعة، فالسؤال سوف يأتي في النهاية على هذا النحو: من هو رفيقك في البيت؟..

والإجابة الصحيحة زوجتي وأطفالي.

ولكن الوزارة تريد الإجابة هكذا: ديكي ديكي.. أنت صديقي.. أنت في البيت رفيقي..

(وليسقط) كل من لا يعرف ذلك.. أعني يرسب في الامتحان.

ثم يبدأ درس «الدين» ويعتري الرجال نوع من الخشوع فيما يتقدم المعلم لكي يحدثهم عن كلمات اللّه.. ولكن الأمر ينتهي

دائماً بمفاجأة عندما يكتشف الطلبة المتلهفون أن معلمهم غير قادر على الخروج عن المنهج المقرر، وأنه مضطر لأن يبدأ درسه على هذا النحو:

الصيام فريضة..

والصلاة فريضة، والمؤمن يتوضأ قبل الصلاة.. ثم ينحني المعلم ليشرح لطلبته كيف يتوضأون..

ولكنهم يعرفون ذلك..

وقد ظلوا يقومون به أعواماً طويلة.. من قبل أن يولد معلمهم، إنهم في حاجة إلى شيء آخر.. شيء يعينهم على الفهم الحقيقي لكلمات اللّه..

ويهز المعلم كتفيه..

ويذكرهم بمقررات الوزارة.. بالأوامر الصادرة من وراء.. المكاتب.. فالموظفون يهمهم النظام أولاً.

ويخرج الأمر كله عن نطاق التعليم لكي يصبح حصولاً على شهادة الوزارة..

لكي يصبح تنظيماً للسجلات وتحديد الأسئلة ووضع صيغ الامتحان، وإعلان النتائج حسب ترتيب الناجحين..

معذرة!!

ولكن المرء لا يستطيع أن يجمع بين رجل وبين طفل في شيء واحد.. حتى إذا أراد أن يشنقهما.. فلا بد أن يقوم بصنع مشنقة خاصة لكل منهما..

فدعونا نتحدث عن الموظفين.

إنهم يضمنون سلامة رؤوسهم ما دام لديهم سجل يحتمون

في داخله ضد العمال، ما دام لديهم نظام كامل تمّ استيراده حسب المواصفات، واختراع الشهادة يمدّهم بالحماية المطلوبة ضد لحظات الفوضى.. فالموظف يعرف طريقه ويعرف أن المدرسة الابتدائية تستمر ست سنوات ثم تأتي مدرسة من نوع آخر اسمها المدرسة الثانوية.. ثم يصبح المرء عالماً في الجامعة.. والموظف لا يمكن خداعه فهو يملك شيئاً اسمه (المنهج المقرر) وسوف يضع أسئلته طبقاً لذلك المنهج وينتظر إجابتك في نهاية العام، ثم يعطيك رقماً من عشرة، ويجمع درجاتك توطئة لتقدير مدى صلاحيتك لحمل شرف الشهادة..

والموظفون جديرون بالمدح ما دام الأمر يتعلق بالأطفال.

ولكن إذا انتهى الأمر إلى نقاش مناهج العمال في المدارس الليلة، فإن المرء مضطر إلى أن يتوقف عن المدح، ويشرع في حك رأسه توطئة لفهم سلوك القواقع المشين..

فإن أحداً لم يقرر الخروج من سجلاته لكي يواجه حاجة هؤلاء العمال إلى مناهج جديدة.. ولم يقرر أحد أن يعترف بأي تغيير في مهمة المدرسة لكي يساعد على تجنب المهزلة الناجمة عن عجز تلك المناهج المطلق..

فالمدرسة ليست مهمتها تعليم الرجل الأميّ..

بل مهمتها أن تمدّه بشهادة.. أن تصنع منه طفلاً.. وليس ثمة من يعرف مدى الإهانة التي يحسّها الرجل المسن عندما يضطر إلى حفظ مناهج الأطفال سوى معلمه الواقف أمامه مكتوف اليدين بقرارات الموظفين..

ودعونا نتحدث بلغتنا..

هل ثمة إنسان واحد في وزارة التعليم أو في غيرها يستطيع

أن يقول لنا إن المناهج المعدة للأطفال هي وحدها السبيل إلى محو الأمية.. وهل ثمة من يريد الخروج من ودعته لكي يغامر بإيجاد منهج آخر..

وما حاجة كبار السن إلى شهادة الوزارة..

وهل تلك الشهادة ذاتها غير مسطرة من اختراع أحد الموظفين.. مسطرة لا تقيس شيئاً سوى أوهام الموظف نفسه؟

فالمنهج يستطيع أن يكون أي شيء، ولكن الهدف لا بد أن يكون واحداً، لا بدّ أن يتحدّد تحت اسم: المعرفة.. أو محو الأمية.. ومهمة المنهج أن يلائم الظروف بقدر الإمكان لكي يحقق ذلك الهدف.

ولنفترض أن أحداً جمع طلاب ليبيا كلهم ووضع أمامهم هذا السؤال:

«من هو أوهارا بورك؟»، ولنفترض أن جميع الطلبة عجزوا عن أن يعرفوا أن بورك هو أول إنسان.. أبيض عبر أستراليا، فهل يعني ذلك أن طلاب ليبيا جميعاً في غير مستوى طلاب أستراليا الذين يستطيع أي طفل فيهم أن يجيب على هذا السؤال.

بالتأكيد لا..

ولكن إذا كان السؤال سوف يحدد نتيجة أحد الامتحانات، فإن طلابنا جميعاً سوف يرسبون في ذلك الامتحان، ويحرمون بالتالي من الشهادة!!

فهل تعتقدون أن تلك النتيجة شيء عادل؟

أم أنكم سوف تسارعون إلى الإعلان عن نوع مناهجكم باعتبار أنها ليست موجهة لمعرفة أستراليا بل ليبيا في المقام الأول؟

أي أنكم سوف تعترفون بأن لكل امرئ عالمه الخاص.

فدعوني أذكركم الآن بأن عالم الرجال في المدارس الليلية، يختلف أيضاً عن عالم الأطفال.

معذرة.. فأنا واحد منكم ليس غير..

وقد زحفت فوق ممرات مدارس العمال سنين طويلة.. وأعرف الطريق جيداً إلى هناك.. وأعرف أنني لست مهماً إلى الحدّ الذي يتيح لي فرصة.. إصلاح هذا الطريق.. ولكني ـ مثل جميع العاجزين ـ آمل في سواعد الأقوياء.

آمل في رجل لا يملك قوقعة فوق ظهره، يستطيع أن يرفع الطريق أمام ليبيا..

ويمحو أمية العمال.

أو أمية الموظفين.. فالأمر ـ في الواقع ـ على حدّ سواء..

ودعونا نتذكر دائماً أن العلم لا دليل عليه سوى العلم نفسه.. أما الشهادات وأقلام الحبر والصدور المنتفخة وباقي الأشياء الأخرى فهي مجرد لعبة مملّة من لعب عصر الإقطاع.. أيام كان الإنسان يتسوّل احترام الآخرين عن طريق سيف من الذهب.. وسرج فضي فوق ظهر بغلته.

أيام كان الإنسان يولد حاملاً سرجاً..

1966

11

«ربيكا» منجّمة غجرية تقرأ الكف في مدريد

كانت تجلس دائماً فوق الرصيف المواجه (لفورمولا بيانكا)، وتصيح للمارة المتدفقين من الميدان في اتجاه الجسر (متى ينهار الجسر أيها السادة، وتغرقون في النهر مثل الجرذان؟ تعالوا أقول لكم ذلك مقابل فلس واحد. اقتربوا. هاتوا أكفكم القذرة..)، وكان المارة يحبون (ربيكا) ويشترون جسدها مقابل بيزيتا وأربعين فلساً..

وفي ذات يوم سألتني ربيكا: «هل تحب أن أقرأ لك مخلبك يا سيدي السلطان؟».. كان البواب قد أحضرها لكي تنظف غرفتي، وجلس معها في المطبخ وشربا معاً زجاجة من نبيذ ـ تيبولا ـ كنت أحتفظ بها في المدخنة ثم خرجا يترنحان مثل شيطانين من الورق المقوى ورقصا على طول الممر المؤدي إلى غرفة الطعام حتى أطلع البواب لسانه من التعب وتهالك فوق أحد المقاعد.. وفي اللحظة التالية أجالت الغجرية عينيها في الغرفة ورأتني أجلس في الركن المعتم فسألتني بود: «هل تحب أن

أقرأ لك مخلبك يا سيدي السلطان؟»

ومددت لها يدي، وتركتها تبحث عن مستقبلي في الشقوق.

تلك النجمة.. كانت في بنغازي!.

ولم تكن تقرأ الكف في مدينتنا أو تسرق زجاجات النبيذ من المدخنة.. بل كانت تقرأ قلوب الرجال البسطاء المحترقين بالجنس، وتبيع لهم الحب مقابل ألف بيزيتا وزجاجتين من الشمبانيا تحت أضواء الملاهي الليلية.

وكانت تقيم في فندق كبير يطل على البحر، وتلعب بالرجال وقطع الشطرنج.. «الحجرة رقم 812» هكذا قالت ربيكا ـ الحجرة المواجهة للممر مباشرة. ثمة سجادة حمراء تغطي السلم المرمري إلى باب غرفتي ومرآة مستطيلة عند الركن.. أنا ما زلت أذكر ذلك كأنني أراه الآن.. وما زلت أذكر عامل البار يوسف.. هل تعرف يوسف؟ لقد أعطاني مرة راتبه كله مقابل أن أتركه ينام في غرفتي ساعة واحدة.. كان يوسف مجنوناً وقد قلت له إنه يستطيع أن يزورني عندما يدفعون له علاوته التي حدثني عنها..

وأغمضت ربيكا عينيها وتركت ذكرياتها تسبح وحيدة عبر البحر.. ـ ثم جاء محمد السطار.. كان أكبر تاجر في العالم وقد وقع في حبي مباشرة واشترى لي أسورة من الذهب، وعندما سكر في آخر الليل طلب أن أتزوجه في الحال..

وقلت لها: دعيك من هذا! ماذا قرأت في كفي؟

فرفعت ربيكا يدي إلى فمها ثم شرعت تعضني مثل فأرة مسعورة.. إن المرء مطالب بأن يسمع قصص الحب إلى نهايتها.. والحب في بنغازي لعبة تبيعها عجائز الغجر..

وعادت ربيكا تحدثني عن محمد السطار: «كان أكبر تاجر في العالم، وكان يحب السهر والويسكي وأطباق الأرز بالفلفل، ويحب أن يمد يده تحت المنضدة ويقرصني. وقد حملني في عربته إلى شاطئ سوسة ألف مرة واشترى لي أسورة أخرى.. وعندما كنا نبني خيمتنا فوق الصخور الممتدة بحذاء الشاطئ كان محمد السطار يخرج زجاجته من العربة ويدفنها في الماء البارد ثم يوقد ناراً عظيمة ويشوي لي شرائح اللحم.. وكان يشرب عشرين زجاجة من النبيذ وحده، دون أن يموت!! هل تصدق ذلك؟

وهززت لها رأسي فابتسمت وقالت بحيرة: ولكنه كان يغني دائماً لكل كأس يشربه.. كان يطرقع بأصابعه ويشرع في الغناء فجأة دون أن يطلب منه أحد ذلك.. وكنت أشعر بالخوف عندما يختنق صوته متأوهاً.. وأقول له: يا محمد السطار هل أنت حزين؟ فيضحك ويقول لي: لا.. أنا سعيد ومبسوط جداً مثل هذا البحر!!

وأحسست بالغثيان يجتاحني..

وحاولت أن أخلص يدي من قبضة الغجرية المخمورة، ولكنها كانت تمسك بها مثل كماشة من النحاس الصدئ.. وكانت ما تزال تنعم بالحب على شواطئ سوسة: .. ثم حملني محمد إلى بيته في النهاية، كان ذلك خطأً فظيعاً ولكنه كان سكراناً وقد قرر أن يريني بيته الكبير.. وعندما شربنا زجاجة الويسكي التي كانت في الثلاجة دخل محمد السطار ليحضر العشاء ثم سمعت صراخاً حاداً وصوت امرأة ليبية تتشاجر مع محمد.. ولعلها كانت زوجته الفظيعة.. أنا لا أدري.. فقد كنت مخمورة جداً!!

وسألتها: هل كان حبيبك متزوجاً؟

قالت باحتقار:

أجل.. كان يملك غولة شنيعة لا تكف عن مضايقته، وكان يكرهها إلى حدّ الموت..

وهل طلقها بعد ذلك؟..

طلقها! لماذا؟ لقد كان لديها أربعة أطفال.. إن المرء لا يستطيع أن يرى أطفاله في الشارع لكي يتخلص من أمهم.. إن العجائز في بنغازي يثرن السخط.

وقلت لها: أنت لا شأن لك بذلك الآن.. لماذا تشتمين أمهاتنا؟

فرفعت رجلها وطفقت تركل الجدار بغيظ: العالم كله يثير السخط.. أنت لا تدري.. لقد كان في وسعي أن أتزوج محمد السطار وأنعم معه بالجنة الزرقاء على شاطئ سوسة.. كان في وسعي أن أجد الطعام الجيد والفراء والعربة وكل النقود التي أحتاجها لأشتري ما أريد.. كان محمد يحبني أكثر من كل شيء.. وكان يتمنى أن يتزوجني.. ولكن زوجته الفظيعة حطّمت حياتنا بالأطفال!!

وسحبت يدي من كماشة النحاس الصدئة..

وأشعلت سيجارتي وطفقت أحرقها في جو الغرفة المشحون برائحة النبيذ والعرق، فيما أسندت الغجرية رأسها على حافة المقعد وتركت دموعها تغسل أحلامها الرديئة بالملح.

وفي اللحظة التالية كنت أعبر البحر مغمض العينين، وأجتاز اللسان الصخري الممتد في مواجهة الميناء إلى أزقتنا المتربة ومدينتنا العجوز..

هنا يباع الحب والبنزين..

وتتوهّج ابتسامات عاهرات الغجر في أضواء الملاهي الليلية مثل شمعات عيد الميلاد.. ويحترق الرجال البسطاء كالفراشات في لحظة الانفجار الحافلة بالكآبة، ويعرضون قلوبهم في جرادل الزنك مع زجاجات الشمبانيا وأجود أنواع التبغ.. هنا يباع الرجال بتسعة جنيهات.

وتغسل بنغازي رمتها في الأكاذيب..

ويتجمع العاشقون حول الموائد في الأركان المعتمة ممتلئين بالحب وعلاوات السكن والغلاء منتظرين لحظة الانفجار عندما تمر أمامهم جارية ملونة تبيع لهم ابتسامة.. ونصف كلمة مبحوحة..

وينطلق قلب العاشق من عقاله..

ويفقد اتزانه مرة واحدة مصفقاً بكفيه لكي يفرش العبيد مجلس الأنس ويحضروا قلبه في جردل من الزنك، فيما تغمز الجارية لصديقتها معلنة أن شهريار لم يغسل أسنانه جيداً.. ولم يغسل أذنيه.. وأن رائحته لا تبشر بالخير!.

هنا يباع الحب لا الصابون..

وتبكي ربيكا حظها العاثر، ويهجر محمد السطار زوجته أمام عجائز أوروبا لأنها أنجبت له أطفالاً، وطبخت له الطعام، وسلخت جلدها فوق جدران بيته لتغسل جواربه وقمصانه الغارقة في القيء.. هنا يا ربيكا يهان كل الأنبياء..

وتأكل مدينتنا أظفارها..

وتموت الذكريات الأليمة في زحام الرخاء.. فقد كنا شعباً

فقيراً.. وكنا لا نأكل سوى الشعير، ونلعب السيجة بدل الشطرنج.. وكانت مدينتنا مطوّقة بالأسلاك الشائكة، والجنود السنغاليون يملأون شوارعنا بالموتى.. كان أمل الرجال إذ ذاك لا يتعدى الأمل في عبور الطريق سالمين من حراب السنغاليين ثم العثور على كسرة من الخبز في مخازن الحلفاء..

ثم كبرت بنغازي حتى أصبح في وسعها أن تستورد العاهرات..

معذرة أعني الحب والبصل والعربات والملح الناعم وفتيات الغجر لتسلية الرجال على الشواطئ الزرقاء، وفتحت أبواب الملاهي على مصراعيها، وأضيئت خشبة المسرح لكي يغسل الليبيون أحزانهم في بحيرات الألوان والبنات البيضاء..

هذا يا ريبيكا مهرجان الجياع..

وقالت الغجرية: ألف بيزيتا وزجاجتان من الشمبانيا!! أنا لا أستطيع أن أنسى مدينتكم قط.. كانت أحسن المدن وكان مدير الملهى يعرف دائماً أحسن الرجال!..

ومددت لها يدي وطلبت منها أن تنهض.. ولكنها أمسكتها بهدوء وطفقت تتأمل الشقوق العميقة الجافة.. ثم قالت: أنت لا تملك ألف بيزيتا. أنت فقير مثلي أليس كذلك؟

وجذبت يدي ولكنها ظلت قابضة عليها وأضافت بود طريقك طويلة وراء مدريد والحواجز تعترضك من كل جانب.. ثمة رغبة ترنو إلى تحقيقها ولكنك لن تستطيع ذلك قط.. وسوف تموت في حادث سيارة..

ونظرت إليها..

كانت ما تزال تتأمل يدي مقطبة محركة شفتيها الباهتتين بحثاً عن مزيد من الأكاذيب، وقد تمنيت أن يراها حبيبها في بنغازي.. ذلك الرجل الذي كان يشرب عشرين زجاجة من النبيذ وحده.. ويشوي لربيكا شرائح اللحم..

تمنيت أن تحمله إحدى العواصف..

وتجعله يرى ربيكا على الرصيف المواجه ـ لفورمولا بيانكا ـ تبيع الأكاذيب وجسدها مقابل بيزيتا وأربعين فلساً..

مقابل علبة من التبغ الرديء..

1966

12

الطريق إلى ليبيا

إن لدينا بلداً سياحياً جيداً..

ولدينا البحر، وآلاف الأميال من الشواطئ الهادئة.. ولدينا الشمس.. ولكننا لا نستطيع أن نبدأ المنافسة من أجل الحصول على نصيبنا من سواح العالم. إلاّ إذا أصبح في وسعنا أن نحلّ مشكلة الطريق إلى ليبيا أولاً.. وأن نعطي السائح فرصة لكي يصل إلينا..

فبلادنا لم تعد ذات موقع سياحي بعد ما حدث في الشمال والشرق، والسائح العادي ـ سواء جاء من أوروبا أو من آسيا ـ يجد في طريقه بلداناً تفوقنا قدرة في تحقيق مطالبه.. وتستطيع أن تحتفظ به داخل حدودها حتى ينفق كل ما لديه.. وهذه البلدان تعتمد على السياحة اعتماداً كبيراً، وهي مزوّدة بالخبرة الكافية لكي تواصل هذا الاعتماد.. ونحن لا نستطيع أن نجري وراءها الآن.

إننا لا نملك الخبرة المطلوبة للقيام بذلك العمل.

وإذا قررنا أن نبدأ الطريق من أوله.. فإننا سنضطر إلى أن ننتظر وقتاً طويلاً جداً.. وسوف نضيع مزيداً من السنين.

فبلادنا تقع بالضبط في وسط الزحام..

والطريق من الشرق تسده بلدان سياحية من الدرجة الأولى، تملك البحر والشواطئ الهادئة والشمس.. وتملك شيئاً آخر مهماً الشهرة، التي تستطيع أن تجذب السائح من أنفه عبر آلاف الأميال.

أما الطريق من الشمال فقد قررت إسبانيا شراءه كله.. وإذا كانت اليونان وإيطاليا وتونس تحاول الدخول في المزاد فإن إسبانيا ما زالت أكبر فخ سياحي في أوروبا، وما زالت قادرة على أن تواصل ذلك سنين طويلة.

أما من ناحية الجنوب فإن السياحة نفسها لم تنم إلى الحد المطلوب إلا في بلدان قليلة جداً، وقد ظلت حتى الآن معتمدة على قوافل الصيادين الأمريكيين الذين يأتون للصيد أو لمشاهدة الغابات.. ولعل كينيا وحدها هي مقصد السواح في الغالب.

فكيف يصل السائح إلى ليبيا عبر هذه الفخاخ المغرية..؟

ثم لماذا ينفق السائح مزيداً من الوقت والمال لكي يصل إليها؟

والوقت نفسه مشكلة.. فأغلب السواح من الموظفين ورجال الأعمال الذين يفضلون أن يبدأوا إجازاتهم السنوية خلال شهر الصيف.. والإجازة نفسها لا يمكن أن تزيد في أغلب الأحيان عن شهر واحد، يبذل السائح جهده لكي يستغل كل لحظة فيه.. فكيف يستطيع أن يصل إلى ليبيا؟

إذا قرر أن يستعمل الطائرة فإنه مضطر إلى أن ينفق ضعف

ميزانيته في شراء التذاكر خصوصاً إذا كان يرافق عائلته..

وإذا قرر أن يستعمل الباخرة فإنه يضيّع الشهر كله في الطريق.

والحل الوحيد أن يعبر الحدود ويتجه إلى اسبانيا كل عام..

وهذه هي المشكلة في الصف الأول..

أما بناء الفنادق وطباعة الإعلانات فذلك شيء آخر لا بدّ أن يتم في الخطوة التالية.

والحل الذي ابتكرته مصالح السياحة في معظم الدول حلّ بسيط مباشر..

فما دامت المشكلة تتمثل في فتح الطريق أمام السائح، وتوفير وقته لإحضاره إلى الجهة المطلوبة.. فإن الحل يجب أن يجد وسيلة لتخفيض نفقات السفر بالطائرة، وفتح خطوط مباشرة ومنتظمة ورخيصة..

وذلك عمل يتم عن طريق الاتفاق مع المكاتب السياحية الخاصة..

وهي مكاتب تديرها شركات صغيرة.. تتناثر عبر أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا في كل قرية تقريباً.. وتستطيع أن تقنع السائح لأن يذهب إلى أي مكان.

فإذا تمّ الاتفاق بين إحدى مصالح السياحة وبين أي من هذه المكاتب.. فإن المكتب يبدأ فوراً في الإعلان عن ذلك البلد، ثم يبدأ في جمع السواح داخل مجموعات معينة.. يوالي إرسالها على مدار العام.

وهذه المكاتب لا تحجز أماكن للسواح في الطائرات.

ولكنها تقوم بتأجير الطائرة نفسها.. وذلك عمل يخفض ثمن التذكرة إلى حد مذهل..

فالراكب العادي الذي يطير من استوكهولم إلى بنغازي يدفع ما قيمته مائة وثمانين جنيهاً ليبياً لرحلتي الذهاب والعودة، مقابل ستين جنيهاً فقط إذا جاء عن طريق أحد المكاتب السياحية.

ومن فرانكفورت يدفع الراكب العادي مائة جنيه عن مقعده إلى ليبيا ذهاباً وإياباً مقابل أربعين جنيهاً فقط عن طريق المكتب.

وهذا النظام خدم الأقطار البعيدة خدمة كبيرة جداً وقد فتح أمام السواح أنفهسم آفاقاً جديدة ومتباينة.. ولعل ثلاثة أرباع السواح الذين يصلون إلى مدريد وجزر الكناري والقاهرة وكينيا يصلون عن هذا الطريق.

والنظام نفسه يعتمد على فكرة المجموعات.

ومكتب السياحة يقوم بكل الإجراءات الأخرى، فهو يتفق على أجر الغرف والفنادق ونفقات الطعام وإجراءات التأشيرة وتذكرة السفر وزيارة المناطق المختلفة، ويعطي السائح فرصة لكي ينعم بوقته مطمئناً.

ولعل أهم ميزة في هذا النظام أنه يستطيع أن يمدّ أي بلد بالسواح، وبتكاليف محتملة، مهما كان موقع ذلك البلد.

وهذه هي الفرصة الحقيقية التي نحتاجها: أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون ونفعل كل ما يمكننا لكي نعقد اتفاقاتنا مع هذه المكاتب.. فهي لن تطلب أي أجر مقابل خدماتها سوى أن نسهل مهمتها.

ونحن لدينا أشياء كثيرة نستطيع أن نقدمها للسواح.

لدينا الطبيعة الطيبة، والآثار، والهدوء الذي ينشده كل إنسان في العالم. ولدينا سوق حافلة بكل منتجات الدول، مما يعتبر وحده ميزة لا تملكها كل الشعوب.. ولقد اضطرت معظم الدول السياحية إلى أن تفتح مناطق حرة في أراضيها لسد هذا النقص ذاته.

ومن ناحية أخرى، فإن تلك فرصتنا لكي نتعلم الخبرة التي نحتاج إليها في السنين القادمة، فإن السياحة لم تعد مورداً للعملات الصعبة، بل أصبحت صناعة لها.. وهي صناعة صعبة حقاً..

وبالنسبة لبلادنا..

فإن تلك مهمة تحتاج إلى دقة أكثر من سواها، لأننا نفتقر إلى ميزة الموقع السياحي المناسب.. ولأننا نفتقر إلى الشهرة.. وإذا كانت حكومات العالم تعرف عن ليبيا كل شيء، فإن شعوب العالم لا تعرف عنها سوى أنها بلد صحراوي منقطع النظير في ارتفاع درجة حرارته.. وذلك شيء يرهب السائح الأوروبي لأنه لا يستطيع أن يتصور قط أنه سيدفع نقوده لكي يحرق جلده في بحر من الرمال.

والمنشورات السياحية الملونة لن تبعث الثقة في قلبه فقد تعلّم في المدرسة ـ وهو كل ما يعرفه عنا ـ أن ليبيا أكبر صحراء في العالم، ولا شيء غير ذلك.. والمعروف أن مناهج المدارس في أوروبا وأمريكا ما زالت تردد هذا التعريف عن بلادنا.. وهو شيء لا يستطيع المرء أن يدرك عمق أثره إلا إذا حملته الظروف لكي يعيش بين هذه الشعوب.. إن تسعة وتسعين من كل مائة رجل هنا يسمي ليبيا الصحراء الكبرى..

ثم جاءت الحرب..

وعرضت مئات الأفلام عن حرب الصحراء، ولم يكن ثمة ما يستطيع أن يراه المشاهد أو يسمعه من الجنود العائدين سوى أن ليبيا صحراء مقفرة رهيبة أكثر مما تقول كتب المدرسة..

وهذه مشكلة أخرى..

فإننا لا نستطيع أن نقنع السائح بأن يتخلى عن كل معلوماته الزائفة إذا أريناه صورة للجبل الأخضر أو مدينة طرابلس وقلنا له:
ـ تعال.. تمتع في ربوع بلادنا..

فالسائح لا يصدق ذلك قط..

وسوف يظل يتساءل: ولكن أين الصحراء.. لماذا لم يقولوا عنها شيئاً؟ ـ وهو يعتقد أننا نقوم بخداعه بطريقة ما..

والمشكلة تحتاج إلى تخطيط من نوع آخر..

إننا مطالبون بأن نجد وسيلة الإعلان الجيدة التي تستطيع أن تضع في حسابها كل التفاصيل وتقدمنا للعالم بصورة أفضل.. ونحن لا نستطيع أن نفعل ذلك بالمنشورات، ولكننا قادرون على المضي بثبات في هذا الاتجاه إذا تمكنا من أن ننمّي نظام المجموعات السياحية الآن.. وأن نعقد اتفاقاتنا دائماً بحيث تهدف إلى إحضار أكبر عدد ممكن من السوّاح بغض النظر عن التفاصيل الأخرى.

فاتحادات الطلبة تنظم رحلات جماعية بأعداد ضخمة، وهي مستعدة لأن ترسل طلابها إلى أي مكان يبدي تسهيلات معقولة، وهذه فرصة أخرى أمامنا.. وإذا كان الطلاب لا ينفقون كثيراً من العملات الصعبة.. فإنهم أفضل وسيلة للإعلان عنا.

وقد بدأت إسرائيل تستغل ذلك منذ سنوات، وتدفع نفقات السفر لهؤلاء الطلاب مقابل أن يعملوا في ردم المستنقعات ورصف الطرق.. ولم تكسب إسرائيل الطرق وحدها، بل نالت الدعاية التي كانت تهدف إليها..

ونحن نملك فرصة أحسن لأننا لا نحتاج إلى من يبني طرقنا.. ونستطيع أن نعقد اتفاقات أكثر إغراءً مع كل اتحادات الطلبة.

ومن جهة أخرى:

فإن الكتب السياحية تستطيع أن تخدمنا بصورة أفضل إذا عرضنا تسهيلات بعيداً عن أي هدف مادي مباشر.. فإلغاء رسوم التأشيرة مثلاً عمل سوف يوفر كثيراً من المتاعب، ويعطي السائح فرصة لكي يشعر أنه مرغوب فيه، وهو شعور لا بدّ منه لكي يذهب المرء إلى أي مكان.

والواقع أننا محتاجون لأن نخطط طريقنا كله على نحو جديد، ومحتاجون لأن نعمل بشجاعة خلال الزحام والمنافسة، مبتكرين تفاصيل العمل نفسه بحيث يوافق ظروف بلادنا..

فنحن لسنا مثل أي بلد آخر..

ولا بد أن نبحث عن طريقنا الخاص، ونمدّ أيدينا عبر البحر لكي نحضر السائح إلى هنا فهو لا يستطيع أن يأتي بنفسه عبر ذلك الطريق المغلق بإحكام.

1966

13

التاريخ لا يهتم بالحظ

القرن الخامس عشر، إسبانيا تضع مصيرها بين أيدي فرديناند والملك يضع رأسه على ركبة إيزابيلا ويبحث عن خطة لمهاجمة العرب في إفريقيا. كان المسلمون قد انسحبوا من إسبانيا منذ بضعة أعوام وعبروا المضيق إلى الجنوب لآخر مرة، وكان الأتراك يستعدون لنقل الخلافة من بغداد لآخر مرة أيضاً... كل شيء يحدث بصورة نهائية في هذا القرن...

ثمة رجل مقوّس الأنف يعبر الحدود الإسبانية سراً قادماً من لشبونة، هذا الرجل يهودي واسمه كريستوفر كولمبس ولديه خطة عجيبة يريد أن يعرضها على الملك...

هدف الخطة إيجاد طريق آخر أمام سفن إسبانيا المبحرة إلى الهند غير الطريق الذي يسيطر عليه المسلمون..

يوليه 1492... كولمبس وصل إلى أمريكا واعتقد أنها الهند..

يوليه 1497.. كولمبس وصل أمريكا للمرة الثانية وعرف أنها قارة جديدة لم يسبق اكتشافها من قبل، كان كولمبس ذكياً إلى

هذا الحد... نهاية القرن ليست نهاية العالم كما قال العرّافون الذين جمعهم البابا حوله في روما.. والبابا يعلن اعتذاره عن طريق صلاة الشكر ليلة عيد الميلاد فيما تتجمع سفن القراصنة على طول الشاطئ الأوروبي وتفتح براميل النبيذ ويتصافح الأصدقاء بالسيوف ثم يبدأ الاحتفال بآخر يوم في القرن الدموي..

العالم كله سعيد لأن العرّافين أخطأوا الحساب..

وأصدقاؤنا الأتراك يعبرون القوقاز لإنقاذ العرب من النصارى، كان اسمه محمد.. ثم صار محمد الفاتح.... وبعد سبعة عشر عاماً حقّق محمد الفاتح انتصاراً عسكرياً في قرية اسمها «مرج دابق» ودخل القاهرة..

التاريخ مثل سجلات البلدية كله أسماء..

في ذلك الوقت كان كولمبس الشجاع يضع خطة جديدة لمهاجمة فلسطين وطرد الكفّار من أرض التوراة، وكان يعرض خطته على ملك مسيحي اشتهر في التاريخ بأنه قتل من اليهود أكثر مما قتل هتلر مرتين..

الملك ما زال اسمه «فرديناند» وكولمبس الذي بدّل ديانته بالمسيحية لا يزال يطمع في طرد المسلمين من فلسطين بجيش هذا الملك....

الرد على كولمبس تكفّل به حراس البلاط الذين أعلنوا حالة الطوارئ ضد اليهود في إسبانيا ثم أعطوهم مهلة أسبوع واحد لكي يغادروا البلاد واضطر المكتشف الكبير أن ينسى فلسطين ويقنع بأمريكا..

في هذا الوقت وصلت أول سفينة برتغالية إلى شواطئ الصين

وركع البحارة المتعبون أمام تماثيل بوذا وبكوا من الرهبة ثم اكتشفوا أن المعابد مليئة بالذهب والنبيذ الجيد والحرير وخلال ليلة الثلاثاء السابع من أكتوبر عام 1551 سطا البحارة البرتغال على معبد صيني قرب الميناء وسرقوا ثمانية عشر رطلاً من الذهب... وهكذا افتتحت أوروبا معركة القرصنة ضد الشرق...

في نفس العام ضمّ الأتراك ليبيا إلى الإمبراطورية...

وتمكن عالم دانمركي اسمه «يوحنا بلاجبروج» من أن يقيس المسافة بين الشمس وبين الأرض بمعادلات الجبر الذي صار اسمه «الجبرا» وقد أخطأ ذلك العالم تقدير المسافة بما يعادل ثلاثة وأربعين ميلاً فقط..

ولكن عصر العلم لم يبدأ بعد......

فقد مات «بلاجبروج» في زنزانة فظيعة ملحقة بإحدى الكنائس لأنه تجرأ على قياس (أملاك الرب) وامتلأت عواصم أوروبا بصيحات العجائز المذعورات اللائي كان القسس يقومون بحرقهن على صلبان النحاس لكي يطردوا الشر والشيطان من قلوبهن....

كان الإنسان يحكمه قس مجنون....

وكذلك كان العالم...

حتى قرر رجل ألماني اسمه مارك لوثر أن يمزق وصايا البابا ويلعنه باللغة الألمانية التي لم يكن البابا يعرفها.. ثم قرر أن يترجم كتاب الصلوات إلى لغة البسطاء.

وذهب مارك لوثر إلى الجحيم..

وسقط عرش البابا إلى الأبد..

القرن السابع عشر: كل شيء على ما يرام..

ولكن ميزان العالم بدأ يختل لصالح أوروبا، ثمة ظاهرة محيرة تجتاح إمبراطورية الأتراك في قلنسوة من الحرير.... هذه الظاهرة سوف تعرف في التاريخ باسم «الدولة المقنعة» أو عصر الجواري الذي يعتبر امتداداً واحداً لحكومة الخليفة المستنصر..

الخليفة ذبحه هولاكو....

فمن يقوم بذبح الجواري... ومن يعين «شيخ البلد» ويبيع الماء في حارات السقايين؟

في هذا العصر ولد شكسبير..... وخنق عطيل ديدمونة، وهاجم الليبيون صقلية وسرقوا بضع جوارٍ وقطيعاً من البط..... كان «عصر الجهاد» قد انتهى منذ زمن طويل وتكفل القراصنة بمواصلة القتال لأغراض تتعلق بخزانة الدولة وحدها....

وفجأة... انقسم العالم قطعتين...

إحداهما اسمها الغرب وقد ظلّت طافية فوق وجه الماء وظلت تصارع ببسالة حتى وجدت شاطئ الإنقاذ... والأخرى اسمها الأتراك وأصدقاء الأتراك الذين تيبست ظهورهم في وضع انحناء فوق فدان من الشعير ومسخهم اللّه تماثيل..

المشكلة أن التماثيل لم تكف عن إنجاب الأطفال وزراعة الشعير..

وكان لا بدّ أن تصطدم الجيوش القادمة من الغرب بأطفال التماثيل وتضع في الحال خطة لإبادتهم خلال القرن القادم.. وكانت خطة أوروبا بسيطة ومباشرة، كانت مجرد عملية

هجوم... ولكنهم استغرقوا قرنين كاملين لكي يستكملوا تفاصيل تلك الخطة وفي النهاية زارنا نابليون ثم جاء نلسون للدفاع عنا. وفي عام **1830** سقطت الجزائر بين أقدام فرنسا...

وانتهى عصر الجواري رسمياً...

وبدأ عصر العبيد..

وبعد ستة وعشرين عاماً هاجمت بريطانيا شنغهاي. وضحك العالم حتى دمعت عيناه عندما أعلن اللورد هارويك أن أسطول صاحبة الجلالة يزمع احتلال الصين ولكن العالم كفّ عن الضحك فجأة عندما رست البواخر البريطانية العملاقة على أرصفة الموانئ الصينية وأفرغت ما يعادل اثنين وأربعين مليون طن من الأفيون خلال أربعة أعوام..

فليست الحرب بالمدافع وحدها يا أيها العالم المهرج.

وعندما اقتعد المزارعون الصينيون أرضهم الطيبة ودخنوا أول دور من الأفيون «أحسوا بالانبساط والانشراح» وبكى الموتى تحت التراب وأطرق بوذا لآخر مرة... ومازال مطرقاً حتى الآن..

في هذا الوقت رسم فان غوخ لوحته الشهيرة «الجسر» وحقق أول خطوة مجدية في توزيع الألوان..

وأنهى نيتشه كتابه «هكذا تكلم زرادشت» ودعا الألمان إلى اعتبار الحكمة والقوة رفيقين في السلاح فيما كان ماركس يبحث في حانات هايدلبرج عن عمل... وكوب من الجعة... وثورة عالمية... أما أمريكا فقد تفرغت لأعمال السحرة..

وأتمّ غراهام بيل اختراع التلفون وأضاء أديسون أول مصباح كهربائي وأدار أول أسطوانة في العالم.. ثم قرر أن يخترع

مصيدة للفئران... وبعد بضع سنوات تمّ اختراع السيارة أيضاً..

وتطورت أسلحة القتال باطراد حتى أصبح في وسع أي رجل أبيض أن يقتل قبيلة من الزنوج، وقبيلتين من البدو والهنود قبل أن يتناول إفطاره سنة **1911** م افرنجي غرقت الباخرة تيتانيك...

ووصلت بوارج إيطاليا إلى شاطئ جليانة... وافتتح موسوليني المعركة بكلمة رقيقة «بونجورنو»...

الجوع مرّ أيها السادة ومن يده في الماء لا يعرف لدغ النار... وقد جاءنا موسوليني لأننا لم نذهب إليه..

ولأننا كنا مشغولين بسيرة الزناتي خليفة.... والعفريت عطشور الذي دخل جسد «الوراد» ولأننا لم نشعر بالجوع...

ومثل بقرة بلا ذيل تكفل اللّه بإنقاذنا...

وترك الكبار ينقسمون..

ثم تركهم ينقسمون مرة أخرى ورزقهم بهتلر لكي يعلمهم الخطابة وصناعة الدبابات...

ثم رزقهم برجل انجليزي اسمه «جون هايدر» تمكن عام **1949** من أن يسرق معلومات الحلفاء عن القنبلة الذرية ويحملها إلى الروسيا..... ويقطع العالم قطعتين..

الماء يباع في كل الحارات...

والفلسفة أيضاً...... ولكن المشكلة أن معظم الرجال يعبرون الأرض ورؤوسهم في السماء باحثين بإرهاق عن نجمة بيضاء تجلب الحظ الحسن...

والتاريخ مثل سجلات البلدية لا يسجل برج الميلاد ولا يهتم بالحظ.

فانظروا إلى أسفل إذا ولدتم مرة أخرى...

ولا تتركوا النجوم تخدعكم... ولا الزناتي خليفة.. وثقوا أن اللّه قد وضع الإنسان على الأرض ووضع كل شيء يخصه معه... وأن اللّه لا يمكن أن يكون قد نسي شيئاً يخصنا في السماء...

أعني، إذا ولدتم مرة أخرى...

1966

14

تجريب

انتهى مارس وعيد الأضحى والفصح.

وعاد الحجّاج بجلود الخراف، وعلّق اليهود يسوع الناصري بين اثنين من قاطعي الطريق، ثم تجمع القسس لإنزاله من فوق الصليب في شارع «زوكوف لافيتشي» بمدينة ليننغراد، وبكوا مثل الأطفال.

أما «دونا تيريزا» فقد قاطعت مؤتمر الكتاب وشربت زجاجة من الفودكا وباعت خاتمها في السوق السوداء، مقابل ألف روبل، ثم اشترت لنفسها تذكرة في الدرجة الأولى ونسخة روسية من الإنجيل.

وركبنا القطار.

ورأينا يسوع ينزل بنفسه في باقي القرى، والعجائز يملأن سلته بالبيض وأرغفة الخبز. والسواح يطاردون مؤجري الشقق والقوارب، وباعة السجق يطاردون السواح، ورأينا الأرض يحملها خنزير.

وجلست «دونا تيريزا» بجانب النافذة وطفقت تكتب إحدى مقالاتها. كانت تعمل في صحيفة أسبوعية تصدر في موسكو، وتتقاضى عشرين روبلا عن حصيلة الأسبوع من الكلمات المبلولة. وقد كتبت مقالاً رديئاً عن الاحتفال بإنزال المسيح، وأنهته بالصلاة الرابعة ثم اعتراها اليأس فمزقت أوراقها وجلست تبكي.

ومشى القطار.

وسقط القمر في دموع «دونا تيريزا» وسبح وحده إلى القاع. وتذكرت خلال الليل أنني أجلس مع امرأة في غرفة خالية وافتقدت صديقنا الشيطان. ثم رأيت وجهها عبر عتمة النافذة ورأيت دمعتها تتعلق فوق أنفها وقلت لها مواسياً: أنت عصفور يحمل قطرة مطر.

أنا كاتبة سيئة الحظ والموهبة.

أنت عصفور يحمل قطرة مطر.

وقالت «دونا تيريزا»: كيف يكتب المرء مقالاً عن المسيح لرعاع موسكو. وماذا أستطيع أن أقول لهم. إنهم مستعدون لشنقه مرة أخرى لو جاء إلى الروسيا بدون تأشيرة.. وما الذي تستطيع كلماتي أن تفعله في رؤوس البقالين وباعة أعواد الثقاب.

وقلت لها مواسياً: الكلمات وأعواد الثقاب أرخص المصادر وأعظمها.

ولكنهما حرفتان سيئتان.. إن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً بعود ثقاب سوى أن يشعل به لفافته ويحرق رئتيه بالتبغ. وكذلك الكلمات. إنها تعذبك مثل القطط المتوحشة لكي تخلقها، ويقرأها الآخرون في الأوتوبيس، ويتركونها عند المحطة

القادمة. هذه صفة عصرنا، أن كل واحد منا يعتبر الباقين مجرد أوغاد مدهشين.

هذه صفة كل عصر.

وأشاحت السيدة بوجهها إلى النافذة وقالت بازدراء: هذه صفة عصرنا وحده، وأنت لا تفهم الأمي على الإطلاق، إنك مجرد سائح محترف.

وقلت لها: الكاتب ـ مثل الحلاق ـ لا يستطيع أن يعمل جالساً. ولا بدّ أن يعطي الزبون ما يريده. أعني أنا أفهم آلامك، ولكنني أريد أن أقنعك بموقفي. إنني لا أستطيع أن أجعل تجربتي تقودني بعيداً عن ليبيا. لا بد أن أقصّ شعرهم حسب الطلب، وأسألهم بعد كل خطوة: كويس هكي؟

فيهزون رؤوسهم ويقولون: كويس. قص من هنا.

وقالت «دونا تيريزا»: ها أنت بدأت تهذي.

إنني أجمع كلماتي من أرصفة العالم، وأجثو على ركبتي لكي أنسقها في الخيوط ثم أعرضها للبيع بالتجربة، أعني مثل البطيخ.

وماذا أيضاً؟

وقد بلغ من خوفي في البداية أنني كنت كلما نظرت في المرآة توقعت أن تخرج لي لسانها ثم كبرت وتعلمت الشجاعة وعرفت أن المرآة لا تملك لساناً على أي حال.

وساد الصمت.

وانشغلت سيدتي بكتابة مقالها. كانت قد عادت فأخرجت بضعة أوراق من إحدى الحقائب ثم وضعت آلتها الكاتبة فوق

ركبتي وطفقت تنسخ الصلاة الرابعة، ثم قالت بصوت خافت: إن لغة الإنجيل لا تصلح للجرائد اليومية.

لا.

وأفكار الإنجيل أيضاً... إنها لا تصلح.

لا.

ووضعت يدي فوق عنقها وتركتها تدب على خمسة أرجل.. ليس ثمة امرأة محصنة ضد ذلك السم. المتشردون الكبار يعرفون ذلك، ويعرفه السواح المحترفون.

وسألتني دونا تريزا: ألا تفتقد بلادك؟

أنا يربطني بوطني قلبي وساعي البريد.

وبلادك؟

أنا مسافر محترف. أعني مثل هذا القطار.

ومشى القطار.

وفتحت نافذتي وحدثت دونا تيريزا عن سموات ليبيا وأحزان البقالين والغش في الميزان ونعجة العيد الوقورة التي تموت كل عام عند الساعة العاشرة بتوقيت مكة ثم تجر القطط أمعاءها على الطريق وتشوي العجائز رأسها في النار.

نعجة العيد تحمل المرء فوق ظهرها وتقفز به عبر جهنم. أما إذا كان المرء لا يملك نعجة فإن عليه أن يقفز بنفسه، ويمشي فوق الصراط الذي يشبه حد السيف.

ولماذا يفعل ذلك؟

لكي يصل إلى الجنة. أعني أنت لا تستطيعين الوصول إلى هناك إذا كنت لا تملكين نعجة.

وإذا كان اللّه لا يريدني أن أصل؟

لا أدري. ولكنهم يقولون في الشرق إنك إذا ذهبت إلى مكة وضحيت فسوف تصلين إلى الجنة راكبة نعجة. أعني حتى إذا كنت امرأة سيئة السيرة، أو متعهدة لتموين العمال.

وقالت «دونا تيريزا»: أنا لست متعهدة. ارفع يدك عن عنقي، ودعني أنهي هذا المقال. وكف عن الكذب.

هل تعتقدين أنني أكذب عليك؟

لا أدري. ولكنكم بالتأكيد تكذبون على اللّه. إن أحداً لا يصل إلى الجنة بما يستطيع أن يشتريه بنقوده.

وسحبت يدي.

وطلبت منها أن تضع آلتها الكاتبة في مكان آخر، فأنا لست منضدة.. أعني أنا لست منضدة بعد. وقد ودعتها بجفاء عند الحدود وقلت لها إن المسافرين المحترفين يبدلون أوراق العملة والنساء عند هذه البوابة، ثم صعدت إلى قطار آخر واستلقيت على ظهري مثل سمكة ميتة.. وقررت أن أتيبّس في الملح. فأنا لا أستطيع أن أغير العالم، ولكنه لا يستطيع أن يغيرني إذا تيبست في الملح.

نعجة العيد وأنا نعيش متيبسين.

ويسوع الناصري أيضاً لكي نقفز الصراط يوم القيامة.

أما الآن. فإن الأرض يحملها خنزير.

ويقبض راتبه!

1967

15

انهيار الشرق.!

عندما صدر هذا الكتاب في هامبورغ خلال نوفمبر الماضي(*)، كانت أسقفية المدينة تبدأ سلسلة من المحاضرات المرية عن (الإسلام والسياسة في الشرق)، وكان القس (يوجين هاينرخ) يسلّط أسنانه في تاريخ العالم مثل أحد كلاب الصيد المدربة، محتمياً وراء أيقونات الخشب التي تخلب لب الألمان الأتقياء، متطاولاً عبر العتمة.. ورائحة الرطوبة والجرذان لكي «يشعل النار في جثة دعاة الحرب المتسخي الوجوه على طول الشمال الإفريقي إلى حدود الباكستان!»

كان القس (هاينرخ) يحذر مواطنيه من أهداف الإسلام!

وكان يتخذ إسرائيل مثالاً لحال العالم عندما «يكبر العرب إلى حدٍّ كافٍ، وينطلقون مرة أخرى حاملين راياتهم في اتجاه بواتيه!». وقد بدا من الواضح أن القس قد قبض ثمن دمعاته من

(*) من عام 1967.

أصدقائه اليهود في هامبورغ، الذين لم يكفوا قط عن بناء الكنائس المعتمة بالمجان.

.. ولكن «هاينرخ» فشل في إيقاظ شرذمة المستمعين الذين تناثروا في الصالة متثائبين بملل هرباً من البرد.. وبدا في النهاية وكأنه يحاول أن يعلق جرساً في عنق قطة ميتة.

فالإسلام ليس هو العرب..

بل إن العرب ما يزالون أصغر مجموعة قومية في الإسلام بعد أندونيسيا والباكستان والمغول المنتشرين بين الصين وجمهوريات روسيا السوفييتية إلى آسيا الصغرى.. ثم مجموعة الآريين في تركيا والهند وإيران، وهذه الحقيقة تضاف إلى حقيقة تاريخية أخرى أكثر إثارة وهي أن «دعاة الحرب المتسخي الوجوه» لم يبدأوا الحرب الصليبية التي يتحدث عنها «يوجين هاينرخ» بحزن بالغ..

ومن هذه النقطة يبدأ كتاب هاير، «يوم الأربعاء السادس من سبتمبر عام **1095** وصل جيش البابا أوربان الثاني إلى أورشليم لتحرير المدينة المقدسة من «نير» الكفار وإعادة السلام إلى أرض السلام.. وقد ذبح الجيش حول المسجد الأقصى سبعين ألف مسلم قبل أن تغرب الشمس!»

وأعلن البابا في روما أن «البرابرة قد انتهى أمرهم! وأن فلسطين عادت إلى ممتلكات الرب المبارك وغمرها النور!»

«في ذلك الوقت» قال انسليم هاير «كانت أوروبا لا تعرف الصابون، وكانت رائحة المسيحيين الأتقياء تزكم أنوف المحاربين العرب مثل رائحة الخنازير حتى أن كلمة «خنزير» ظلت صفة ثابتة لكلمة «نصراني» أربعة قرون بلا انقطاع، وكانت أوروبا

تحرق «السحرة والشيطان» في الميادين العامة، وتعالج السعال بلبن الحمير، ولا تعرف كتاباً آخر غير الإنجيل».

ثم قال هاير:

«في ذلك الوقت كانت غرناطة تملك عشرين مكتبة عامة، وكانت إحدى هذه المكتبات تحوي أربعمائة ألف مجلّد، وقد قاس العلماء المسلمون قطر الأرض بفرق يقل ثمانين كيلومتراً فقط عما سجلته مركبات الفضاء الحديثة.. واخترعوا الجبر الذي قاد العالم إلى فكرة المعادلة النهائية.. وأعطوا اللغات الأوروبية هذه الكلمات (كيمياء. جبس. بنزين. صودا. كحول) التي ظلت قاعدة العلم التجريبي من جيمس بيكون إلى هانو نفسه عام 1938.

إلى جانب الدراسات الفلكية التي ما تزال النجوم تحمل أسماءها العربية..»

هاير يكتب بحماس.. وتدفق.

ويريد أن يشحذ أسلحته لقتال الكنيسة التي يكنّ لها العداء مثل بقية الشبان المسيحيين في القارة، محاولاً عبر امتداح الإسلام أن يضع الكنيسة في نهاية الخط المقابل «حيث تقف كل لحظات العار والحقد والتعصب الديني والتفاهة في ثياب قس مصنوع من الخشب.. والطلاسم»، و«يوجين هاينرخ» يرفع صوته بالصياح وراء الأيقونات واليهود محذراً من «حراب العرب الملفوفة بأوراق القرآن» «تلك الحراب الحادة التي تشرعها إحدى عشرة دولة عربية ضد إسرائيل الصغيرة باسم الإسلام!».

والمهزلة تمضي في طريقها على أوسع نطاق..

فاليهود يعرفون أن أيسر السبل للظفر بتأييد أوروبا المسيحية

أن يجعلوها تتذكر سني الصراع الحاد بين الإسلام وبين النصرانية، ثم يربطون لها ذلك الصراع بما يحدث اليوم حول الأرض المحتلة في فلسطين، حتى تختلط الأمور في النهاية عبر مزيج أكثر سوءاً من كل أوجه الاختلاف السياسي الكريه.. وتوضع الأقنعة فوق وجه الدين ليقف مسؤولاً عن تفاهات هذا العالم التي يتمّ صنعها في رؤوس المرابين.. والقتلة.. وصغار القسس بلا انقطاع..

* إن العرب لا يحاربون إسرائيل باسم الإسلام.

ولكن الإسلام لا يبيح لليهود أن يقيموا دولة فوق جثث الفقراء، ويضعوا رشاشاتهم في خدمة البورصات المالية ثم يطالبون العرب بالسلام أو يشهروا بهم في الكنائس المعتمة..

والمشكلة ـ بغض النظر عن السياسة ـ مشكلة مرابين..

والقس الذي يقف في بيت اللّه لكي يشتم لهم كلمات اللّه مجرد مرابٍ آخر أكثر سوءاً، ولكنه يظل خطراً قاتلاً إذا لم يتم إسكاته مقابل ثمن ما، لا يستطيع أن يناله بالشتم.

لذلك فإن الشيوعيين الألمان يضطرون لدفع رواتب القسس وإغراقهم بالهدايا الملونة مثل زعماء الهنود لكي يشتروا صمتهم الذهبي، فيما يحاول الكتّاب الشبّان أن يحطموا أعصابهم عن طريق امتداح باقي الديانات باعتبارها فلسفات أكثر رقياً من بضاعة البابا الخشبية، وكتاب «انسليم هاير» إحدى هذه الكتب التي تمتدح الإسلام لكي تحطم أعصاب القسس واليهود... والبابا.

الكتاب يقع في مائة وثلاث وتسعين صفحة.

ويسمي المسيحيين «برابرة» والبابا أوربان الثاني «بربرياً ضيق

الأفق يفهم الإنجيل بالمقلوب» ويمتدح المسلمين بحماس لا تردد فيه، ولكنه يرتكب خطأ مريباً بالنسبة للإسلام عندما يربطه بقيام الإمبراطورية العربية ثم سقوطها باعتباره فلسفة عربية خاصة مناهضة للمسيحية.

فالواقع أن الخلافة الإسلامية سقطت بضعة مرات دون تدخل من المسيحية، وإذا كان ذلك قد حدث في إسبانيا ـ كما تذكر هاير ـ فإن خلافة دمشق انتقلت إلى بغداد دون أي انتكاس ديني، ثم سقطت بغداد في أيدي هولاكو الذي كان مسلماً أكثر حماساً من الخليفة.. وعندما وصل الأتراك بعد ذلك كانوا مسلمين أتقياء لا غبار عليهم، ولم يكن ثمة فاتح واحد بين هؤلاء الرجال هاجمه المسيحيون سوى سيف الدولة الحمداني الذي انشغل بالحروب المحلية ضدهم.. وربط الإسلام بقومية العرب، فهم سيئ لمعنى «كلمة الله ذاتها»، فالعرب لا يملكون سوى سدس الحيز الإسلامي الحقيقي، ولكن اليهود ـ الذين يعملون على تثبيت هذا الزعم ـ يعرفون أن أوروبا الصليبية تفهمهم أكثر إذا قالوا إن القتال حول فلسطين مجرد غارة إسلامية تهدف إلى الامتداد نحو الغرب!

وهنا تصبح كلمات المديح التي يعدها «هاير» ـ مثل كلمات الشتم ـ لا جدوى من ورائها على الإطلاق سوى إثارة الشك في نوايا الإسلام... فالمرء مطالب في الدرجة الأولى أن يبعد التاريخ عن الدين، وأن يفهم التطور الظرفي كما حدث في الأصل لا كما يمكن تفسيره بالحدس، طبقاً لمقاييس العصر، ولو اتبع «هاير» هذا المنهج لتحول اتهام البربرية من «المسيحية» إلى ظروف الجهل السائدة في العصور الوسطى، فالذنب يقع في

الواقع على ظروف العصر وحدها.. ولكن الطريق كان سيغلق كلية أمام الاتهامات الطائشة التي يجمعها صغار الباحثين ضد الإسلام معلنين مسؤوليته تجاه الأوضاع السائدة الآن في الشرق..

وبذا يتعلم الإنسان الشجاعة..

ويحمل أخطاءه وحده دون الإساءة إلى أفكار الدين التي لا يمكن إدراجها تحت نطاق الفلسفة مثل النازية أو الديموقراطية أو الشيوعية.. إن الدين أكبر من الإنسان، ومن هذه النقطة يجب أن تنطلق أبحاث الرجال الذين يؤمنون بالدين..

أما كلمات المديح..

فإنها لا تكفي وحدها ما دام العالم يحوي رجلاً أخرق يستطيع أن يجد منصة في مكان ما، ويشتم مغمض العينين حتى يصاب بورم اللسان.. وما دام اليهود يشترون القسس مقابل رأس من البصل، لكي يقحموا كلمات اللّه في عملية السرقة، ويعيدوا الإنسان حيث كان «أوربان الثاني» والشيطان... واليهود.

1967

16

عندما تطفئ الريح.. عود الثقاب

أنا أشعل عوداً آخر، وأحميه من الموت حتى يؤدي مهمته، ثم أنفث الدخان في وجه الريح وأحرق عينيها، أجل، هكي، أيها الحزن.

أما عود الثقاب، فيسقط على الأرض.

مثل بقية العيدان، مثل ورق الصحف القديمة وشظايا الزجاج وعظام الموتى لأن عود الثقاب أنهى مهمته، أعني لأنه عود ميت.

فهل تعرف الريح لعبتي؟

هل تعرف أنني قاتل حسن السلاح مثلها، وأنني أقتل بقدر ما تقتل حتى أشعل لفافتي في النهاية وأحرق عينيها؟

قال صديقي تاجر الخنازير في أثينا: «لا. أنت لست قاتلاً حسن السلاح. أنت مجرد قاتل يدمن التدخين.. أما الريح.. أوه».

وأنت؟ ألست أنت قاتلاً عظيماً؟

أحياناً، أجل. أعني أنا حرفتي أن أقتل الخنازير، ولكني لست قاتلاً عظيماً على الدوام، فالسوق سيئة في معظم أيام الأسبوع وصيادو السمك ينافسوننا بلحم السلاحف ولا يدفعون الضرائب مثلنا، ثم إن المرء ليس مضطراً لإطعام السلاحف. اسمع أنا أدفع عشرين دراخما لكل كيس من الشوفان وأدفع الضرائب وإيجار دكاني في سوق اللحم ورسوم الرخصة أيضاً، أما صياد السلاحف فلا يدفع شيئاً.. أعني هل رأيت أحدهم يشتري كيساً من الشوفان؟

وقلت له: دعنا من ذلك. أنا أريد أن أتحدث عن الموت.

فرفع يديه إلى أعلى وانتفض بطنه فيما هتف بضيق: «الموت، أجل، ولكن الضرائب مهمة أيضاً. أنا لا أستطيع أن أنافس الصيادين بأسعار جيدة ما دامت البلدية ترغمني على دفع سبع دراخمات إضافية عن كل رطل».

ولكنك تنافسهم في عيد الميلاد. أجل. إن أحداً لا يشتري لحم السلاحف في عيد الميلاد، لأن يوحنا المعمدان قال: «إن فخذ الخنزير وحده مائدة الرب».

ـ يوحنا المعمدان رجل صالح ولكنه لا يعرف الاثينيين، إنهم يشترون لحم السلاحف ويتركونه يجف في الملح فيبدو مثل فخذ الخنزير، ثم يطهونه ببهار الكركم ويقولون للرب: إنه فخذ خنزير. يوحنا المعمدان لا يعرف أثينا، ولكني سأقول لك: أنا أعتبر عيد الميلاد فرصة طيبة وأستطيع أحياناً ـ إذا كانت الأخبار في الصحف مشجعة ـ أن أذبح عشرين خنزيراً، وأحياناً اثنين وعشرين.

وطلبت منه أن يسكت لأنني كنت أريد أن أفكر. ثم هربت منه وذهبت أبحث عن رأسي. إن صديقي ليس قاتلاً. لا. أنا

أحتاج إلى كلمة أخرى. كلمة مثل مستهلك. أجل، كلمة مثل مستهلك تفي بالغرض.

فالمرء لا يقتل حيواناته.. ولكنه يستهلكها.

مثل عود الثقاب، مثل وقود العربات والأحذية القديمة ومناديل الورق والعاهرة الصغيرة التي تجدها غالباً على الرصيف المقابل للهوتيل. المرء لا يقتل عاهرته الصغيرة ولكنه يستهلكها مقابل سبعين دراخما، وأحياناً اثنين وسبعين:

هل أحضرت لي شيئاً معك؟

حفنة من الرمل، من تراب ليبيا.

ـ بديع. وماذا أيضاً.

حفنة من الرمل المبلول بالبترول. شمي. إنه يعبق شذى.

وتحتضن يديها في يديك، وتتدحرج معها إلى «نادي سافوي» وتعطيها كل ما تملكه من الرمل.

«سافوي» كانت امرأة فظيعة السمعة في أثينا، وكانوا يدعونها أحياناً «سافو» فقط، أما الآن فهي مجرد حانة من الخشب. وعاهرتك الصغيرة عروس من الخشب، وأنت تحشو جيوبك بأعواد الثقاب والرمل وتنتظر دورك في دخول المدفأة.

اعطني يديك.

واقتربي هنا أكثر، ودعينا نشتعل في هذا الركن البارد ونحلم بالريح. اقتربي دعيني أحلب لبك حتى أجد شيئاً آخر. ثم ترفع عينيك وتكتشف أن الحانة مليئة بأصدقائك وتحس بالخجل لأنك لم تتعود أن تتصرف أمامهم هكذا في بنغازي. ولكنك تجد شيئاً آخر.

ويحدقون في وجهك، أعني أحدهم على الأقل سيحدق في وجهك ويجعلك تتمنى أن تغوص في الأرض ثم يبتسم ويهزّ لك رأسه مؤملاً أن يشعرك بحقارتك، وتضحك أنت مرتبكاً وتحاول أن تبرر موقفك المدهش. ولكنك لا تتذكر أن صديقك أيضاً قد جاء للشراء.

صديقك مجرد مستهلك.

وهو يعرف ذلك، ويعرفه شرطة الجوازات والحمالون في أثينا، وتعرفه «ماريا نيقولاي سازالوخ» التي يأتي لقرصها كل ليلة ويتسلق فوق ظهرها مثل سنجاب حسن البنية متخلياً عن وقاره ومعطفه ونظرته الحكيمة التي تعودت أنت أن تراها في بنغازي.

صديقك، وأنت مستهلكان.

وتاجر الخنازير كذلك، والعالم لفافة تبغ تحرق عين الريح، ولا مفر من إشعالها بعودين من الثقاب، إذا كان عود واحد لا يكفي.

أما الباقي.

أعني «ماريا نيقولاي سازالوخ» والخنازير والأحذية القديمة ومناديل الورق فتضيع غالباً في الزحام دون أن تلفت انتباه أحد من المستهلكين. ثم تسارع البلدية إلى جمعها في عربات القمامة وتدلقها في ضاحية المدينة مع جثث الفئران التي وقعت في مصائد الليلة السابقة.

البلدية هيئة لغسل العالم.

ونقل جثث الفئران. وعمليات الشراء ظاهرة لا بد منها ما دام الخياطون قد ابتكروا الجيوب، ولكن المرء لا بد أن يتذكر أن

الناس عندما يقيمون تمثالاً لأحد أبطالهم لا يصنعون له بدلة عند الخياط.

معذرة. هذه خدعة من جانبي.

ولكن لنكولن يلبس بدلة من المرمر، وسعد زغلول بدلة من النحاس، أما غاندي فما يزال يقف عارياً كما عاش، وما يزال يحمل مغزله القديم ويحتضن عنزته، أعني ما يزال يملك كل ما كان لديه.

فكيف حمل غاندي الدنيا إلى الآخرة؟

ولماذا تقول العجائز إن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك، فقد رأيته بنفسي، ولمست ضرع عنزته وامتلأت يداي بالحليب.

افتحوا نافذتي.

هذا وجه المهاتما. وهذا لون الحليب.

1967

17

ملعقة الملح

وذهبت إلى القطب رغم حظر التجول.

حرمني الضوء الدائم من النوم، وطاردني المطر فوق بغلته حتى كدت أنبت في الأرض وعندما لجأت آخر الليل إلى إحدى حانات الصيادين المقامة على الطريق العام، رفع صاحب الحانة رأسه من مخبئه وتأملني بذعر ثم رسم إشارة الصليب فوق صدره.

وقلت له فيما كنت أزحف داخل المدفأة: أريد دورقاً من القهوة وكل ما لديك من الخبز الجاف، وأريد تبغاً وصحف الأسبوع الماضي إذا كانت قد وصلت. ولا تحاول إخراجي من هنا حتى لا أضطر لقتالك.

وأومأ برأسه دون أن يقول شيئاً.

وتقدمت زوجته فوضعت مزيداً من أعواد الخشب في المدفأة، وعلقت معطفي فوق طوب المدخنة الحجرية ثم طفقت تجفف تبغي على النار في علبة سردين.

وفيما انتشرت رائحة التبغ والصحف المحترقة، وارتفع الدخان المعطر من كل جانب، سمعت صوت امرأة تصرخ في التلال الرمادية كان المطر يمزقها بأظافره، وكان جسدها الفاتن مليئاً بالثقوب والدم. وانحنيت عبر حاجز المدفأة ورأيت البعوض ينهش جراحها بإبره الحادة ثم رأيت المطر يجرها إلى كهفه المائي في التلال. ومددت لها يدي فيما قال صاحب الحانة: أنت مريض إنك مصاب بنوبة حادة من الحمى.

لا. أنا لست مصاباً بشيء.

بالحمى أنت مصاب بالحمى وستموت الآن.

وقلت له: دعني وشأني. أنا لا أستطيع أن أموت. إن الموت في الغربة خرق لقوانين مصلحة الجوازات.

ثم حلمت بالتلال الرمادية مرة أخرى. ورأيت أحد الفقهاء يدعوني للمبارزة كان يحمل رمحاً طويلاً أسود. وكان حصانه المتوحش ينزف دماً من عينيه النحاسيتين.

وقلت له: هذا حصان من جهنم. لقد كتبوا عليه: صنع في الجحيم.

أجل.

إنه أسوأ حصان رأيته في حوزة أحد الفقهاء.

فقال الفقي غاضباً: هذا ليس حصاناً على الإطلاق إنه نعجة العيد الماضي. انظر إلى ذيلها.

وانحنيت عبر حاجز المدفأة فيما قال صاحب الحانة: أنت مصاب إصابة بالغة. إنك ستموت هذه الليلة. إن لدي أمراً بقتلك.

وهل ستقتلني بهذا الرمح؟

أجل بهذا الرمح.

وتعود إلى الجحيم فوق نعجتك.

أجل. أنا لا أستطيع أن أتغيب أكثر من ذلك. وقد ظللت أبحث عنك عاماً كاملاً ثم قررت أن أنتظرك في القطب دعني أفرغ منك الآن.

وفتحت له قميصي لكي أريه موضع القلب، فيما قالت السيدة بجوار المدفأة: لقد جففت تبغك المبلول. ماذا حدث لقلبك؟

إنه يريد أن يقتلني.

من؟

ذلك الفقي. إن لديه أسوأ حصان رأيته في حوزة أحد الفقهاء.

ووضعت يدها فوق كتفي وقالت مواسية: لا تخف منه إنه مجرد حلم.

كان الفقي يذرع عينيها فوق نعجته الفظيعة. وكانت السموات العميقة تلوح بلا انقطاع في خرزتي الفيروز.

وقلت له متوسلاً: انتظر حتى أعود معك إلى بنغازي. أنا لا أريد أن أموت هنا. أعني أنا لا أريد أن أموت على الإطلاق. فلدي أشياء كثيرة أريد أن أنجزها، وأريد أن أواصل المشي وأربط الأعوام بخيط وأجرّها ورائي مثل قطيع من الثيران العظيمة.

وبكى صاحب الحانة ورسم إشارة الصليب فوق صدره.

وقال الفقي مؤكداً: لا إن لدي أمراً بقتلك الآن، وسوف

أحملك بنفسي إلى بنغازي وأتركك تمر على الصراط في منطقة الصابري فإذا لم يأكلك أحد البغال ولم يسرق الأطفال جثتك تصل إلى الجنة.

وفتحت له قميصي لكي أريه موضع القلب.

ثم تذكرت منطقة الصابري واجتاحني إحساس بشع بالرعب أنا لا أملك فرصة واحدة. إن الأطفال سيسرقون جثتي بطريقة ما، فليس ثمة شيء واحد لا يستطيع الأطفال في الصابري أن يفعلوه. وسرقة الجثث مجرد لعبة هينة بالنسبة لهم. أنا أعرف ذلك، وقد فعلته بنفسي وسرقت ذات مرة جثة عجوز مليئة بالوشم، وكانت ما تزال حية. ولكن الدود كان قد نخر ظهرها في البيت وقد اضطررت لإغراقها في مستنقعات الملح.

وقال الفقي مهدداً: هذا كان في الماضي. إننا الآن في عصر الاستقلال. والموتى؟ هل الموتى في عصر الاستقلال أيضاً؟

أجل. إنهم ينعمون بالموت ولا يشكون على الإطلاق.

وفتحت له قميصي لكي أريه موضع القلب، ووضع صاحب الحانة ملعقة الدواء في فمي وقال لزوجته: إنه مصاب إصابة بالغة. وأعتقد أن العاصفة فاجأته في التلال. انظري إنه يقارب نهايته. وانحنت السيدة عبر خيوط المطر. ورأيت عينيها مثل قنديلين أزرقين في عتمة العاصفة وقلت لها محاولاً أن أرفع صوتي فوق صوت الريح هل فاجأتك العاصفة مثلي. تعالي دعيني أساعدك على الخروج من هنا.

ومدّت لي يدها.

ورأيت المطر يحفر جلدها بالثقوب، وغرست قدمي في التراب وطفقت أجرها صاعداً التلة الضبابية الموغلة في العراء.

وعند القمة انفلتت من يدي فجأة وهوت متدحرجة مثل كرة من الريش الأبيض متجهة إلى قاع الوادي ثم سمعت صوت انكسار القنديلين الأزرقين على الصخور، وعمّت الظلمة بعد ذلك وسقط العرق في عيني، فيما قال صاحب الحانة: إنه يبكي. انظري! أليس مدهشاً، كأنه فقد شيئاً ما.

وقال الفقي لهما: إنه لم يفقد شيئاً ولكنه يبكي خوفاً من النار.

ولم يسمعاه، ولم يرياه قط، فالتفت إلي وقال بسخرية: قل لهذين الخنزيرين إنك تخاف من النار.

وأطلعت له لساني. أنا لست خائفاً من النار. إني أخاف عبور منطقة الصابري هذا كل ما في الأمر. وأخاف الأطفال والبغال أما النار فهي قدر مكتوب على جبين الشيطان والفراشات فقط.

وارتد الفقي بنعجته إلى أقصى الركن ثم انطلق يركض في اتجاهي واضعاً رمحه بين أذنيه. وسقطت ملعقة الدواء في حلقي مثل حفنة من الملح ثم نهض الزقاق الملتوي أمام عيني ورأيت الفقي يقتعد النطع ويصطاد الذباب. وفيما كنت أعرض عليه سورة الإسراء، أمطرت السماء فجأة، وارتفع صراخ الأطفال من كل جانب، واستند الفقي بظهره إلى الحائط وركلني فوق أنفي.

ها قد وصلت إلى الجحيم.

1967

18

حيث كان قابيل

عندما يموت أحد ما في بنغازي، تكتب امرأته نعيه في الصحف وتقول إنه انتقل إلى جوار اللّه، ثم تدخل «الرباط» وتنعزل عن العالم مبدية منتهى اليأس، فيما يحمله أصدقاؤه فوق أكتافهم ويخترقون به دكاكين حميد مخوضين في مستنقعات الملح إلى المقبرة القائمة وراء أفران الجير، ويتقدم خفير المقبرة ليحجز له رقماً مسلسلاً ويرسله إلى الجنة على ظهور النمل..

الطريق إلى الجنة يخترق دكاكين حميد!

ويزدحم بعربات الكارو وأكياس التبن، وتتلاعب فيه البغال الهرمة مثل صغار القطط، ويعبره الموتى الذاهبون إلى جوار اللّه بأحسن النوايا محاطين بالمهابة ورائحة البول المتيبس في ضوء الشمس.

وعندما تمر الجنازة، يطفئ عامل المقهى مذياعه على الفور.

ويقف الرواد بخشوع، ويكف الأطفال عن مطاردة الزنجي الأحدب وتطل العجائز من الكوى فيما يسد الميت أنفه تحت

الكفن لكي لا تصله رائحة الأحياء، ويقرأ الفقهاء في المقدمة «لا إله إلا اللّه».

* الطريق إلى الجنة سيئ الرائحة..

وأفران الجير الكئيبة، والمستنقع والجراح لا تبشر بالخير، ولكن الميت كرامته دفنه في حفرة أحد الثعالب، وقد فعلت بنغازي ذلك مليون عام كامل منذ أن تعلم هابيل كيف يضع جسد أخيه في حفرة الغراب إلى أن صار الغراب خفيراً في المقبرة..

* في اليوم الأول يصل النمل.

* وفي اليوم الثاني يصل باقي الرواد، وتعد مائدة العشاء على الفور وتترنح أعواد الصبار ويسعل الخفير عند المدخل فيما تشق إحدى الخنافس طريقها إلى عين الميت المغلقة وتجرها عبر القبر إلى صغارها المنتظرين في عتمة الركن.. وفي اللحظة التالية يفتح الميت عينه الأخرى ويستعد للذهاب إلى الجنة..

ثم يصل أول ثعبان..

ويراه خفير المقبرة ينزلق بتهور دائراً حول القبر ثم يرى إلى جلده الأخضر يلمع في ضوء النجوم وراء الشاهد مباشرة، ويدق قلب الخفير بخشوع وتدمع عيناه في حضرة المرابط ويغرق في التأملات. فيما يشق المرابط طريقه عبر الجمجمة لينعم وحده بأكل المخ..

ومرة أخرى يفتح الميت عينه الباقية..

ويحس بثقل ذلك الوحش داخل رأسه ثم يسمع إلى صوت أسنانه التي يسلطها في مخه مثل المنشار، ويتذكر على الفور أن الميت كرامته دفنه..

* ويشبع الثعبان..

ويبحث عن مكان للنوم في جوار اللّه، ثم تشرق الشمس، ويتبادل الخفراء نوبة الحراسة.. ويوقدون ناراً صغيرة وراء باب المدخل لإعداد إفطارهم، وينهض الأحياء في بنغازي ويحضرون ميتاً آخر..

* ويشبع الثعبان..

وتتلاعب الأبراص فوق ضلوع الموتى والخفراء، وتترنح أعواد الصبار عندما تنهض أول دودة من جوف التراب عبر عملية خلق معجزة.. فالدود لا يفقس من البيض ولا يحتاج إلى أم تلده ولا قابلة.. إن بنغازي تصنعه من لا شيء وتطعمه أمعاء سكانها بالمجان..

ثم يتضاعف عدد الدود بعد الإفطار..

وتزحف ملايين الأفواه الضئيلة الخالية من الأسنان لكي تلعق نصيبها في صبر لا نهاية له، فهي لا تملك شيئاً تقطع به اللحم سوى ألسنتها اللزجة التي تسلطها في أي مكان وتظل تحكها فوقه حتى تذيبه إلى سائل أخضر اللون تمتصه على الفور شهوراً طويلة بلا ملل..

ويفتح الميت عينه الباقية.. ويرى الدود يأكل لسانه، ويحس بلمساته اللزجة في حلقه مباشرة.. ويتمنى لو يستطيع أن يقيء، ولكن الموتى لا يستطيعون شيئاً..

* ويشبع الثعبان..

ويتبادل الخفراء نوبة الحراسة، ويصل الموظفون إلى مكاتبهم ويقرأون في الصحف أن أحد أصدقائهم قد انتقل إلى جوار اللّه،

فيتحدثون عنه في مقهى المصلحة خلال الإفطار ويقولون «لا حول اللّه» ثم يحملونه إلى الثعبان مخوضين في مستشفيات الملح محاذرين أن تبتل أحذيتهم ببول البغال.

* «لا حول اللّه»!

الأحياء يطعمون موتاهم للدود بالمجان، ويزينون قبورهم بنباتات الصبار المتعفنة، ويرثونهم في مقهى المصلحة خلال الإفطار.. وأمنا بنغازي تنهض شامخة في الأفق وتربي سكانها لكي تطعمهم للثعبان..

فلو عاد أحد الموتى..

واحد فقط يا أمنا بنغازي، وحدثك عما رأى في جوار اللّه لسقطت أحجارك من الرعب واحترق قلبك العجوز..

لو عاد أحد الموتى وحدثك عن الوحش الأخضر الذي ينام في جمجمته كل ليلة.. وعن صغار الأبراص المتضورة فوق رئتيه ولمسات الدود المنتظمة والنمل.. وعن ليالي المطر الطويلة التي قضاها طافياً تحت سقف القبر متهرئاً في قبضة الوحل.. لو عاد أحد الموتى يا أمنا بنغازي لهدمك بأظفاره حجراً بعد حجر فأنت أسوأ الأمهات على الإطلاق..

* أنت مدينة جاهلة لا تعرف عن جلال الموت سوى ما قاله الغراب والفقهاء المتضورون جوعاً تحت قبب المرابطين والجهل - يا أمنا بنغازي - مرض يصيب الموتى والأحياء على السواء.. ويصيب المدن أيضاً.

وقد كبر العالم كما ترين.

ووجد الناس حياة أفضل في كل مكان، ووجد الموتى موتاً

أفضل في جوار اللّه، وتكفل المهندسون بحماية الإنسان من الدود والمطر ونباتات الصبار، وظللت أنت مهندسك الغراب، وظلت مقابرك قبيحة موحشة كأن الموت وحده لا يكفي لكي يصيب الأحياء باليأس.

وقد كبر العالم كما ترين.

وتخلى الناس عن الخيام وبنوا عمارات من الإسمنت لكي ينعموا بالحماية والدفء، أما الموتى فما زالوا حيث كان قابيل، لأن أحداً لا يهتم بهم.. لأن الأحياء أكثر أنانية من أن ينفقوا نقودهم لحماية جثة خرساء..

إنهم ينعونها في الصحف.. أجل..

ويقولون «لا حول اللّه» في مقهى المصلحة، ويحملونها فوق أكتافهم عبر دكاكين حميد ويسلمونها للخفير، ذلك الرجل الذي تدمع عيناه مهابة عندما يرى ثعباناً أخضر اللون ويغرق في التأملات منطلقاً ألفي عام إلى الوراء حيث عبد الوثنيون الثعابين الخضراء باعتبارها آلهة الحكمة والسأم.

السأم يا أمنا بنغازي..

مشاعر العار المقززة التي تعتري المرء عندما يتذكر موتاك، ومهندسك الغراب..

السأم..

وكلمة محزنة أخرى: إن كرامة الميت دفنه وليس إطعامه للزواحف، والقبر مكان جليل مليء بالأسرار، وليس مما يشرف الإنسان أن يملأه بالوحل ما دام يملك فرصة أفضل..

أنا لا أدعوكم إلى تحنيط موتاكم..

ولكني أتمنى أن تعطوهم شبراً نظيفاً من أرض الله، وتكفوا عن زراعة نباتات الصبار فوق رؤوسهم.. فالموت ليس موحشاً إلى هذا الحد «يا أيها الأحياء المذعورون..»

1967

19

هذا عالم أبيض

اكتمل فبراير.

وخوضت الشمس إلى ركبتيها في الجليد وانشغل الأطفال بجرّ جثث البجع وراء زحافاتهم على طول البحيرة المتجمدة، فيما تبعتهم العجائز يتحدثن بيأس عن شمس أغسطس الماضي، وإجازة عيد الميلاد في جزر الكناري والسموات الزجاجية الناصعة البياض.

هذا عالم أبيض.

هذا عالم مليء بالعجائز البيضاء، وأنا لا أجد ما أفعله سوى أن أجلس وراء النافذة وأشعل غليوني، وأتفرّج على الشمس، لأنني إذا خرجت إلى الشارع سوف أتجمّد مثل خنفساء من الخزف وسوف تتعلق إحدى العجائز بشعري وتسألني لماذا أحمل مكنسة فوق رأسي، فإذا قلت لها إن ذلك شعري، شدته مرة أخرى وقالت بضيق: هذه مكنسة.

وأحاول أن أجادلها ثم يعتريني السأم وأدعوها إلى العشاء في

أحد المطاعم.. وفي العادة تنتهي الحفلة بكارثة عندما تسكر العجوز وتصعد حلقة الرقص ثم تقول لي من آخر القاعة:

ضع مكنستك فوق المقعد.. وتعال هنا.

هذا عالم أبيض الرأس.

«وجد مكانه تحت الشمس» ثم صعد فوقها وانطلق يعدّ سفنه لرحلة أخرى أكثر إثارة. إن المرء يستطيع أن يرى ذلك رأي العين عندما يجلس وراء النافذة ويشعل غليونه ويحلم بالزنوج وسفن الفضاء.. ثم يحلم بعمق..

علبة سردين في داخلها ثعبان.

وجردل من البترول، وسجاير الغريان. هذه بلادي أنا، علبتي الوحيدة التي أكلها الصدأ وراء إحدى النوافذ، وأحرقت الشمس جلدها خلال ليالي أغسطس ووضعت فوق رأسها مكنسة من الذهب.

علبة سردين، وموظف بحّ صوته مطالباً بسكن، وعجوز تتكوّر في الركن وراء سبعة أبواب وتنتظر «أرنبو» المدهش لكي يحضر لها ربطة اللفت من حديقة الجيران.

«وأرنبو» ذهب إلى النادي الليلي..

وسكر حتى الصباح ثم استلم راتبه عن شهر يناير وذهب ليشتري ربطة اللفت من الموسكي.

«هل عندك لفت وبنات وهل عندك شقة مفروشة تليق بالمقام، وخادم أبعثه ليفك نقودي في حانوت عوضين الشهير بسبع الأنام؟

وهل عندك حشيش.

وبنت جائعة تليق بالمقام»؟

وتتنهد العجوز في الركن وراء سبعة أبواب، ويتجمع الأصدقاء في قريونس ويتسلل الشرطة وراءهم في عربة مطفأة الأضواء، ثم تبدأ الغارة ويعلن «أرنبو المدهش» رأيه بصراحة: أف.. يا بلاد الفقر!

هذه بلدي أنا.

هذه ـ يا أرنبو ـ بلدنا جميعاً، ولو أن اللّه لم يضع فوق رأسك مكنسة لعرفت بنفسك مدى ما فعله لكي يعطيك هذه الأميال الشاسعة من الأرض والسماء، ويعطيك جواز سفر مزيّن بخطوط الذهب..

لأنك يا أرنبو لم تفعل شيئاً.

فنحن ما نزال نعيش على صدقات الجيل الماضي وصدقات الرجال الذين ربطوا ركبهم بالحبال وثبتوا للدفاع عن أرضنا أمام جبل من البوارج الهائلة ثم انطلقوا يحملون قضيتنا إلى العالم في مسيرة حافلة بأيام الجوع واليأس العميقين.

وذهبنا نشتري اللفت من الموسكي، ونتسلل بزجاجاتنا على مطار قريونس المهجور ونتحدث في المقهى عن الحضارة وحقوق الإنسان وبقية النظريات المدهشة التي تصدقوا بها علينا في المدرسة.

كانت أمهاتنا يتكورن في الركن وراء سبعة أبواب. وكان عمالنا يجلسون في مقاعد الدراسة بدون مدرسين، وطرقنا محفورة، وعجائزنا يقرأون الزمياطي ويبكون من الخوف، وحقولنا جرداء مثل قطعة من القمر.

وكنا نحن يا أرنبو نكتب المقالات في الصحف ونطالب الجيل الماضي بأن يتم جميله ويعبّد لنا الطرق، ويعلّم العمال ويطرد اليهود من السوق ويمنح النادي علاوة الغلاء ويزرع الحقول ويطعم الثيران ويكفينا شر الأجانب ويتركنا ننال حاجتنا من النبيذ.

وقد فعل الجيل الماضي ذلك كله..

وسكرنا نحن حتى احترقت قلوبنا، وذهبنا إلى الموسكي وأثينا مهربين نقودنا في علبة السجاير، عارضين مكانسنا للبيع مقابل أي شيء يمكن قرصه، ثم عدنا إلى «بلد الفقر» وتبادلنا الذكريات بحزن مطلق، ومشينا مطرقي الرؤوس ممتلئين خيبة لأن الجيل الماضي ما يزال يطاردنا بعربة مطفأة الأضواء..

في ذلك الوقت..

كان عوضين يبني السد العالي، وكان نيقولاي اخيلاكس يصطاد أسماكك في قريونس ويشتري بثمنها مزيداً من المقاعد لسد حاجة مدارس العمال في أثينا، وناحوم الشقي يبني طريق حيفا ـ القدس بسواعد طلاب المدارس.. وكان الشبان الألمان يقومون بحملة واسعة النطاق لإعداد فريقهم لكأس العالم عبر حملة تبرعات تجاوزت خمسة ملايين من الماركات لم تدفع الدولة منها مليماً واحداً.. وطلبة موسكو يصدرون صحيفة يومية تقع في ست وخمسين صفحة.. وطلبة بكين يفتتحون 186 ألف نادٍ ثقافي لمناقشة أفضل الطرق لأكل العالم..

وأنت يا أرنبو وأنا نتنزه بالمكنسة..

ونتابع أخبار سفن الفضاء مثل أساطير صغيرة تحدث في مكان آخر غير هذه الأرض. ونصطاد إحدى العجائز من شارع

الفقر ونتسلل بها في الظلام محاولين إغراءها بالحب..

هذا عالم أبيض.

وأنا ـ يا أرنبو ـ لا أستطيع أن أعبره دون أن أتذكرك، وأتذكر حيلك الصغيرة لشراء ربطة اللفت من الموسكي.

1967

20

اردموا شارعنا

بعد مائة عام من الآن سيتقدم أحد المؤرخين متطوعاً ليكتب تاريخ هذا الجيل في ليبيا، وسوف تكونون أنتم إذ ذاك قد وصلتم إلى الجنة وشربتم حاجتكم من النبيذ وانطلقتم ـ كالعادة ـ تذرعون الشوارع بحثاً عن الحوريات. ولن يضايقكم بالطبع ما سيكتبه المؤرخ عنكم إلا إذا قررت الحوريات أن يقرأن ذلك الكتاب. عندئذٍ ـ أيها السادة ـ سوف تضطرون للاكتفاء بالنبيذ وحده، وسوف تموت الحوريات من الضحك..

أما أهل الأرض، أعني أبناءكم بعد مائة عام فسوف يجمعهم المؤرخ على الرصيف ويقول لهم واحداً بعد الآخر بالأرقام والحوادث كيف عاش هذا الجيل حياته:

* «أنت، والدك ـ يرحمه اللّه ـ مات ـ كما عاش ـ مطالباً بالعلاج.. وأنت والدك مات في مدريد عندما كان يعالج تسوس الأسنان، وقد حملته الدولة إلى هناك لأنه كان رجلاً فقيراً. وكان يكره والدتك العجوز، ويبحث عن العزاء في مدريد حتى

دهمه القطار. وأنت والدك مات مفتوح العينين ممتلئاً بالسخط على مصلحة الأشغال، وقد عاد شبحه مرتين لكي يطالب الوزير بعلاوة الغلاء. وأنت والدك ـ يرحمه اللّه ـ كان يغش في الميزان، وكان يحب أن يركل امرأته على رأسها وقد نهض من فراش الموت أمام دهشة الجميع وركلها لآخر مرة ثم مات مطمئناً. وأنت والدك كان أحسن الرجال. وكان يكره الشيوعية والاستعمار واليهود، وقد قضى حياته يشتمهم في المقهى حتى أحرق التبغ صدره وعينيه، وقد مات تحت أنقاض بيته بعد أن نقل الثور العالم فوق قرنه الآخر، وبكته زوجاته الأربع وحلقن شعرهن ودخلن الرباط.

* هذا الفصل المفجع سيقدمه المؤرخ بجانب فصل آخر يتحدث فيه عن سيدات هذا العصر، ومن المعتقد أن يبدأ الحديث بتمهيد شامل لنظرية الرجال في تفسير «وظيفة المرأة»، وهي خطوة لا بدّ منها لكي يموت أبناؤكم من الخجل: «والدتك الفاضلة ذهبت إلى جوار ربها في حمى النفاس لأن القابلة لم تغسل أظافرها من بقايا الطعام.. ووالدتك أنت ماتت بالروماتيزم في قعر بيتها الرطب دون أن تعرف أن اللّه خلق شيئاً اسمه الشمس، وقد فتحت عينيها عندما تعرضت للشعاع الدافئ في الطريق إلى المقبرة، ولكن والدك قرر أن يدفنها على أي حال.. ووالدتك أنت ـ يرحمها اللّه ـ وصل ثمنها إلى عشرين جنيهاً، وكانت آية في الجمال ولكنها ماتت بالمصران الزائد».

ثم ينتهي هذا الفصل بخاتمة صغيرة تشهد بأنكم كنتم جميعاً رجالاً شرفاء خالين من العقد الجنسية ممتلئين بالإيمان والرغبة في ستر نسائكم وتربية أطفالكم في الشارع وتحت السدة..

ويأتي الفصل الثاني ليتحدث عن وطنيتكم..

«والدك ـ يرحمه اللّه ـ كان يملك عشرين هكتاراً من أجود الأراضي، وقد نال سلفة من البنك وتزوج أربع نساء.. ووالدك أنت ـ يرحمه اللّه ـ كان يملك نصف العالم ولكنه كان يحتقر حرفة الزراعة ويحب الحرب والبنادق وسباق الخيل، وقد قتل معظم الفلاحين الذين تسللوا لكي يحرثوا في أرضه، ولم يستطع القاضي أن يصدر حكماً ضده لأنه مصاب بالصمم.. ووالدك أنت كان أعظم السائقين، وقد نال رخصة قيادة واشترى قافلة من سيارات النقل وذهب ليحرث الصحراء، ورغم أن الأمريكان طردوه كثيراً، وبصقوا فوق وجهه عندما سرق برميلين من الوقود، فإن والدك الفاضل لم يكف عن المشي بوقار فوق أرصفة المدينة مبدياً غاية الكبرياء معلناً ضيقه من الشحاذين.. أما والدك أنت فقد بنى عشر عمارات وملأها بالقمح والسكان ونعاج العيد ثم جلس يقرض الشعر على ناصية الشارع حتى دهمته إحدى السيارات».

التفاصيل لا بدّ منها..

ولكن المؤرخ ـ الذي سيتطوع لكتابة تاريخكم ـ مطالب بإجمالها في مقدمات عامة لكي يحدد موضوع الحديث بالضبط، لذا فإنه من المتوقع أن يتوقف عند «وطنيتكم» (ليستمطر شآبيب الرحمة) ويغسلكم من ذنوبكم ثم يحدث أبناءكم عن هولندا:

«أرض صغيرة في حجم أجدابيا كان الألمان قد دمروها في بداية الحرب ثم دمرها الحلفاء في نهايته، وقد تكلفت بإطعام آبائكم سنين طويلة متبرعة بإنقاذهم من الموت مقابل جرادل

البترول الخام وعملات الذهب.. وكان آباؤكم يغسلون أيديهم بصابون من باريس ويمسحونها في فوطة من روما ويأكلون بملعقة من اليابان، بعد أن يصلهم الطعام من هولندا على باخرة من اليونان. وكان آباؤكم يكرهون إسرائيل، ويشتمونها فوق الصحف طوال النهار».

هذا الفصل سيستغرق وقتاً طويلاً لإنجازه، فليس من المتوقع أن يمر المؤرخ بمشكلة إسرائيل دون أن يتعرض لدراسة آثارها عبر الإيديولوجية الليبية المعاصرة، ويحدّد كل ما فعله الكتّاب والشعراء والمخبرون الصحفيون في متابعة أخبار اليهود وكشف جميع حيلهم التجارية والسياسية بالخطوط الحمراء والفلاش.

والنقطة الحاسمة التي سينطلق المؤرخ حولها لكتابة تاريخ ليبيا المعاصرة هي اعتماد الشعب الليبي بأسره، أفراداً وجماعات، ذكوراً وإناثاً، رجالاً وأنصاف رجال، على خلية صغيرة في هذا المجتمع تعرف باسم «الدولة» فلم يحدث في تاريخ العالم، في أي عصر وفي أي مكان، أن أبدى أحد الشعوب هذا الاعتماد الكلي الشامل على جهود حكامه كما يفعل الشعب الليبي الآن... كل شيء لا بد أن تفعله الدولة.. كل شيء يخص الدولة وحدها.. أما الشعب فمهمته أن يصدر الأوامر في المقهى.. وفوق الصحف.

«اردموا شارعنا، وقولوا للبلدية أن تنقل التراب، واحموا تجّارنا من مزاحمة اليهود، وامنعوا معاكسة البنات، واعطوا النادي منحة تشجيع وانقلوا سيدي للعلاج في روما، واعطوه بيتاً ليسكنه، واقرضوه نقوداً لكي يتزوج ويذهب للحج، واغسلوا جلده عندما يتسخ، وازرعوا منطقة الجبل الأخضر واغلقوا دار السينما

واطردوا الأجانب من بلادنا، وصاحب النادي الليلي الذي لا يحب الليبيين.. وافعلوا كل ما تستطيعونه أو لا تفعلوا شيئاً على الإطلاق، فالأوامر لن تكف عن الصدور، والشعب لا يكف عن المطالبة بحقه».

هنا سيُطرق المؤرخ ويتصبب عرقاً من الخجل.

ويواري أبناؤكم وجوههم عن العالم.. فلم يحدث قط ـ ولن يحدث مرة أخرى ـ أن أساء أحد الشعوب فهم موقفه من الدولة كما فعل هذا الجيل ـ أو أصبح الجهل المدلل لعبة شعبية كما حدث في هذا العصر..

وبعد بضع سنوات أخرى سوف تتجمع الأرقام الوقورة والحوادث لكي تقرر أبعاد هذه الحقيقة.. وتقول لأبنائكم واحداً بعد الآخر كيف عاش جيل كامل من الناس ـ طوال حياته ـ مغمض العينين.

وسوف تكونون أنتم إذ ذاك في الجنة، متكئين على الأرائك كالعادة منتظرين أن يتكفل أحد ما بإطعامكم.. لأنكم ـ يرحمكم الله ـ لا تجيدون حرفة أخرى.

1967

21

الطريق.. والطريق

ـ اشرب.

ـ خلاص.

ـ اشرب. لا تدعني أشتمك. أنا أحضر لك أحسن ما في الحانة.

.. خلاص.

ـ وأغني على طاستك، وأطعمك نجمة بعد كل طاسة، أليست النجوم طيبة المذاق.

.. خلاص

ـ خلاص! وماذا أفعل بباقي الزجاجة هل أدلقها في الرمل؟

.. لا أدري. دعنا نعود إلى الحانة.

ـ لا تدري! والنجوم! هل أدلقها في الرمل أيضاً؟

.. ماذا دهاك؟ أي نجوم؟ دعنا نعود إلى الحانة ونبحث عن شيء نأكله، أنا أتضور جوعاً وسخطاً.

ـ ولم تنل كفايتك من النجوم.

.. ماذا دهاك؟ كيف أنال كفايتي منها؟ دعنا نعود الآن ونشتري علبة سردين.

ـ اتفو.

.. إنهم لا يملكون شيئاً غير السردين. ماذا تريدني أن أقول لك؟

ـ اتفو.

.. أجل. هذا أنت. إنك سيئ العشرة على الدوام، وكلما سكرت ازداد سلوكك بذاءة. لقد سمعت ذلك من كل الناس.

ـ من علب السردين؟

.. من الناس، مواطنيك الطيبين أنفسهم.

ـ ماذا قالوا لك؟

.. كل شيء.

ـ ماذا قالوا لك؟ إن المواطنين الطيبين لا يعرفون كل شيء.

.. قالوا إنك مدمن سيئ العشرة.

ـ وماذا أيضاً؟

.. وإنك تسكر مثل الخنزير وتطارد الأولاد وبائعات الفول وتضرب زوجتك كل ليلة وتهرب من الدائنين.

ـ كفى.

.. وقد حكم عليك بالسجن مرتين وخرجت بالواسطة لأن عمك طباخ في شرطة المرور. وإنك تفطر في رمضان.

ـ كفى.

.. وتنفق نقودك على العاهرات وتترك زوجتك مثل الشحاذة، وتشتري ملابسك من سوق التركة ثم تصبغها في معمل الأقمشة. وسوف تموت في حادث سيارة. إن مواطنيك يعرفون ذلك أيضاً.

ـ إنهم يعدون أسنان الكلب والنجوم.

.. ذلك ليس عاراً.

ـ يجعلون الكلب ينبح ويتسلون بعدّ أسنانه.

.. ذلك ليس عاراً.

ـ ويقيدون الأحوال والحمير ويبيعون مظلات المطر للسمك. إن بنغازي أمهم جميعاً.

.. وأمنا أيضاً.

ـ وهي تلدهم على الناصية لكي لا يفوتهم ما يحدث في الشارع المقابل ثم ينبتون هناك مثل فطر الغراب والتماثيل. إن بنغازي تملك تمثالاً عند كل ناصية.

.. ها أنت بدأت تتداعى.

ـ فإذا ولد أحد الأطفال دعاه زملاؤه إلى الشارع قبل أن يتعلم المشي... إنهم يعيرونه بالبقاء في البيت ويقولون له: «حارنين عالقنان».

.. ها أنت بدأت تتداعى.

ـ والأطفال يتجنبون هذه الفضيحة بقدر جهدهم حتى أن أحدهم بلغ من تعجله أنه خرج قبل أن يكتمل، ودعته أمه نص انصيص.

.. كفى. دعنا نعود إلى الحانة.

ـ وقد انطلق ذلك الطفل إلى الشارع فوراً لكي يشتري لوالدته رطلاً من السكر مقابل بيضة. وقد بلغ من تعجله أنه عثر عند العتبة وكسر البيضة قطعتين.

.. أنت تسكر مثل الخنزير.

ـ وكما قال المواطنون في بنغازي، خرج من البيضة شوشاو، وانطلق يركض مزهواً مثل أحسن العدائين وانطلق الطفل وراءه حتى أمسك به عند الفندق.

.. كفى.

ـ وقد غضب الغلام إذ ذاك وقرر أن يعاقب الكتكوت المدهش فاشترى كروسة وشدها فوق أكتافه وطفق يستعمله في الحمالة. هل سمعت عن حمار يفقس من البيضة.

.. كفى.

ـ ولكن الكتكوت المدهش لم يحسن السلوك واضطر الغلام إلى أن ينخس ظهره بنواة.

.. هل قال المواطنون ذلك؟

ـ أجل. وقالوا إن الدم اختلط بالنواة، ونبتت فوق ظهر الكتكوت نخلة.

.. كفى.

ـ اسمع باقي ما حدث لقد تسلق الغلام النخلة ولقي طريقاً ومشى.

.. قلت لك كفى، لماذا تدعوني إلى الصياح؟

ـ أنا لا أدعوك لشيء. اشرب. أليس الغلام النصف مدهشاً؟

ـ أجل. ولكني لا أستطيع أن أسمع قصته، أنت تعرف أن

ذلك يضايقني. دعنا نعود إلى الحانة ونشتري شيئاً نأكله.

ـ والغلام! هل نتركه فوق النخلة؟

.. أي غلام؟

ـ هل نسيت. لقد قلت لك إنه تسلق النخلة ولقي طريقاً ومشى.

.. خلاص. دعه يمشي.

ـ ولكنه نسي حذاءه أمام الفندق.

.. اتفو. دعه ينساه.. ماذا تريدني أن أفعل، أنا أتضور جوعاً ولا أملك وقتاً أضيعه في ملاحقة تلك الأكاذيب الخرقاء.

ـ ولكن غلام المواطنين لا بد من إنزاله.

.. أنا سأمضي الآن.

ـ أو يحمل له المواطنون حذاءه فوق النخلة.

.. أنا سأمضي الآن. وسوف أحضر لك ما أجده.

ـ من المواطنين؟

.. من علب السردين، ماذا دهاك؟

ـ اتفو. انتظر. أين أنت.؟ إنني لست في حاجة إلى تلك العلب الفارغة. فالمواطنون لا يضعون شيئاً بداخلها.. إنهم يقفلونها فارغة.. هل تسمعني؟ إن اللعبة كلها تعتمد على المفاجأة كأن تبيع القرد وتتزوج مشتريه.. أو تجلس عند الشاطئ وتبيع الريح بالدين دون أن تدفع رسوم الرخصة.. اللعبة كلها مجرد مهارة يكتسبها المواطنون على الناصية، ويجعلونك تعد النجوم ويغالطونك في الحساب، ملفتين انتباهك إلى النجمات الساقطة، قائلين بصوت عالٍ: «لا إله إلا اللّه. هذا واحد مات».

وتبدأ أنت العد من جديد، ويضحك المواطنون على الناصية. فاللعبة كلها تعتمد على اختيار اللحظة المناسبة لكي تجعل إحدى السمكات تشعر أنها في حاجة إلى مظلة واقية من المطر.

واللّه في السماء حبس المطر.

وأسماك السردين.

1967

22

الساعة التاسعة من أي يوم

من أي شهر.. من أي موسم.

الساعة التاسعة: أنت ذهبت للعمل وغلى ماء الشاي على النار، وزحف طفل عبر فناء البيت إلى البالوعة وطفق يولج اصبعه في الثقب ليتعرف على طعم العالم السفلي.

البالوعة ـ كما قالت زوجتك الفاضلة ـ مكان غريب مليء بالوحل وبقايا الأظافر وملوك الجن البلهاء الذين لا يكفون عن التسلل عبر الحدود بحثاً عن المتاعب مع سكان ليبيا.

وطفلك في خطر.. إنه ـ مثل بقية أطفال ليبيا ـ معرض لأن يضع اصبعه في عين أحد الرجال ويرتكب أولى جرائمه قبل أن ينهي العام الأول من عمره المثير.

فهل نسيت أن تزوده بحجاب؟

الساعة التاسعة بعد خمسة أعوام: انتهت مرحلة البالوعة دون

إصابات.. وغلى ماء الشاي على النار، وخرج طفلك إلى الشارع لكي يتعلم حراسة المرمى.

وقبل أن تنتهي المباراة الأولى يتشاجر مع الحكم ويعضه في ظهره مستشعراً إغراء مثيراً بإذلال القانون، ثم يتدخل الجمهور ويتبرع أحدهم بإعطاء طفلك أول درس عملي في مراعاة قواعد الشارع وفيما يعود صارخاً إلى البيت تطل زوجتك الفاضلة برأسها عبر الباب لتشتم والدة المعلم متناسية تماماً أنك سوف تعود من العمل وتكسر ذلك الرأس الذي أطل من الباب بدون إذن.

والمرحلة القادمة تقطعها زوجتك ـ مثل بقية النساء الليبيات ـ بدون رأس.

الساعة التاسعة بعد عشرة أعوام: ذهب الطفل إلى المدرسة ذهب كيس التجارب العامر بالكدمات والخدوش لكي يسمع من معلمه الأبله أن الحمار حيوان أليف.

ويضحك من قلبه، ويتذكر جميع الحمير التي وضع في آذانها أعقاب سجائره لكي يجعلها حيوانات متوحشة ويتذكر سرقاته من الدجاج ومقلاعه الرهيب وبائع الفول الذي فقأ عينيه معاً، ثم يعتريه الملل من ذكرياته ويخرج مقلاعه في غرفة الدراسة لكي يقول لمعلمه إنه يحتاج إلى معلومات أكثر إثارة لكي ينسى ذكرياته فإذا فشل المعلم في فهم تلك الرسالة المؤلمة فإن طفلك في الغالب يعود للبحث عن المعلومات الجديدة بنفسه في الشارع.

ويعتريك أنت الغضب.

وتدق ضلوعه بعصاتك، وتقول له إنه ولد ضائع، دون أن

تعرف أن لقب ضائع، منحة حقيقية تملأ قلوب الأطفال بالفخر. وأن معظم أطفال ليبيا الأذكياء هربوا من المدارس المملّة بحثاً عن ذلك اللقب.

هربوا من الحمار الأليف.. ممتلئين بالذعر.

الساعة العاشرة بعد عشرين عاماً: ماء الشاي ما يزال يغلي فوق النار وأنت توسط لك الوزير ونلت الدرجة الخامسة وطفلك أصبح رجلاً رغم أنفك، ولكنه رجل من الخارج فقط.

فالمدرسة لم تعطه شيئاً سوى فضيلة الغرور التي يكتسبها المرء من جمع شهادات النجاح في نهاية كل عام. تلك الأوراق نصف المزورة التي لا تكف عن الادلاء بشهادتها بأن الطالب المذكور أعلاه يعرف كل شيء تقريباً. يعرف حساب الزمن والكيمياء وتاريخ القاضي الفاضل السري وفضائح السلطان وعيد ميلاد المتنبي وبحور الشعر العميقة وآخر النكات.

وطفلك الهائل الحجم يصدق ذلك كله.

ويقضي أوقات فراغه في استعراض مشاكل العالم مع أصدقائه، محاولين معاً ـ بإخلاص يثير الشفقة ـ أن ينقذوا الاتحاد السوفياتي من أزماته الاقتصادية، وينقذوا أمريكا من مشكلة فيتنام.. وينسفوا إسرائيل خلال الليل ويشرحوا مقررات مؤتمر الخرطوم ويكتشفوا على وجه الضبط مكان النقود التي سرقها الوزير المعزول.

وفيما تعلن أنت على رصيف المقهى أن المدعو موشي ديان رجل واسع الحيلة لا يمكن قهره إلا بالصبر يعلن طفلك الهائل الحجم لأصدقائه أن فرقة واحدة من الفدائيين الجزائريين الأشداء كفيلة بإلقاء موشي ديان في البحر على عود من الحطب.

ويتشاجر معك أصدقاؤك في المقهى.

ويتشاجر معه أصدقاؤه على ناصية الزقاق.. وترتفع الأصوات الحادة وتعودان أنتما متعبين إلى البيت، وتأكلان وجبة الحساء من صحن واحد ولكن أيديكما لا تلتقي أبداً فأنت تعتبره مجرد ولد عديم الخبرة مليء بالأسرار الفاسقة يستطيع أن يسبب لك كثيراً من المتاعب، وهو يأكل حساءك ويرثي لك في قلبه ويعتبرك مجرد قنطرة عجوز قام الله ببنائها لكي يعبرها إلى الدنيا.

وفيما تشرع القنطرة الأخرى في إعداد الشاي يلوذ طفلك الهائل الحجم بغرفته الخاصة ويكسر رأسه بمحاولة البحث عن طريقه في الزحام.

إنه يقف وحيداً فلا شيء يربطه بك أو بزوجتك الفاضلة التي يدعوها أمه. لا شيء على الإطلاق سوى طبق الحساء وعلبة سجائرك..

فأنت رجل من الجيل الماضي.

وطفلك الهائل الحجم رجل من الجيل التالي. وذلك يعني في ليبيا أنكما عالمان مختلفان مشحونان بالتناقض والعداء والمواجهة والاختلاف إلى حد الاختناق.. وأنكما لا تعرفان ذلك.

فشهادة المدرسة التي تقول إن الطالب المذكور أعلاه يعرف كل شيء تقريباً، تنسى على الدوام أن معظم الأشياء يتعلمها المرء من والده. وأن الأب الليبي الحقيقي يهتم بتربية شواربه الليبية أكثر مما يهتم بتربية أطفاله وأن منتهى العار في ليبيا أن يفقد الولد حياءه إلى حد أن يجلس مع والده في غرفة واحدة.

المدرسة لا تعرف عاداتنا.

ولا تعرف أن اللّه يخلق الليبيين مثل ثمار جوز الهند.. داخل قواقع.

الساعة التاسعة بعد خمسة وعشرين عاماً: أصاب الحب قلب القوقعة رمته جارته المعلمة بنظرة مميتة فيما كانت تعبر الطريق إلى المدرسة، وأضاء العالم الصغير بعرض السموات.

ولكن طفلك الهائل الحجم لن ينقل لك هذا الخبر حتى لا تموت من الضحك. ولن ينقله لأصدقائه أيضاً..

إنه يطويه في قلبه، ويعرفه بالأشعار والعادة السرية واضعاً نصب عينيه فضيلتنا القديمة التي تقول إن الحب فضيحة تشبه الدعارة، وإن الرجل الليبي لا يحب أحداً.

طفلك يعرف أن الرجل الليبي يستطيع أن يحب حصانه ويمتطيه لقطع أعناق الكفّار ويحب سيفه البتار، والمشي في العيد بكاطه الجديد، والغناء في الأعراس.. وإغراء زوجة الجار ويعرف أنه لا يستطيع أن يحب المعلمة حتى يسخطها اللّه حصاناً.

الساعة التاسعة بعد أربعين عاماً: ما يزال ماء الشاي يغلي على النار، وطفلك الأبيض الشعر وجد حصاناً وتزوجه. وأنت ذهبت للقاء اللّه منذ عشر سنوات ولكنك لم تصل إليه بعد. فالحساب طويل ومعقد، والملائكة غارقون في مراجعة سجلاتك المثيرة، والدار الآخرة تعج بالنشاط مثل خلية النحل، فالمرء لا يستقبل ليبياً ميتاً دون أن يغرق في المتاعب.

1967

23

قطع الغيار

(الجهل أسوأ من الأمية وأكثر مدعاة للعار والألم)

عندما يرتفع صوت ما في بلدنا ـ أو في أي بلد متخلف آخر ـ مطالباً (بشن حملة شعواء ضد الأمية) فإنه يصدر دون دراية أو معرفة. هذه معادلة تبدو مريبة من الخارج، ولكن متابعتها عن كثب تثبت فوراً أنها صحيحة إلى حدٍ كافٍ. فالافتراض السائد بأن الأمية هي (عدم المعرفة نتيجة العجز عن القراءة) افتراض لا يتورط في قبوله سوى رجل شبه أمّي، أو على الأقل شبه أمّي دون أن يدري، لأن (عدم المعرفة) من جهة كلمة أسطورية لا تعني شيئاً على الإطلاق، ولأن (القراءة) من جهة أخرى لا علاقة لها بالمعرفة.

وأنت عندما تقول إن جارك مواطن (أمّي) لا تعني في الواقع أن دماغه لا يختزن أية معارف من أي نوع وأن سلوكه الخاص يصدر من لا مكان، بل تعني بالتأكيد أن معارفه قديمة وغير صحيحة ومضحكة أيضاً بالنسبة لمعارف العصر لأنه استقاها

بالسماع وأنت تعتقد أن ذلك يضعه تحت خانة (الأميين) ولكنك تنسى أن جارك لم يكن في وسعه أن (يسمع) معارفه المضحكة لولا أن أحداً ما قد قرأها أمامه وأن ذلك (القارئ) أيضاً يختزن نفس المعرفة.

فالمشكلة لا تخص (القدرة على القراءة أو عدم القراءة)، بل تخص (نوع المعرفة المطلوبة) ونحن نرتكب خطأ لا يمكن غفرانه عندما نفرق بين الأمية وبين القدرة على القراءة باعتبار الشكل الخارجي وحده. فالواقع أن الفرق طفيف للغاية داخل ذلك النطاق، والمرء لا يستطيع أن ينفذ من فخ الأمية بمجرد أن يمتلك وسيلة المعرفة التي تدعى عندنا بالقراءة. إنه يصبح فقط (أميّاً مقنعاً)، وإذ ذاك يصير مرضاً اجتماعياً أشد خطورة من سواه، لأن إلمامه بالقراءة يجعله يتصور أنه خرج من منطقة الخطر ودخل في عداد العارفين ثم يجعله يتصور أنه بات يملك الحق في (النقاش وإيجاد الحلول) أيضاً، وعندما يبدأ في ارتكاب هذا الخطأ يضع نفسه ومجتمعه وجميع أجياله القادمة تحت رحمة الجهل المقنع المقام على قاعدة النرجسية وحدها، ويصير اسم المشكلة (الأمية العلمية) بدل الأمية فقط.

وأنا أقول هنا إن ذلك بالضبط هو مرض مجتمعنا في ليبيا، فمشكلتنا في الواقع لا تخص عدد العاجزين عن القراءة والكتابة بقدر ما تخص (نوع) المعارف التي نتناقلها سواء بالقراءة أو بالسماع عبر جميع مصادرنا الفكرية في بلدنا الصغير، تلك الحزمة المعقدة من الأخطاء والثقافات القديمة المفجعة القبح والأوهام الموروثة من أكثر عصور العالم إيغالاً في الموت التي تنشب أصابعها في أعماقنا بشراسة تدعو إلى الدهشة.

ويكفي أن أقول لكم هنا إن (العلماء الليبيين) ـ وهم بالطبع أكبر مصادر المعرفة عندنا ـ ما يزالون يعتنقون حتى الآن فكرة القرون الوسطى عن الإنسان الذي خلقه اللّه بمثابة دمية طينية ثم نفخ فيه الروح وأنزله من السماء مقابل تفاحة، لكي تتضح معالم الكارثة الفكرية التي يعيشها المواطن الليبي عبر (معارفه) سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

(فالأمية العلمية) التي تأخذ بخناق مجتمعنا في ليبيا ليست ذات علاقة حقيقية بنسبة (العاجزين عن القراءة) ولكنها ذات علاقة مباشرة ـ ووطيدة للغاية ـ بنسبة (العلم المغلوط) في معارفنا الكلية. وإذا كان ثمة من يعتقد أن نشر التعليم يستطيع أن يحلّ هذه المشكلة المعقدة ـ بغض النظر عن نوع الفكر نفسه ـ فإنها بكلمة واحدة مغالطة علمية.

إن المشكلة لا يمكن حلّها إلا من الداخل.

وذلك يبدأ بأن نرفض أولاً البديهية المضحكة القائلة بأن (الأمية هي العجز عن القراءة) لأن ذلك يفتح الباب أمام قطيع غير محدود من (الأميين القارئين) لكي ينصّبوا أنفسهم قادة مجّانيين لمسيرتنا الفكرية، ولأنه أيضاً تشخيص خاطئ للمرض الذي نعاني منه في بلدنا بالذات، وفي جميع البلدان المتخلفة بوجه عام.

إن العجز عن القراءة نوع واحد من أنواع الأمية فقط. وهو أيضاً الشكل الخارجي لها الذي يستطيع المرء أن يلمسه بأصابعه، ولكن ذلك لا يعني بأي حال أن (الأمية) تبدو دائماً في هذا الشكل الواضح بالذات. إنها تصبح أكثر وضوحاً وأكثر خطورة ومدعاة للخسارة عندما تختفي وراء قناع القدرة على القراءة،

ويصير بوسع (الأمي) أن يقرأ لك أفكاره المشوّهة من فوق منصة الخطابة، ويخدعك عن سمها القاتل بالبديهيات التي تبدو من الخارج منطقية ومغرية.

الأمية هي العجز الفكري عن إيجاد الحق بالنسبة لمركز الإنسان في الكون، هذا هو التعريف الوحيد الذي يستطيع المرء أن يتقبله بالنسبة لتفسير الظاهرة بأسرها، وإذا قرأ لي أحداً ما في كتابه أن الرب خلق آدم مثل دمية طينية وأطلقه لكي يركض فوق الأرض تحت حراسة شبه دائمة من مخلوق ناري اسمه الشيطان، فأنا أدعوه بكلمة واحدة (رجل أمي)، لأن الحق ـ أو العالم الحقيقي ـ يستطيع أن يثبت بوضوح غير قابل للشك أن خلق الإنسان لم يتم على هذا النحو، ولأن صناعة الدمى الطينية ليست في الواقع الصورة الحقيقية التي تليق بفكرة الإنسان عن قدرات خالقه، فإذا قرّر ذلك (الأمي القارئ) أن يفرد فكرته بطريق أو بآخر، فإن وسيلته الوحيدة أن يلبس ثوب (العالم) ويقطع لساني بتهمة (الجهل) دون ثمة دليل من أي نوع سوى أن يفهم ويفسر ما جاء في كتاب اللّه.

هذه هي الحلقة المفرغة في مشكلة (الأمية العلمية).. رجل (أمي) يلقب نفسه باسم (العالم) لمجرد أنه تعلم القراءة المتحذلقة، ويستطيع أن يقف وحده ضد جميع العلماء والأدلة العلمية القاطعة لكي يفرض فكرته دون ثمة دليل من جانبه سوى (أوهامه النرجسية)، وينفي كل شيء آخر في علبة القمامة، ثم يجعلك بعد ذلك تقبل يده أيضاً.

وأنا هنا لا أختار هذا المثال بالذات إلا لأنه أكثر وضوحاً من سواه، (فالعلم باسم اللّه) ما يزال في بلدنا أكبر مظاهر الأمية

المقنعة على الإطلاق ولكنه بالتأكيد ليس وحده فارس الميدان، (فالعلم باسم مصلحة الشعب)، والعلم باسم (التقاليد الحميدة الأصيلة) يلعبان أيضاً دورهما المثير في أمية الشعب الليبي التي نصرخ منها على كل الجبهات أن مشكلتنا لم تكن قط عدد (القادرين على القراءة)، ولكنها كانت دائماً نوع الثقافة المقروءة وحدها.

الثقافة الدينية والسياسية والاجتماعية... الثقافة المثقلة بالمغالطات القديمة وازدراء وسائل العلم الحديث وعدم وضوح الرؤية والتسليم بالبديهيات غير الحقيقية والاعتماد على الإثارة العاطفية الخالية من العمق ونشر التعليم، لا يستطيع أن يغير وجهة هذا الطوفان من الأخطاء، بل إنه في الواقع سوف يزيدها ثباتاً وشمولاً إلا إذا بدأ بإيجاد (المنهج) المطلوب لأبعاد الفكر نفسه، أي بدأ بإيجاد (الحق)، وأنا أستعمل كلمة الحق هنا، بالنسبة لاتجاهين مرتبطين معاً:

* الاتجاه الأول، علاقة الإنسان بخالقه، تلك العلاقة التي لا يمكن قط أن تقوم على أساس حقيقي من المعرفة الحقيقية ما دامت تبدأ بفكرة غير علمية ـ وغير دينية بالتالي ـ مؤداها أن الإنسان دمية طينية. إن هذه الانطلاقة لا يسندها شيء في الواقع سوى التفسيرات المعوجة للقرآن والإنجيل على حد سواء ولكنها ذات تأثير مفجع في شكل مجتمعنا الإنساني بأسره، وإذا أتيحت لإنساننا المعاصر فكرة أكثر اكتمالاً عن طبيعة القانون العظيم الذي أحضره إلى هذا العالم، فإنه بالتأكيد سوف يكون أكثر قرباً من الله وأكثر إدراكاً للشكل المتناهي الإثارة الكامن وراء دمية الطين، سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

* الاتجاه الثاني، علاقة الإنسان بالإنسان، فالطبقية التي نعيشها الآن في تفكيرنا الاجتماعي والسياسي مجرد انعكاس مؤقت لفكرتنا الخاطئة عن العالم نفسه، فالكون ـ بالنسبة لنا ـ مسرح هائل لأسوأ أنواع الطبقية يقف اللّه فوق قمته وتحته طبقة الملائكة، وتحت طبقة الملائكة طبقة الأنبياء وتحت طبقة الأنبياء طبقة أخرى، إلى آخر القائمة الرأسية التي يبدو أن أول أخطائها الوثنية أنها تضع (اللّه) في نقطة محددة، وهو خطأ نعتقد جميعاً أننا نتجنبه ـ ببساطة ـ لمجرد أننا نعتنق الإسلام.

من هذين الاتجاهين يبدأ كل شيء في المجتمع الإنساني، من هذين الاتجاهين تبدأ الأديان والأخلاق والأفكار السياسية أيضاً، وما داما معاً ينطلقان حالياً من نقطة خاطئة تحت حراسة مشدّدة من (الأمية العلمية)، فإننا في الواقع لا نملك فرصة واحدة لإصلاح الاعوجاج الواضح في مسيرتنا الفكرية. إن ذلك يحتاج إلى عنصر الزمن.

وهذا ما يحتاج المرء إلى أن يعرفه جيداً قبل أن يتورط في الصراخ مطالباً (بمحو الأمية) لأن هذه الصرخة من جهة لا تعني شيئاً في الواقع سوى تعليم الناس القراءة لكي يقرأوا الأخطاء بأنفسهم بدل أن يكتفوا بسماعها، ولأن (الجهل) يستطيع المرء أن يمحوه بإيجاد (قرّائه).

إننا نفتقر إلى صوت يطالب بتغيير مناهجنا الفكرية، صوت لا تخدعه (الأمية المقنعة) التي تستطيع أن تنتصب فوق المنصة وتدلق على العالم خطبة فصيحة، وتستطيع أيضاً أن تطبع له جريدة مزينة بالآيات القرآنية والحكم القديمة لكي تقنعه بأنه صنم طيني مصنوع خاصة لكي يأكل تفاح الجنة.

إن تعميم القدرة على القدرة عمل حسن ولكنه ليس دائماً عملاً مفيداً، وإذا كان ثمة من يخامره الشك في هذه الحقيقة المفاجئة، فإنه يستطيع أن ينال أكثر من مثال مقنع داخل البلدان التي رفعت نسبة المتعلمين فيها إلى الحد النهائي. إن أكبر المستفيدين من هذه الظاهرة هم باعة المجلات الجنسية.

ولكن المرء لا يجوز أن يفسر هذا القول بأنني أدعو إلى إبقاء الشعب الليبي محروماً من نعمة القراءة، لأن ذلك في الواقع تفسير مقلوب. إن ما أريد أن أقوله هنا بوضوح كافٍ: إن تعليم القراءة عمل حسن ولكنه ـ بالتأكيد ـ لا يقود قط إلى محو الأمية إلا إذا ظللنا على اعتقادنا الخاطئ بأن الأمية (هي العجز عن القراءة).

أما إذا كنا نملك من الشجاعة ما يكفي لرفض هذه البديهية غير المعقولة، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أننا لن نحتاج إلى المدارس وحدها لمحو أمية شعبنا، بل إننا أيضاً نحتاج أكثر مرتين، إلى مناهج علمية لمحو أميتنا المقنعة قبل أي شيء آخر.

فنشر المعرفة ـ إذا لم تكن معرفة حقيقية ـ مجرد خدمة تؤدي لصالح الجهل وحده، ونحن في بلدنا الصغير المتواضع الامكانيات نملك الآن أكثر مما يكفي من الأصوات المتحمسة التي تنسى هذه الحقيقة البسيطة في غمرة حماسها البدائي، وتنسى أيضاً أنها بدورها تحتاج إلى محو أميتها.

إن القراءة مجرد وسيلة لنشر (المعرفة)، وإذا كان من المرغوب فيه أن يمتلك المرء هذه الوسيلة تحت تصرفه، فإن من المرغوب فيه أكثر ألا يضعه ذلك تحت رحمة (الأمية العلمية) لكي تصب في دماغه جميع معارفها المدهشة، والأصوات التي تطالب بشن

حملة شعواء ضد الأمية مطالبة بدورها أن تؤدي نصيبها في الحملة الحقيقية الأخرى ضد (الأمية الدينية والأمية السياسية أيضاً)، فالمشكلة ليست مجرد مسرح للصراخ من أجل المدارس وحدها كأن كل شيء آخر معد في بلدنا على ما يرام.

إن الإصلاح الديني في الدرجة الأولى هو المشكلة الرئيسية في بلدنا، والمرء لا يستطيع أن يتصور أن الأصوات المتحمسة ـ التي تصرخ فوق جميع صحفنا المحلية مطالبة ببناء المدارس ـ تجهل هذه الحقيقية المسطحة، ولكن المرء أيضاً لا يسمع صوتاً واحداً يشير إلى أن (الحقائق المسطحة) تستحق قليلاً من الحماس.

إن أحداً لا يرفع صوته مطالباً بإصلاح الفكر الديني في الوقت الذي يزعم فيه خطيب الجامع أن الإنسان صنم من الطين، بل إن معظم (الصارخين) في بلدنا مستعدون لقتلك بمخالبهم إذا سمعوا أنك لا تصدق خطيب الجامع، وبعد ذلك ـ أعني أيضاً في نفس الوقت ـ يطالبون بمزيد من المدارس لنشر (العلم).

هذه خرافة الحماس البلهاء.. خرافة (الأمية العلمية) التي تخنق مسيرتنا في بلدنا بالذات، وفي معظم البلدان المتخلفة مثلنا قطيع من الذئاب الصارخة التي لا تحسن شيئاً في العالم سوى أن تصرخ من أجل أي كارثة تخطر ببالها، من أجل محو إسرائيل، من أجل محو الأمية، من أجل الجنة، من أجل القرآن، من أجل أي شيء مقابل لا شيء، وعندما تتعب من الصراخ تصرخ أيضاً لإبداء التعب.

وفي ذيل القائمة تبقى الحقيقة القبيحة المثيرة للعار والعالم، إن

صوتاً واحداً يرتفع بشجاعة لفضح مغالطات (الأمية المقنعة) في ميدان السياسة والدين والأخلاق يستطيع أن يخدم بلدنا بصورة أفضل مما تفعل ألف مدرسة يعمّرها ألف (أمي قارئ).

ومع ذلك فالصوت الشجاع لا يرتفع قط، بل يظل ينتظرك لكي يأكل جثتك على مأدبة العشاء عندما يذبحك فقي الحارة العالم باسم اللّه، ثم يلعق مخالبه ويدخل الجولة التالية في المطالبة بمحو الأمية.

هكذا الحلقة مفرغة في عالم الكتّاب الأميين أكلة الحشيش والجثث.

24

بين حين وآخر

«بيتنا يا إلهي الذي ندعوه ليبيا نحن لا نعرفه، ولا نريد أن نعرفه، فكل ما يهمنا فيه المطبخ فقط».

تراب!

يا إلهي إن بنغازي كلها تراب. المطار والطرق المؤدية إلى المطار وعيون الأطفال الموتى.. بنغازي كلها تراب.

تراب!

فلا تدعني أغوص إلى ركبتي.. ولا تدعني أموت ممتلئ الرئتين بالتراب. مدّ لنا يدك. اعطنا مقشة من السماء، أعني دع السماء في بنغازي تمطر مقشات لكي نكنس التراب.

ونكنس قلوبنا التي ساء حالها حتى صارت مثل مخازن الغلال القديمة، لا شيء فيها سوى روائح المحصول الماضي.. والعنكبوت.

أعطنا مليون مقشة. فنحن ـ في الواقع ـ لا نحتاج إلى شيء

آخر، ولا نستطيع أن نأخذ شيئاً آخر قبل أن نتعلم بصورة مثلى، كيف يكنس المرء قلبه، كما يكنس بيته، وأين يضع القمامة نحن ـ في الواقع ـ لدينا كل شيء.

ولدينا علاوة الغلاء. ومليون رجل باع حلي زوجته لكي يشتري سيارة وينفخ أبواقها. ولدينا ـ يا إلهي ـ أشطر التجار الذين يستطيعون على الدوام أن يزوّدننا بالبصل المعلب وأحمر الشفاه.. والأقمشة الحمراء المعلبة.

لدينا كل شيء.. وقطع الغيار ومليون فكرة كاملة التفاصيل وشركات لاستيراد الطوب من بلغاريا ومقاولون مستعدون لاستيراد أحسن أنواع الجير، وبنات من بيروت المناضلة، وحفنة ـ لا تقدر بثمن ـ من أنصاف الشعراء.

ولدينا أصنام مستوردة، إنني لا أجرؤ على الكذب، ولكننا هنا في بنغازي نستورد كل شيء وقد قرأنا في الصحف إعلانات شتى عن أصنام القبائل المجاورة، وقرأنا أنها تشفي من مرض الزكام وتساعد على تقوية العينين فقمنا باستيراد بعضها لأغراض التجربة. وسوف أقول لك يا إلهنا إن تلك الأصنام تكلفنا كثيراً من العملات الصعبة، وإنها لم تساعدنا على تقوية العينين بسبب اختلاف المناخ.

فأعطنا مليون مقشة.

وكثيراً من الشجاعة لكي نواجه أنفسنا. نواجه لحظة العقم والتراب والموت بالقطاعي في افتتاحيات الصحف، ونواجه المرآة لكي ترى وجهنا القبيح الذي اكتسبناه ـ مثل شعير الصدقات ـ بالتسول على أبوابِ الآخرين.

فنحن ارتكبنا أخطاءنا بحسن نية.

ونحن شعب بسيط كالتراب، وإذا كانت رحمتك تسع كل شيء فلا بد أنها ستسع أيضاً فضائحنا الصغيرة التي نرتكبها بحسن نية لأننا تراب.

فضائح المقاول الذي يستطيع أن يفعل كل شيء من بيع العمال بالميزان إلى بيع الريح للمراكب بأكثر من التسعيرة.

فضائح الموظف الذي يستطيع أن يفعل كل شيء من تسجيل الرسائل الواردة إلى إتمام عمليات الاستيراد بدون تسجيل.

فضائح الكاتب العمومي والكاتب الآخر وشركة الحافلات الموقرة ومعلم البلاغة وعامل الكهرباء وشركة الطيران الليبية سابقاً.

فضائحنا جميعاً، فنحن ـ يا إلهي ـ لا نستطيع أن نكف عن ارتكاب تلك الحماقات الصغيرة التي أصابتنا بالخجل.. والبهاق. وقد طالت مسيرتنا، وغاصت ركبنا في التراب، وغاصت عجلات العربات ولا بدّ أن تمطر السماء بالمكانس.

«لا بدّ أن يستجيب القدر».

لأنه فعل ذلك على الدوام، ولأن المرء يتوقع أن يجد هذا الشعب طريقه الذي ردمه التراب، يجد نفسه مثل بقية الشعوب الحية أو نصف الميتة ويكف عن خداع عينيه متعمداً.

ذلك لا يعني ـ يا إلهنا ـ أن يكبر شعب ليبيا حتى ينطح السماء.. أو السقف.

ولا يعني أيضاً أن نكف جميعاً بين يوم وألف ليلة عن ارتكاب الفضائح المتداولة في منطقة الشرق الأوسط. فالواقع أن المرء لا يجوز أن ينسلخ عن بيئته، ولا يجوز أن يكون

انعزالياً وانفصالياً إلى الحد الذي يبيح له أن ينسى تلك الروابط القديمة.

إننا لن نطمع كثيراً.

ولكننا لا بدّ أن نحصل على حاجتنا من المكانس بطريقة ما فالتراب والأصنام المستوردة لم يتركا لنا في بيتنا موضع قدم.

بيتنا ـ يا إلهي ـ الذي ندعوه ليبيا ونزيّنه بالأعلام نحن لم نعد نعرفه.. ولم نعد أيضاً نريد أن نعرفه، فكل ما يهمنا فيه المطبخ فقط.

والعربة التي تغوص عجلاتها في التراب وعلاوة الغلاء ورحلة العلاج وزيادة الراتب طبقاً لقانون الخدمة والحصول على سكن في الدنيا والآخرة.

يهمنا المطبخ فقط، لأننا بسطاء كالتراب، ولأن بطوننا أهم ما نملك. أما الباقي، أعني كل ما يجب أن يعرفه المرء عن بيته فنحن لا نملكه. وإذا كان ثمة شعب يستطيع أن يموت من الجهل بنفسه فلا بدّ أننا هنا في ليبيا مقبرة قديمة.

مقبرة أحياء.

يتنزه فيها الميت بعربته وينفخ البوق ويطلع لسانه ويقبض علاوة القبر بموجب القانون.. ويظل ميتاً بطريقة متعمّدة. ولا بدّ أننا يا إلهي أسوأ موتاك على الإطلاق، فنحن ندفن في بدل الصوف بدل الأكفان..

ندفن على الكراسي الخشبية والأرصفة والغرف المختنقة بروائح النبيذ.. والعرق. ندفن بلا صلاة.

وإذا كان ثمة شعب يستطيع أن يموت من الخجل بنفسه فلا

بدّ أننا هنا في ليبيا قطيع من الموتى القدماء ولكن الظاهر أن ذلك لم يحدث، فنحن نزداد شحماً كل يوم ونلد الأطفال والأفكار ورخص الاستيراد بلا حساب.

الظاهر أن جهلنا بأنفسنا لم يقتلنا بل أصابنا بالبله.. وما دامت ليبيا مجرد مطبخ بالنسبة لنا، وما دامت السماء لا تمطر مكانس، فماذا ينتظر العالم أن يرى على أرضنا غير براميل القمامة.

ماذا ينتظر العالم العظيم الحافل بالخلق والأضواء، المتناهي الفخامة الحي المتوهج حياة أن يرى في ليبيا ما دامت مجرد مطبخ لإطعام مليون ونصف ميت جائع.. ما دامت مجرد محطة انتظار للمسافرين بين أثينا وبين حارة الموسكي.

محطة من شأنها أن تمدّ المسافر براتب شهري وعلاوة للسكن وتذكرة تقله إلى بلد آخر بالمجان.. بلد يدخله بجواز سفر ليبي لكي ينسى فيه ليبيا.

لا. اعطنا يا إلهي كل ما لديك من المكانس. ودعنا نبدأ الآن لكي ننظف أزقتنا وبيوتنا وعيون أطفالنا. نزيح التراب شبراً بعد شبر عن كل الأزقة والمباني والسنين حتى نرى وجوهنا في نهاية المطاف نرى ليبيا ونعلمها لأطفالنا.

فنحن لا نستطيع أن نعيش من أجل لا شيء ولا نستطيع أن نرفع أعلامنا فوق بلد لا نعتبره سوى مطبخ مؤقت. وإذا كان ثمة ما ينتظره العالم منا فهو ـ على الأقل ـ أن نحترم أنفسنا بضع ساعات كل يوم.

أعني من الساعة الثامنة حتى الساعة الثانية عشرة. أو بعد الظهر.. أو حتى خلال الليل، فليس من المهم أن يعرف المرء متى

يحترم نفسه بالضبط. ولكن المهم أن يفعل ذلك بين حين وآخر.

فهل يسقط المطر؟

أعني هل تسقط المكانس أو المطر لكي ننظف المطبخ ونغسل صحوننا في انتظار جيل ليبي قوي الجذور يستطيع أن يمد يده لكل من يحتاجها دون أن تنزلق قدماه الصلدتان.

جيل من العرق والمبادئ.

فالباقي يا إلهي تراب.. تراب. على مدّ عينيك العظيمتين تراب!

1968

25

الحزن بقليل من عصير الليمون

.. ويا سيدتي، إن قطرة المطر تحمل أيضاً رائحة السموات..

وتحمل الطوفان وحقول القمح والعشب والأدغال والمحيط والنهر الذي يطعم الفلاحين، قطرة المطر ـ في الواقع ـ تحمل أكثر من ذلك وتهبط به من سقف العالم شفافة أكثر من زمردة، إن المرء لا يرى شيئاً داخل قطرة المطر رغم أنها تضم العالم في داخلها، وأنت عيناك قطرتا مطر.. وقد هبطتا من السماء معبأتين بالزرقة مثل عربتين سماويتين من الحرير الأزرق وسقطتا معاً في لحظة واحدة فوق وجه خنزير.

فقولي له الآن إنك وقعت في حبه. قولي له إن الحياة في السماء لا تقاس بالحياة إلى جانبه، ودعيه يلعق وجهك لكي يشعر تجاهك بالرضا، واحملي بوله الكريه في طاسة الشرب، افعلي ما في وسعك للظفر بقلبه رغم طيات الشحم المتصلب.. فأنت هنا لا تملكين فرصة واحدة.

أنت امرأة في بلد الفحول، قطعة امرأة، ذبابة على قرن ثور،

أنت ذبابة على شنب سيدك الذي تركز فوقه الصقور والذباب، فماذا تتوقعين مني؟

الناس تلدهم أمهاتهم أحراراً، وأنت تلدك أمك داخل عباءة، هكذا يقال.

ويقال أيضاً إنه في الأزمان القديمة المضحكة كان في ليبيا أربعون حرامي، وكانوا يسرقون النساء من الأحياء المجاورة ويضطرون للخروج معهن للنزهة مقنعات الوجوه تجنباً لأعين الشرطة وأصحاب البضاعة الأصليين، وكان الأمر يسيراً للغاية، فما دامت المرأة مغطاة بإحكام، وما دامت لا ترفع صوتها في الشارع فإن اللص في مأمن من اكتشاف أمره، هكذا يقال.

ويقال أيضاً إن هذه السرقات تسببت في زيادة عدد اللصوص رغم ارتفاع نسبة الوفيات، فيما ظل سكان الأحياء المجاورة يتناقصون بسرعة مذهلة حتى انقرضوا جميعاً في نهاية المطاف وبقيت العباءة فوق كتفك تذكاراً من حي الحرامية.

فدعينا ندخل في التفاصيل.. إن صداقة اللصوص رهن بقدرتهم على صنع الأقفال الموثوق بها، ولقد كان الأمر كذلك بالضبط في حي الحرامية، وكان اللص الذي يسرق امرأة من الحي المجاور لا يضعها للعرض في نافذة حانوته، بل يخبئها في البيت، فماذا تتوقعين مني إذن؟

إن بيتك الليبي مجرد مخبأ، مجرد خزانة يودع فيها المرء تحويشة العمر ويضع فوقها خاتم سليمان لكي يأمن شر زملائه اللصوص قبل أن يسرح وراء رزقه، فالعقرب أدرى بلدغة العقرب، وصحبة الرجال مثل صحبة العجول في أغلب الأحوال

مجرد لعق بالألسنة الخشنة لإخفاء كدمات العض.. فماذا تتوقعين مني؟

بيتك مجرد وجار يضع فيه الثعلب حصيلة المساء من الأرانب والعجائز ثم يسرح في الحقول المجاورة..

بيتك الليبي وجار ثعلب، وزوجك يسرح في الحقول المجاورة.. أعني في المقهى، في حظيرة الفحول، وفي أثينا أيضاً.. إنه يسرح في كل مكان ما عدا بيتكم.. ويمطر في البحر..

فانتظري عودته فوق السدة، انتظريه وراء الكلة الحمراء المعلقة عبثاً فوق السرير، وتلطخي بالحناء والخواتم وزيت القار..

انتظري عودته، واحشي وسائده بالأطفال الذكور، اعطيه حاجته من الذكور، املئي البيت ذكوراً إلى السقف فأنت لا تملكين فرصة واحدة، أنت قطرتا مطر على وجه خنزير.

ذبابة على شنب سيدك، أنت في الواقع ذبابة ليبية على شنب خنزير.. فدعينا نتبادل النكات:

بالنسبة للوشم أنا قلت لك إنه كان في ليبيا أربعون حرامي، وكانوا يسرقون النساء من الأحياء المجاورة، وقد تسببت سرقاتهم في إقلاق حالة الأمن إلى حد أجبر شيوخ الحارات ورجال الشرطة على الاجتماع في سقيفة واحدة للبحث عن حل مناسب، وكان الاجتماع صاخباً كالعادة، ولكن الهدف نفسه كان معروفاً للجميع، فالمرء يحتاج فعلاً إلى أن يضع علامة خاصة على كل امرأة.. علامة لا يستطيع أن يخفيها أيضاً، وقد اتفق الجميع على أن منطقة الوجه تصلح للغرض أكثر من سواها، ولكنهم لم يكتشفوا الوشم إلا بعد صلاة العشاء.

وقد بدأوا أول الأمر يضعون العلامات على وجوه النساء

والبقر وأرغفة الخبز، وأصبح لدى الليبيين حاجتهم من الوقت لكي يحتفلوا بالمناسبة وينقشوا علامتهم بالإبرة بدل السفود ويتعلموا قليلاً من الفن في رسم الخطاف الصغير على جبهة البضاعة باعتباره رمز الشركة.

أنا قلت لك إن الأمر كله مجرد محاولة عادية لتجنب الخلط بين بقرة جارنا وبين بقرتنا، بين عجوز جارنا وبين عجوزنا، بين أرغفة خبز جارنا وبين أرغفتنا.

مجرد محاولة لتحديد نوع البضاعة في عالم يزدحم باللصوص الموهوبين، فالنساء تتشابه مثل أرغفة الخبز.. أعني بالضبط مثل أرغفة الخبز والغربان وقطرات المطر.. والمرء لا يستطيع أن يأمن أنه لن يعود إلى بيته حاملاً عجوز جاره في طبق إلا إذا كان قد وضع فوقها علامة العائلة.. أعني قرصتين وقشر برتقالة، أو قرصتين وفرو.. أو خطافاً أخضر.

فدعيني أوضح لك الأمر:

خط تحت الذقن وبقعة واحدة على الخد الأيسر، والخط الأخضر تحت الذقن دليل الجودة والاتقان، ولكن البعض يضع علامة مشابهة لخداع الزبون كما تفعل مصانع أمواس الحلاقة في اليابان.. وفي إحدى المرات اشتريت أنا شخصياً علبة من أمواس الجيليت ثم اكتشفت أنها بضاعة يابانية عديمة الفائدة تقريباً، حسناً إن الخسارة لا تكاد تذكر، ولكن المرء لا بد أن يفتح عينيه لكي يتجنب البضائع المقلدة.

فافتحي عينيك يا قطرتي مطر وانظري هنا، ماذا أحمل أنا في يدي سوى منجل الموت الفاتن البريق، أحمله مثل حقيبتي وأطوي به ثلوج القطب أقتل الوقت والنساء وعجول البحر

والطيور الناصعة البياض المحنطة في نوافذ الحوانيت.

وأحفر به على الخشب مثل منجل الموت مجرد إزميل لصناعة التحف الخشبية، فلا تدعيني أنسى ما أريد أن أقوله، إنني أحمل عينيك معي أينما ذهبت وأحمل السواد الليبي المعلق فوق رموشك مثل حبتي زيتون وأحمل قربة الصبر السوداء العينين، أنا أحمل أكثر من بغل.

وعندما تهب الرياح الشمالية هنا وتنزف حزناً مثلجاً، وتتكسر مواشير الأضواء المقرورة تحت وطأة الجليد، ويكتشف كل امرئ لحظة السلام العميقة الغور على منضدة المقهى المجاور، أحملك في قلبي وأذرع بك سقف العالم في زحافة تجرها الكلاب.

الكلاب وأنا نزور تلال القطب كما تزورين أنت ضريح مرابطك المفضل ونوقد عندها الشموع من أجلك وننبح معاً ونطلب من الشيطان أن يمد لك يده، فالفقهاء يقولون إن اللّه يقف ضدك، والمرء لا يستطيع أن ينسى أقوال الفقهاء دون أن يكسره المرابط.

فافتحي عينيك يا قطرتي مطر وانظري هنا.. هذا رأس العالم المغطى بالثلوج والشيب، وهذه زحافتي وأصدقائي الكلاب والقمر الشمالي المتورم الأنف وقربة الصبر التي وضعتها أنت فوق كتفي مع حفنة القديد، هذا كل شيء أستطيع أن أحمله بالإضافة إلى قلبي الثقيل الوزن الذي أجره ورائي عبر البوابات والمدن وأدفع عليه الرسوم وأطلي جدرانه بالتبغ في أيام عاشوراء تلبية لرغبة البلدية.

قلبي ما يزال يعبق بخوراً وتبغاً مثل أي مقهى شرقي، وما

يزال سيدك المهيب الشنب يجلس في وسطه ويلعب الورق ويحلف بالطلاق ويبصق على الأرض ويحرقه بأعقاب السجاير..

وعندما يسقط الليل هنا، وينزف حزناً مثلجاً يفتح المقهى أبوابه، أعني يفتح قلبي أبوابه، وتضاء قناديل الزيت الشرقية، وتصف الكراسي والنارجيلات ومحارق البخور الدقيقة الصنع، وتومض عينا أبي زيد الهلالي على الجدار، ثم يصل سيدك مثل أبي زيد الهلالي ويختار مقعده المفضل وقهوته المفضلة ويفتل شواربه بطرف الإبهام والسبابة ويقرأ لي البخت السيئ في الفنجان.

فافتحي عينيك يا قطرتي مطر وانظري هنا، ماذا أستطيع أنا أن أفعل سوى أن أعد مزيداً من فناجين القهوة وأخط الحساب على ضلفة الباب.

وماذا تستطيعين أنت أن تفعلي أو يستطيع صديقك الشيطان، إن أبا زيد الهلالي ما يزال أقوى رجل في تونس الخضراء وفي ليبيا أيضاً، وما يزال يركب حصانه الجهنمي ويغزو القرى والمدن ويعود كل يوم بالسبايا المحطمات القلوب، والمرء لا يستطيع أن يخنق أبا زيد المذكور بحبل الغسيل لأنه لا يملك عنقاً على الإطلاق.. ولا يستطيع أن يشكوه للشرطة أو يدعو عليه عند ضريح مرابطك المفضل.. إنه هناك لكي يبقى، والفقهاء يقولون إن اللّه يقف إلى جانبه أيضاً.

فدعينا نبحث عمن يقف إلى جانبنا، دعينا نتبادل النكات، وقفي هنا بجانبي مرفوعة الرأس، فأنا أيضاً ـ مثلك ومثل ليبيا العجوز التي تغسل حصرانها في البحر ـ أعرف على وجه اليقين أن اللّه سيتخلى ذات يوم عن أبي زيد الهلالي، وسوف يكسر

رمحه الرهيب فوق رأسه ويمسخه جرذاً في حقل القمح. وسوف يمتلئ العالم بالقمح، يملؤه اللّه بيديه قمحاً حقيقياً، ويعلمنا كيف نحميه من الطيور بأن نقطع عمودين من الشجر ونعلق فوقهما سروال أبي زيد الهلالي ونربطهما بعمامته وسوف تعتقد كل الطيور أن أبا زيد الهلالي مجرد خفير في حقل القمح..

عاشت الطيور..

1968

26

كلمة قديمة

الصحف الصفراء في زماننا يطن في سطورها البليدة الذباب،
تنبح في أنهارها الكلاب، أبطالها مزيفو النقود والتاريخ والأفكار.
(البياتي)

رئيس التحرير في الصحف الليبية يستطيع أن يأكل الزجاج..

أعني يستطيع أن يمشي على رأسه، ويأكل نصف أوقية من الزجاج، ويصيد الأسد من ذيله، ويستطيع أيضاً أن يجلس القرفصاء ويكتب افتتاحية الصحيفة لليوم التالي بإصبع قدمه.

رئيس التحرير في الصحف الليبية رجل معبأ بالمواهب إلى حافته، والمرء لا يجوز أن يقرأ ما يكتبه ذلك الرجل في افتتاحية الصباح دون أن يستشعر امتناناً عميقاً تجاه اللّه الذي لم يكف قط عن مد ليبيا بحاجتها من رؤساء التحرير.

فنحن ماذا كنا سنفعل بدونهم؟

وما الذي كان ينتظرنا في مسيرتنا الطويلة لو أننا مشينا منذ

البداية دون أن يضيء لنا رئيس التحرير طريقنا في افتتاحية الصباح؟

دون أن يجلس القرفصاء..

ويمد قدميه القذرتين تحت المنضدة ويصرخ مطالباً بالقهوة والتزام الصمت لكي يكتب الافتتاحية ويضيء للشعب الليبي طريقه إلى المقبرة.

فدعونا نقرأ ببطء ريثما يتم دفننا.

«ليبيا الفتية» يقول رئيس التحرير «بطلة العالم التي هزمت جحافل الاستعمار وقوضت أركان الباطل، بدأت الآن في إنشاء شبكة المجاري..».

ويحك المرء رأسه.

ويقول لنفسه إن الحديث عن المجاري لا يجوز أن يبدأ بالحديث عن جحافل الاستعمار، وإن رئيس التحرير لم يكن في حاجة إلى تلك المقدمة المعقدة لكي يقول لنا إن البلدية قد قررت إنشاء شبكة من المجاري.

ثم يحك المرء رأسه.

ويبحث في الافتتاحية عن تكاليف المشروع وطريقة تنفيذه والمشكلات التي يمكن أن تواجهه، ولكنه لا يجد شيئاً سوى جثة الاستعمار.

فدعونا نقرأ ببطء ريثما يتم دفننا.

«ليبيا الفتية» يقول رئيس التحرير في افتتاحية اليوم التالي «ليبيا قاهرة الطليان ومدوخة العالم التي حملت مشعل الحضارة وضاءً

كالشمس في عزّ الظهيرة لن تسكت أبداً عن إهمال شركة الحافلات..».

ويقفز قلب المرء من الذعر..

ويخطر بباله أن الشعب الليبي سوف يغرق إلى ركبتيه في دماء الشركة المذكورة.. ثم يتذكر أن الخبر كله قد ورد في افتتاحية صحيفة ليبية وأنه مجرد نزوة من نزوات رئيس التحرير التي تفاجئه بين حين وآخر..

ويحك المرء رأسه.

ويقول لنفسه إن موضوع الأوتوبيسات لا علاقة له بتدويخ الطليان وإن الصحيفة كانت مطالبة بعلاج المشكلة عن طريق الدراسة والاستفتاء، وتقديم الحلول بدل هذا الهذيان الأخرق الذي يباع ـ مثل الأحذية ـ بالرقم والقالب.

ثم يموت المرء من الخجل..

فدعونا نقرأ ببطء ريثما يتم دفننا..

«اليوم يوم الاستقلال» يقول رئيس التحرير في افتتاحية الصباح «اليوم استقلت ليبيا الفتية وحملت مشعل الحضارة وضاء كالشمس في عز الظهيرة بعد أن مزقت حجب الظلام وطلع عليها فجر الحرية».

وعندما يطلع الفجر يطير الغراب..

ويطير قلب المرء من الملل وهو يمضغ الكلمات المتعفنة في درج رئيس التحرير مثل حفنة من الذباب، فالاستقلال ليس مجرد كلمات ممضوغة، الاستقلال ليس مجرد افتتاحية خرقاء

يصوغها رجل أبله مرة كل عام كما يصنع المرء حذاءه من قالب واحد.

إنه مهرجان لإقامة الموازين..

مهرجان لإحصاء الأخطاء والنجاح، وتتبع المشاكل القديمة والتنبؤ بالمشاكل القادمة، ووضع العلامات المميزة على مواضع الخطر، ورئيس التحرير الذي يعتبر الاستقلال مجرد مناسبة خاصة لكي يطلع فيها الفجر وحفنة الذباب، رجل عاجز عن تقديم شيء آخر أكثر جدوى.. رجل يقتلنا متعمداً مع سبق الإصرار.

فدعونا نقرأ ببطء ريثما يتم دفننا.

«تعيش البلدية».. يقول رئيس التحرير في افتتاحية اليوم الرابع.. «تعيش البلدية المكافحة التي نقلت كوم التراب من الشارع المجاور، ونحن نبتهل إلى اللّه العلي القدير أن تعيش البلدية حتى تنقل كوم التراب من شارعنا»..

ويحك المرء رأسه.

ويبحث عن العلاقة القائمة بين هذا الهذيان الأخرق وبين مؤسسة تؤدي واجبها الذي أقيمت من أجله، فلا يجد شيئاً سوى نزوات رئيس التحرير المليء بالمواهب والذباب، المترف إلى حد التخمة، الذي لا يهمه شيء في ليبيا سوى أن يشتري مصالحه الحقيرة ـ كما يشتريها شاعر القبيلة ـ بالمدح والهجاء.

ويحك المرء رأسه ويموت من السأم.

فدعونا ندفن موتانا، ودعونا نبتهل إلى اللّه العلي القدير أن يطيل في أعمار رؤساء التحرير المليئين بالافتتاحيات، ويجرهم من

أنوفهم إلى طريق الصلاح الوضاء كالشمس في عز الظهيرة.

فالعالم كله مشى إلى هناك..

مشى ملطخ اليدين بالحبر والأفكار، لكي يجعل من صحافته نقطة التقاء، ويضيء مشكلاته بالنقاش الحقيقي والدراسة الموضوعية.

العالم كله اكتشف مهمة الصحافة.

واكتشف أنها نقطة الارتكاز التي يلتقي عندها الشعب بحكامه، وتلتقي عندها وجهات النظر واقتراحات كل الأطراف، وقد امتد هذا الطريق وأصبح معبداً إلى حد أن معظم حكومات العالم بدأت تخطط مناهجها فوق أعمدة الصحف.

أما حكومة ليبيا، فإن عليها أن تفعل كل شيء بنفسها.

عليها أن تتخذ القرارات.. أن تبني وأن تهدم، وأن تصلح شارع رئيس التحرير دون معونة من أي نوع.. دون كلمة هداية، فالصحافة عندنا لا تستطيع أن تقدم لها شيئاً سوى الطبل والمزمار.

الصحافة لدينا وارث محترف..

يرث أسماء المسؤولين، ويرث القوالب القديمة، ويعيش متعطلاً بين الافتتاحية التي تمتدح مصلحة الطرق والمقال الذي يهجو عابر الطريق.

الصحافة لدينا شاعر قبيلة..

يذبح له المرء خروفاً ويعطيه عظمة الفخذ ثم يسقيه جرة نبيذ ويتركه يمتدحه حتى يطلع النهار، والشاعر أليف وقلبه طيب، وعنده كل أنواع القصائد والقوالب المحنطة.

وإذا كان الأمر لا يبعث على اليأس..

إذا كان موقف المسؤولين عن اتخاذ القرارات في ليبيا هناك فوق القمة الباردة دون عون من الصحافة يبدو موقفاً قاسياً معرضاً لارتكاب الأخطاء على الدوام، فإن موقف الصحافة نفسها يبدو مضحكاً إلى حد يقنع المرء بأن المشكلة بأسرها مجرد كابوس مليء بالنكات.

مجرد حفلة مؤقتة..

يرقص فيها رئيس التحرير حتى يطلع لسانه حاملاً قوالبه ـ مثل الأقراط ـ في أذنه معبأ بالمدائح والشتائم حتى حافته..

ثم يطلع النهار الحقيقي، وتنتهي الحفلة ليعود رئيس التحرير إلى رصيفه القديم يأكل الزجاج ويخرج الأرانب والأفكار من قبعته.

فدعونا نقرأ ببطء ريثما يتم دفننا.. أو يطلع النهار..

1968

27

اللفافة

«في السابع والعشرين من يناير منذ مائة وثلاثين عاماً مات الكسندر بوشكين في مبارزة من أجل شرف امرأته».

عندما تزحف الظلال فوق جدران هلسنكي ويسقط المساء عبر مواشير الثلج، أقول لسيدتي الشمس: «دعيني أذهب معك أنا لا أريد أن أبقى هنا».

ويضحك ـ يوري يناسكين ـ بياع الحشيش، ويسقط لعابه فوق وجهي، ويقول لي بلهجته البذيئة: الشمس ليست عربة أتوبيس أعني ليست عربة لجمع القمامة. ألم تقرأ ذلك في أي كتاب.

وتخبطه امرأته على رأسه بإناء القهوة، وتقول له إنه خنزير قبيح السلوك إلى حد لا يطاق، وإن عليه أن يتركني وشأني. ثم تقف في شرفة المقهى وتصرخ بأعلى صوتها: انتظري يا سيدتي الشمس. دعيه يذهب معك.

وتنزلق الألوان على جدران السماء.

وتوغل الزرقة العميقة في البعد، وتمتد المواشير عبر المرفأ في شلال قرمزي من حزمة واحدة وتتكسر وراء التلال الثلجية. وفيما يغيب المرفأ في العتمة، وتنعكس حزم الضوء والنوارس والتلال في زجاج النافذة، يضع يوري يناسكين يده فوق كتفي ويقول لي بود «لقد ذهبت إنها لا تنتظر أحداً اسمع دعني أعد لك لفافة حشيش». واعلمه أنني لا أملك أية نقود، فيسقط لعابه فوق ذقنه ويقول لي بلهجته البذيئة ولكنك تملك ألف مارك! أنا رأيتها بنفسي.

* لقد أنفقتها.

* أين؟ أعني في يوم واحد؟

* أجل. في يوم واحد.. في نصف يوم واحد، فقد اشتريت مقعداً في الشمس ويبصق يوري يناسكين على الأرض بريبة، ثم يدعك بصاقه بقدمه قبل أن تراه صاحبة المقهى ويقول لي: دعنا نذهب إلى منزلك. إن المقهى مليء بالمخبرين وسوف أعد لك لفافة هناك.

* دعنا نذهب إلى منزلي أجل مد لي يدك ودعني أقودك إلى هناك فأنا أعرف الطريق كله عبر القارة.

وفيما تصلني يده في العتمة وتصطخب الأمواج وراء صخور المرفأ: أراه يمشي إلى جانبي على وجه الماء. وأرى لعابه يسقط فوق ذقنه في وهج أضواء المدن والحانات والطرق الممتدة على الدوام.

اغلق فمك، أقول له، لا تدعنا نبدو أمام معارفنا مثل مسطولين عاطلين. إن المرء يشعر بالخجل في رفقتك. وأسوأ ما

في الأمر أن أغيب عن بيتنا طوال هذه السنين ثم أعود برفقة خنزير مثلك.

ويتقيأ يوري يناسكين ضحكه في الظلام.

ثم يصطدم بأحد المقاعد المقلوبة ويصرخ معلناً أنه أصيب بجرح غائر في ركبته.

وفيما تخف إليه امرأته البلهاء يهطل الثلج في الخارج وتنطلق المواشير القرمزية عبر النافذة ويقول أحد ما:

* العواصف مريعة هذا العام. إن بنغازي تقضي شتاء سيئاً. لماذا عدت؟

* لا أدري.

* هل ستبقى هنا طويلاً؟

* أجل. أعني لا أدري إن ذلك يتوقف على سلوك العواصف وتهمي رائحة التبغ والبرتقال وأصوات الأصدقاء وأرى إناء الشاي بجوار حافة الرصيف والقطة الرمادية المحترقة الفراء، ويصبح في وسعي أن أمد يدي وأربت فوق رأسها ولكن يوري يناسكين يفاجئني بعود الثقاب ويعلن صارخاً أنني كنت أقرص امرأته.

* هذا كذب فاضح. أنا كنت أربت على رأس القطة.

* وكنت تقرص ناتاشيا لقد رأيتك تفعل ذلك بنفسي ثم إن الغرفة ليس بها قطة على الإطلاق.

وتقول له امرأته إنه خنزير قبيح السلوك، وإن الحشيش يزيده بذاءة وتدقه على رأسه بإناء القهوة ولكن يوري يناسكين يطالبني

بأن أضع يدي فوق المنضدة لكي يستطيع أن يراهما طوال الوقت.

* الغيرة مرض لا يطاق أقول له، مرض مثل وجع الأسنان يحدث غالباً خلال الليل ويحرمكم من النوم، والرجال في هلسنكي مصابون جميعاً بوجع الأسنان.

وتقول ناتاشيا متوسلة: لا تتشاجر معه، إن الحشيش يصيبه دائماً بالجنون، وقد رأيته هذا الصباح يضع مطواة في جيبه ويقول إنه سيقتلك ويهرب إلى أوكرانيا اسمع إنه يعتقد أنك ما زلت تملك الألف مارك.

* لقد أنفقتها.

* ولكنه لا يصدقك إنه لا يصدق أحداً حتى نفسه.

ويقول يوري يناسكين ادفع لي ديونك ودع امرأتي وشأنها وأنا أضمن لك أن تعيش ألف عام. إنني لا أضمر لك سوءاً ولكن المرء لا بد أن ينال حقه، ثم إنني لا أحب سلوك ناتاشيا تجاهكم في المقهى. وأخبره أن ناتاشيا تنال حقها هناك وأنها تكسب في اليوم أكثر من عشرين ماركاً. وفيما يضع مطواته في عنقي ويصرخ معلناً عزمه على الهرب إلى أوكرانيا، أحسّ بقدماي تنزلقان في يسر عبر الطريق السيئ الرصف المؤدي إلى الشاطئ، وأرى الموج ينهض وراء الرف المرجاني وخزانات البترول والأكواخ والنوارس وأمد يدي لكي أصافح الخفير.

* أنا وصلت لتوي من هلسنكي.

* مرحباً.

* جئت لأرى العواصف أعني الشاطئ والعواصف وأرى طريق الميناء والمسجد الجديد والشارع الذي تمّ شقه في قلب سيدي حسين.

* شارع البركة، والزنجية العاهرة التي كانت تذرعه طوال الليل راكبة زجاجة.

* تلك السيدة، يقول الخفير، لقد ماتت في حادث، ألم يخبرك أحد؟

ويضغط يوري يناسكين بمطواته على عنقي حتى ينفذ الطرف المدبب عبر الجلد وتتسرب قطرات الدم ببطء في حلقي وأستشعر الطعم المالح ذا الرائحة النفاذة فيما يتسلل صوت ناتاشيا في الظلام مثل ضفدعة مسلوخة الجلد.

كفي عن الصراخ، يقول لها زوجها، إنه مجرد زنجي مجنون ولن يهتم أحد بالبحث عنه، اسمعي، هل نستطيع أن نخبئ جثته في ذلك الصندوق؟

وتبكي ناتاشيا على صدري وأرى دموعها تتوهج في العتمة مثل عقد من حبات الزئبق ثم ألمس عينيها بأطراف أصابعي وأحس أهدابها تتكسر في الداخل محدثة صوتاً زجاجياً خانقاً.

* المرء يموت في حادث زجاجة.

* ....

* وتنطلق روحه في عرض السموات، رغم حالة السكر تنطلق روحه في عرض السموات، وتجتاز القمر والمدن والشمس. والمرء لا يحتاج إذ ذاك إلى أن يؤجر لجثته مقعداً في الأوتوبيس.

ويقول يوري يناسكين: هذا كله صحيح. دعني أتذكر بداية المؤامرة أجل إن والديك يقعان في الحب ويتبادلان القرصات حتى يصبح والدك في حالة تهيج ثم يذهبان للنوم بعد منتصف الليل وبعد تسعة أشهر تصل أنت حاملاً جثة أليست هذه هي البداية على الدوام.

* أجل على الدوام ثم يطلبون منك أن تغسل جثتك، وتقلم أظافرك وتتعلم حمايتها من البرد.

* جثتك مسؤولية خاصة إن أحداً لا يشاركك هذه المسؤولية.

* أجل، يا بياع الحشيش لا أحد على الإطلاق إلا إذا مت عندئذٍ تصير جثتك مسؤولية البلدية الموقرة.

* ....

عندئذٍ ترد لهم ديونهم وتترك لهم تلك الهدية القبيحة لكي يتصرفوا فيها طبقاً لقانون الدفن. عندئذٍ يرث المجتمع جثتك. وتصير أنت حراً. إنك لن تضطر إلى أن تجلس في المرفأ وتتسول مقعداً شاغراً في الشمس. ولن يقول لك أحد ليست الشمس عربة لجمع القمامة.

* أعطني بقية اللفافة. يقول يوري يناسكين.

1968

28

لا تدعونا نحل مشاكلنا بالأحلام!

قبل أن أتورط في إثارة سخط أحد، أحب أن أقول هنا إنني لا أهدف إلى السخرية بالجهود المرهقة التي تبذل على الدوام لحل مشاكل ليبيا.. ولا أهدف إلى إغراقكم بالنكات أو تشويه حقيقة الصورة التي ترسمونها لأنفسكم، فالواقع أنكم حققتم كل ما توقعه العالم منكم وليس ثمة فرصة لنقاش هذه الحقيقة المحددة.

كل ما في الأمر أنني أحاول أن أعرض أمامكم الآن بضعة حقائق أخرى أكثر قبولاً للنقاش:

الحقيقة الأولى: أن المشاكل مثل الأمراض تتفاوت من الإصابة بالسرطان الذي يسبب الموت على نحو بشع ومؤكد إلى الإصابة بصداع جزئي يحدث نتيجة الإفراط في السهر وينتهي حقاً بحبة أسبرين.

والمرء لا يعالج أمراضه على نحو سواء، أعني أن المرء لا يترك السرطان يأكل قلبه، ويكتفي بعلاج الزكام وحده.. إنه في أسوأ

الحالات لا بد أن ينسى زكامه ريثما يعرف أن السرطان لن يقتله غداً.

الحقيقة الثانية: أن علاج المشاكل ـ والأمراض أيضاً ـ يبدأ دائماً بالتشخيص.. بالدراسة والمقارنة ومحاولة التنبؤ لتحديد منطقة العمل. والمرء ـ عندما يرتكب خطأً هنا ـ يحكم على نفسه بالموت على نحو خالٍ من فضيلة الشجاعة.

الحقيقة الثالثة: أن المشاكل مثل الأمراض لا يمكن علاجها بالنوايا الطيبة أو أكياس الطعام أو الخطب الفصيحة. إنها لا تنتهي قط إلا إذا وجدت نهاية عملية محددة.

أليس كذلك؟

تبقى النقطة الثانية وهي مجرد افتراض. فلنفترض الآن أن مشاكل الشعب الليبي كانت تتمثل منذ البداية في هذه السلسلة بدون ترتيب: انخفاض مستوى المعيشة. انخفاض مستوى الثقافة. افتقار إلى الإيديولوجية. العجز عن مجاراة التقدم الحضاري والتكنولوجي. الارتباط القبلي، سوء العادات الاجتماعية والافتقار إلى المواهب.

والسلسلة المذكورة أعلاه أعيد صياغتها من تقرير اليونسكو عن (الشعوب النامية في العالم) مفترضاً بالطبع أن خبراء اليونسكو اعتبروا شعب ليبيا جزءاً من هذا العالم.

والسؤال بعد ذلك: أين السرطان؟

أعني أين المشكلة الرئيسية التي لا بد أن يبدأ المرء بعلاجها قبل حالة الزكام. وليس ثمة شك أن انخفاض مستوى المعيشة يظل على الدوام مفترق الطرق، فالإنسان ـ أي إنسان ـ يفقد كل اتزانه في قبضة الجوع.

ولكن اللغز: ما هو الجوع؟

هل هو الحاجة إلى الخبز، أو الخبز وشيء آخر. هل هو الحاجة إلى قدر ضروري من الطعام أو إلى قدر أكبر من ذلك؟

وليس ثمة من يعرف إجابة مقبولة لهذا السؤال رغم كل أقوال الفلاسفة، ولكن الواضح أن الإنسان في لحظة معينة من فترة الأكل ينال كفايته، ويبقى ما يأكله بعد ذلك زيادة عن الحاجة من المفروض أن تذهب لعلاج مشكلة أخرى.

ولكي لا أصيبكم بالتعقيد سأقول لكم إن العشرة قروش التي تنفق لشراء طبق من الطعام يزيد عن حاجة الفرد يمكن أن تنخفض إلى خمسة قروش، ويذهب الباقي لعلاج السرطان التالي.

ومع ذلك، فانخفاض مستوى المعيشة لا يعني العجز عن كسب الخبز وحده بل العجز عن امتلاك المأوى أيضاً واللباس الملائم والآلات الملائمة والمدخرات التي يحتاج إليها المرء على الدوام.

ثم ينهض السؤال المحرج:

ما هو المأوى الملائم؟ غرفة واحدة أم عشر غرف.

ما هو اللباس الملائم؟ بدلة من صوف أم عشر بدل من قماش آخر.

ما هي الآلة الملائمة؟ عربة خاصة أم عربتان أم خدمة ممتازة للنقل العام، هل هي مطبخ أمريكي كامل أم مجرد موقد غازي.. هل هي جرار واحد للنقل أم أسطول من الجرارات.

وكم يجوز للمرء أن يدخر؟.. نفقات تعليم أطفاله أم أكثر

من ذلك.. ألف جنيه أم مليونين من الجنيهات.

والأسئلة تثير الصداع، وتثير الريبة أيضاً فالمعروف أن بعض الناس تعتبر الإجابات المحتملة هنا أفكاراً شيوعية خطرة أو رأسمالية أكثر خطراً والمرء لا بد أن يتجنب هذا الفخ قبل أي شيء آخر لكي لا يعوقه النقاش الثانوي عن متابعة القضية.

وقاعدة الإجابة هنا أن المرء يستطيع أن يكسب بقدر طاقته ويمتلك بقدر طاقته ويدخر بقدر طاقته أيضاً تحت شرط واحد أساسي وجوهري ومحدد.

هذا الشرط أن لا يتسبب ذلك في اختلال التوازن العام لمعالجة المشاكل بحسب ترتيب خطورتها على المجموعة.

وذلك يعني أنه لا يجوز تجميد رأس المال في بناء عمارة ما دامت الأمة تحتاج إلى تلك النقود لبناء مصنع، ولا يجوز تجميد رأس المال في شراء الأرض ما دامت الأمة تحتاج إلى تلك النقود لزراعة الأرض. ولا يجوز بيع رأس المال لمصانع السيارات ما دامت الأمة تحتاج إلى شراء آخر أكثر أهمية.

فإذا حدث ذلك..

أعني إذا ارتكب أحد ما هذا الخطأ وقرر أن يعالج زكامه قبل السرطان فإنه يحكم على نفسه بالموت.

والسؤال الذي لن أترك لكم إجابته هو هل حدث ذلك في ليبيا؟

هل فشلنا في ترتيب مشاكلنا طبقاً لمدى الخطر الكامن فيها؟ هل خدعتنا آلامنا فبدأنا بعلاج أهون أمراضنا؟ هل نحن ارتكبنا هذا الخطأ؟

الإجابة بتعقل وبصورة يسهل إثباتها أجل.

فالخطأ حدث على مستوى القاعدة على مستوى الشعب والمسؤولين وحدث بطريقة واضحة إلى حد يؤذي البصر.

نحن رفعنا مستوى الحياة في ليبيا خلال عام 1963 إلى 450 دولاراً في المتوسط وحققنا بذلك أعلى دخل للفرد في شمال إفريقيا.

ثم مرت خمس سنوات وكان من المفروض أن ننتقل لعلاج مشكلة أخرى ولكننا لم نفعل، وقررنا أن نواصل العمل لرفع الحياة بطريق زيادة التوزيع النقدي بين الأفراد وفتحنا مزيداً من البنوك ومزيداً من الشركات الوطنية ورفعنا الرواتب أيضاً متعمدين أن نفتح باب الكسب المادي على مصراعيه ونضع شعب ليبيا في السوق المزدحمة.

والنتيجة أن تحول ذلك الشعب إلى قطيع من السماسرة.

وتحولت ليبيا إلى مهرجان ملون حافل بألعاب الحظ والمرتزقة والمواطنين الذين لا يهمهم شيء سوى زيادة مكاسبهم من الغنيمة. انتقلنا جميعاً من عصر البداوة إلى عصر الانحلال دون أن تتاح لنا فرصة المشاركة في شرف البناء الحضاري.

وبقيت لنا هذه الحقائق المسطحة.

ليبيا أكبر وأغنى من الصومال ولكنها تعيش على معلباتها.

ليبيا أكبر وأغنى من سوريا ولكنها تعيش على زراعتها، ليبيا أكبر وأغنى من الصومال ولكنها تعيش على أغنامها.

ليبيا تملك في منطقة الجبل الأخضر وحده أرضاً زراعية قادرة على توفير الطعام لمائة مليون من البشر وتملك على طول الشريط

الساحلي أرضاً أخرى قادرة على إطعام أكثر من مائة مليون.

ليبيا تملك شواطئ طولها ألفان من الكيلومترات تستطيع أن تمد سكان أوروبا بما يكفيهم من السمك الجيد.

ليبيا عاجزة عن توفير الطعام لنفسها حتى الآن.

فهل يكفي ذلك لإثبات أخطائنا؟

أنا أعتقد أنه يكفي وأن التماس الأعذار لا يحل المشاكل، وأن الطريق الطبيعي أن يبحث المرء عن حلّ محدد.

يبحث عن نقطة المرض.. من السرطان الحقيقي الذي يجب علاجه قبل غيره والطريق لا يجهله أحد.. إنه علاج المشاكل حسب شحنتها من الخطر، والمرء يدرك بطريقة طبيعية أن عليه أن يفلت من قبضة السل قبل أن يفكر في إجراء عمليات التجميل.

فهل ينسى المرء ذلك عندما تتعرض حياة أمة بأسرها للشكوك؟

1968

29

الذي يقال في المدرسة 1 + 1 = 2

الخلق الفني يحتاج إلى موهبة.

وتفهم الخلق الفني بطريق النقد يحتاج أيضاً إلى موهبة. فالمرء لا يستطيع أن يفترض قط أن الفنان الحقيقي معادلة جبرية يمكن حلها طبقاً للقاعدة على الدوام.. وإذا قرر الناقد أن يرتكب هذا الخطأ ويعتمد على النظريات وحدها لتحديد أبعاد العمل الفني، فإنه في الغالب يسيء الفهم بطريقة تدعو إلى الرثاء.

وما دام الفن وحده خلقاً.

ما دام ظاهرة لا يمكن الحصول عليها من حانوت البقال، ولا يمكن بيعها أو شراؤها أو صناعتها في مقاعد الدراسة، فإن النقد أيضاً ـ وهو تفهم الفن بطريق النقاش ـ لا بد أن يمتلك منحة الموهبة قبل أي شيء آخر لكي يجد طريقه، أو يصبح مهزلة تضاهي التزييف الفني نفسه الذي رفضته ثقافتنا في جميع العصور.

ومع ذلك فليس ثمة مدرسة في العالم لا تملك حصة

للبلاغة، وحصة أخرى للأدب، ومعلماً نصف جائع يترنح بحذاء السبورة ويتقيأ لتلاميذه قواعد النقد.

يقول لهم أشياء مدهشة عن أثر البيئة ولعبة الجناس والتقديم والتأخير ونصب الفاعل للضرورة الشعرية، دون أن يخطر بباله أن المرء لا يحتاج إلى نص أدبي لكي يتعرف على هذه اللعب. إنها موجودة في كل نص، أعني حتى في افتتاحيات الصحف التي تكتب عادة من نسخة واحدة.

فالبناء اللغوي شيء.. والخلق شيء آخر.

والفرق بينهما هو نفس الفرق بين طبيعة النوم وبين طبيعة الحلم. فالمرء يستطيع أن يقول ما يشاء عن بيولوجية النوم دون أن يقربه ذلك كثيراً من تفهم الحلم نفسه. والحادثتان رغم اقترانهما الدائم تقعان لأسباب لا علاقة بينها في الغالب.

وهذه مشكلة الفن أيضاً، فالرؤية تحدث في اللغة ـ كما يحدث الحلم في النوم ـ لأنها لا تستطيع أن تجد طريقاً آخر، وتعكس سمات البيئة وملامح الفنان الثقافية كما يعكس أي سائل شفاف لون الإناء الذي يمر خلاله.. ولكن الرؤيا ذاتها ما تزال شيئاً مختلفاً.

وهذه نقطة يسهل إثباتها: فمعلم البلاغة لن يتردد في امتداح الأبيات التالية من قصيدة للمتنبي كتبها خلال إقامته الجبرية في بلاط كافور:

«يقول لي الطبيب أكلت شيئاً
وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه أني جواد
أضر بجسمه طول الجمام

فـأمــسـك لا يـطــال لــه فــيــرعــى

ولا هــو فــي الـعــلــيــق ولا الــلــجــام»

ومعلم البلاغة يستطيع أن يحدد الجمال الشعري هنا عبر هذه القوالب:

1 ـ سلامة البناء اللفظي من الأخطاء.

2 ـ الجزالة والوضوح.

3 ـ مطابقة التشبيه.

4 ـ المحسنات البلاغية في الاستعارات والكنايات الأخيرة والموسيقى الداخلية.

وقبل أن تنتهي الحصة سيقول المعلم إن المتنبي عبّر عن فكرته عندما استعار تشبيهاته من البيئة، وإنه كتب نصاً شعرياً جيداً.

أما النص نفسه فقد نسيه المعلم.

نسي أن المتنبي مضطر ـ رغم أنفه ـ لأن يستعمل بناء لفظياً سليماً، ويختار كلماته طبقاً لدرجة الوضوح والتعبير لكي يقول فكرته.. وأنه لو لم يفعل ذلك لما كتب شعراً على الإطلاق ولما سمع عنه المعلم.

فالبناء اللفظي هنا ضرورة لحدوث الرؤية كما يبدو النوم ضرورياً لحدوث الحلم والمعلم الذي ركز عينيه فوق ذلك البناء لا يفعل شيئاً في الواقع سوى أنه يصف طريقة النوم لدى رجل يحلم بجهنم.

فالمتنبي يعرض هنا شيئاً آخر.

يعرض لحظة الخداع الظاهري بين موقفين منفصلين:

الأول: موقف كافور الذي فرض عليه الإقامة الجبرية في

البلاط معتقداً أنه يستطيع أن يستميله إليه بالطعام والخمور والجواري، ونقطة المقابلة: إصابة المتنبي بالحمى حقاً فوق السطح وسخطه المدفون.

الموقف الثاني: انخداع الطبيب بمظاهر الحمى وتحديده لأسباب المرض فوق السطح وإدراكه للأسباب الحقيقية البعيدة الغور.

ولذا فإن النص هنا يبدأ بنفي صورة ظاهرية. وفيما يعلن الطبيب أن الإصابة بالحمى نجمت عن أكل طعام غير صحي، يقابله المتنبي بصورة أخرى أكثر إيغالاً في العمق، وتتوالى حالات النفي أربع مرات خلال البيتين التاليين:

«وما» في طبه أني جواد
أضر بجسمه طول الجمام

فأمسك «لا» يطال له فيرعى
«ولا» هو في العليق «ولا» اللجام

والرفض تعبير فني عن مشاعر السخط البدائية. ومقابلة الموقفين المعقدين بهذه البساطة تعبير فني لا يستطيع أن يحققه إلا شاعر في مستوى المتنبي. والأمر كله لا علاقة مباشرة له بالبناء اللفظي، فالرؤية هنا مسرح نفسي لحالة من الملل الحاد. حالة تهدف إلى رفض كل الصور وكل التفسيرات الخادعة الميتة فوق السطح وإقرار الحقيقة الأبعد غوراً.

فبلاط كافور مجرد إسطبل معبأ بالخيول السمينة. وفكرة كافور عن المتنبي مجرد وهم يضاهي وهم الطبيب الذي خدعته عوارض الحمى. ونقطة الملل تتمثل في النص عبر وحدتين:

الوحدة الأولى تهديم كل الصور بلا النافية.

الوحدة الثانية التعبير الحاد عن افتقاد الحركة.. فالجواد قتلته الراحة ـ وهو مقيّد، ومقيّد بحبل قصير أيضاً، فإذا أظهر المتنبي شوقه فلا يخطر بباله سوى منحه الحركة التي افتقدها:

تعود أن يغبر في السرايا
ويدخل في قتام من قتام

وهذا البيت بالذات لا يمكن قبوله هنا إلا بتبني منهج التفسير الداخلي.

فهل يستطيع معلم البلاغة أن يكتشف ذلك حقاً؟ هل يستطيع عبور السطح اللفظي إلى قاعدة الرؤية بوسائله المحددة في البناء البلاغي وأفكار الاستعارة وتأثير البيئة؟

أنا أشك في ذلك.

وإذا كانت العشرون عاماً التي قضيتها في الدراسة قد علمتني شيئاً، فقد علمتني أن أشك في ذلك. وأن اعتبر معلم البلاغة ـ مثل معلم الحساب ـ مجرد موظف تؤجره الدولة لكي يقرأ لتلاميذه منهجاً معيناً كتبه موظف آخر.

أما مشاكل الخلق الفني.

وأما مشاكل النقد البالغة التعقيد والعمق فإن المرء لا يستطيع في الواقع أن يجد لها علاقة من أي نوع بما يقال في المدرسة. فالناس هناك مجرد مجموعة من الموظفين البسطاء الذين يتبادلون على الدوام ألقاباً غير محددة فيدعون أحدهم «أستاذ الأدب» وهم يعنون «أستاذ تاريخ الأدب» ويدعون الآخر «معلم النقد» وهم يعنون «الموظف في الدرجة الثالثة الذي يقرأ للطلاب كتاب النقد الخاص بالموظف الآخر في الدرجة الثانية» ويدعون أحدهم «معلم البلاغة» وهم يعنون «المعلم المكلف بقراءة كتب البلاغة

القديمة» والمشكلة تدعو إلى القلق ولكنها أيضاً جزء من الروتين الأكاديمي الذي يدعو دائماً إلى الضحك.

جزء من ضياع الموهبة في زحام الألقاب.

من الموت بالملل أمام مهرج حسن الهندام يتقيأ بلاغة من العقم الذي يغطيه المرء بشهادة نصف مزورة. جزء من خداع النفس والاستهانة بعقول الآخرين والمشي على الرأس بين مقاعد الطلاب.

المشكلة تدعو إلى القلق.. ولكنها أيضاً جزء من الروتين الأكاديمي الذي يدعو دائماً إلى الضحك.

وفي زحمة المهرجان الحافل بأربطة العنق تبقى الحقيقتان المسطحتان أكثر ثباتاً: الخلق الفني موهبة وثقافة والنقد أيضاً ثقافة وموهبة.

وما دام المرء لا يستطيع أن يصنع فناناً في إحدى الكليات كما يصنع طبيباً أو مهندساً.. ولا يستطيع أن يشتريه أو يستورده من الخارج. فإن الناقد أيضاً لا يمكن صناعته ولا يمكن استيراده.

إنه يولد بعينين مختلفتين ويرى العالم رؤية خاصة.

أما الباقون فيولدون ـ في الغالب ـ مثل صغار القطط بأفواه مفتوحة قادرة على العض.

ويولدون ـ دائماً ـ برباط عنق بدل المخالب.

1968

30

مشكلة الأرض

ليبيا ليست بلداً صناعياً..

إن أحداً لا يستطيع أن يزعم ذلك، أعني حتى إذا كان المرء يريد أن يكذب، فإنه لا يستطيع أن يجازف بالمضي إلى هذا الحد. فالأكاذيب والخطب الجيدة والأشعار التي تقال في المناسبات السعيدة لعب أكثر بدائية من أن تجرؤ على تزييف الواقع المتناهي الكآبة الذي يطلع لنا لسانه في وسط السماء.

والحقيقة ببساطة أننا لسنا بلداً صناعياً، ولا نستطيع أن نكون كذلك خلال ثلاثين عاماً من الآن.. فالصناعة حرفة باهظة الثمن تحتاج إلى مستويات خاصة من الخبرة والمهارات والنظم المالية المعقدة، ونحن في ليبيا لا نملك ما يكفي لصناعة علبة سردين عادية.

فهل نحن بلد زراعي على الأقل؟

الإجابة بغير تعمد للسخرية: نحن لا شيء.. إننا مجرد أمة عجوز تجلس في شمس إفريقيا المحرقة وتغسل قدميها في مياه

البحر والمطر وتبيع براميل الزيت. وإذا كنا قد حققنا خلال مجموعة السنوات الماضية أكثر من قفزة في ميدان التعليم والتشريع والنهوض بمستوى الحياة المادي، فإن الأمر ما يزال مجرد عمل فوق السطح. أعني مجرد محاولة لترميم جدارنا المتهدم ولكن ليس لإعادة بنائه.

فالبناء يبدأ من إقامة الأساس..

ويبدأ بالمسح الشامل وتوفير الطاقة المطلوبة وإعداد الخطط، ونحن ـ رغم كل نوايانا الطيبة ـ لم نتجه قط لمواجهة هذه الحقائق المتسمة بالأصالة، لقد فعلنا كل ما في وسعنا لمنح المواطن الليبي فرصة «الاستمتاع بخيرات بلاده»، كأن اللّه قد ألزمنا ببناء الجنة في صحراء ليبيا، وفعلنا أكثر مما في وسعنا لإشباع رغبات الفرد الصغيرة من زيادة الرواتب مرتين في الشهر إلى توزيع علاوات السكن فوق الرصيف ورغم كل جهودنا اليائسة فإن المواطن الليبي ما يزال ـ مثل جهنم ـ يطلب المزيد، وما تزال الحقيقة القديمة أكثر ثباتاً: إن الإنسان لا يشبع. ولو كان يريد أن يفعل ذلك لما خرج من الجنة أصلاً.

فلماذا ندق رؤوسنا في الحائط؟

ولماذا نواصل لعبتنا المرهقة لشراء سعادة الإنسان الليبي بنقود براميل الزيت؟ فالواقع أننا عبر هذا الخطأ نصيب أنفسنا بالدوار مرتين، ونملأ بطن مواطننا بالطعام ونضعه في الشمس لكي يحلم برمضان المعظم وفضيلة الجوع.

ثم تعتريه أعراض التخمة، ويتورم بطنه مثل برميل الزيت ويقتله الملل على الرصيف، ويقتله أيضاً في الطريق إلى أثينا.. وتصبح ليبيا مقبرة المواطنين السعداء.

فلماذا ندق رؤوسنا في الحائط؟ ولماذا نصر على بناء الجنة في الطابق الأول من الجحيم. إن اللّه نفسه لم يشأ أن يجعل الحياة مجرد نزهة عابرة حول مائدة الطعام. وقد طردنا من الجنة لأنه أكثر حكمة من أن يترك الإنسان ينبت هناك في الظل مثل بقية الأشجار.

الإنسان ليس شجرة. إنه الحيوان الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يفرز العرق، وإذا كان اللّه لا يخلق شيئاً عبثاً، فلا بدّ أنه صنع العرق لكي نروي به حقولنا.

فدعونا نتفق على صيغة للنقاش: إننا لا نستطيع أن نشتري سعادة المواطن ببرميل الزيت، فذلك في الواقع مجرد نوع من حشد المواطنين في تكية مقامة بالمجان، إن الإنسان خلقه اللّه لكي يعرق ويدفع ثمن كل كسرة من الخبز وليس في وسعنا على الإطلاق أن نتجاهل هذا القانون دون أن نتورط في عملية انتحار جماعية.

وإذا ظل في وسعنا أن نمنح كل مواطن ليبي تذكرة دخول مجانية إلى الجنة، ونمنحه بيتاً وعشر عربات ورصيداً في البنك وقارباً شراعياً وأربع زوجات، فإننا ـ في نهاية المطاف ـ لن نجعل منه شيئاً سوى وريث عاطل يتسكع بلا هدف على هامش العالم ريثما يموت بالسكتة القلبية. وهذا ليس مكافأة من أي نوع، إنه في الواقع أسوأ طريقة للتعذيب، فالمرء لا يستمتع بالحياة إلا إذا رواها بعرقه يوماً بعد يوم، أعني رواها بعرقه وليس ببرميل الزيت.

فدعونا نتفق على صيغة للنقاش: المواطن الليبي السعيد لا بد أن يدفع الثمن.. إنه لا يجوز أن يعيش مثل المواطن الأمريكي قبل أن يدفع الثمن مثله، وإذا لم يكن بوسعنا إقناعه عندما يصبح جثة هامدة على رصيف التكية.

وذلك يعني أن مواطننا الليبي لا بد أن يستعد بطريق أو بآخر لمواجهة الحياة بقليل من العرق، وأن ليبيا لا بد أن تحزم رأيها ـ قبل غروب الشمس ـ لمواجهة قطعان الورثة بكثير من الحزم وفرض الحل الوسط ومشاكل المجاملة.

وإذا كنا لا نستطيع أن نبني بلداً صناعياً في صحراء ليبيا، فلا بد أننا نعرف على الأقل مدى إمكانياتنا في بناء بلد زراعي حديث داخل تلك الصحراء نفسها بعد أن يرويها المطر وعرق المواطنين.

وأنا أحاول أن أقول هنا إن ليبيا مضطرة ـ الآن أو غداً ـ إلى فرض قانون حازم فيما يخص مشاكل الأرض والإصلاح الزراعي وملكية التراب الخصب الممتد على طول الساحل. وإذا كان ثمة طريقة أخرى لصياغة هذه الجملة بوضوح أكثر، فلا بد أن أضعها على هذا النحو: ليبيا مضطرة ـ الآن أو غداً ـ إلى الاستيلاء على الأراضي الزراعية وإعادة توزيعها.

فنحن لا نستطيع أن نتجنب المواجهة إلى الأبد.

ولا نستطيع أيضاً أن نواصل مجاملة الفلاح البدائي الذي يضع يده الآن على الأرض باسم قبيلته ويحيطها بسور من الأحجار ويركز بندقيته في وسطها. فالأرض لا تنبت بنادق. وليبيا الفقيرة لا تحتمل تلك اللعبة الموغلة في البدائية. إنها مضطرة للدفاع عن رغيف خبزها الآن أو غداً. وإذا كان الفلاح الليبي عاجزاً عن صناعة ذلك الرغيف بعرقه، فلا بد أن نقول له الآن ذلك ولا بد أن نواجهه بحزم ونكسر بندقيته فوق رأسه لكي يخلي الأرض لمن يستطيع أن يعطي ليبيا رغيف الخبز.

اللعبة مسطحة وبسيطة وغاية في الوضوح. إن النظام القبلي

الذي يسيطر الآن على توزيع الأرض هو بالضبط أسوأ أعداء النشاط الزراعي. وليبيا ـ التي لا تملك فرصة التصنيع ـ لن تجد مفراً من اللجوء إلى الإصلاح الزراعي الآن أو غداً. وذلك يعني على وجه التقريب، إصلاح نصف الفلاح الذي يضع بندقيته في وسط الحقل ويتركها تغتسل في المطر.

ذلك الرجل لا بد أن ينقرض. إن الأمر لا يحتمل الحل الوسط. وإذا كان نفوذ القبائل يقف عائقاً في وجه الإصلاح، فإن ليبيا لن تجد مفراً أيضاً من إعادة توجيه ذلك النفوذ لخدمة مصالح الشعب بدل زيادة متاعبه..

إذن..

لا بد أن يصدر القانون لكي يضع كل مالك للأرض في بلادنا أمام كلمتين: ازرع أو تخل عن الأرض. إن الأمر لا يحتمل المجاملة، ولا يحتمل اللعب بنقود البنك الزراعي وقروض الحرث والحصاد.. وليبيا مضطرة إلى متابعة الإصلاح حتى خط النهاية، ومتابعة كل فلاح وكل شبر من الأرض لتحديد كمية العرق والإنتاج والمكافأة والعقاب، فإذا كان الفلاح الليبي عاجزاً عن إجابة مطالب القانون، فإن ليبيا تستطيع أن تضع الأرض في عطاء عالمي وتملأ حقولنا بالقمح والجرارات.

وزراعة الأرض عن طريق العطاء حل يفي بكل حاجاتنا، فالعالم مليء بالرجال الجياع، والشركات الكبيرة لن تتردد قط في المجيء إلى بلادنا والعمل في حقولنا إذا أتحنا لها فرصة عادلة للكسب. إن البنك الزراعي يستطيع أن يساهم في التكاليف، والشركات تستطيع أن تمدنا بالآلات واليد العاملة، وما دام العمل كله مجرد مشروع تجاري يهدف إلى تحقيق الربح أمام

الطرفين، فليس ثمة شك أننا سنجد أكثر مما نتوقع من التجار والشركات.

وخلال موسم العمل، لن يفقد الفلاح الليبي فرصته، فهو سينال على الأقل نقود إيجار الأرض وينال أيضاً أكثر من فرصة للحصول على التدريب والخبرة الكافيين. ويتعلم ـ في نهاية المطاف ـ فضيلة الحياة داخل الحياة.

زراعة الأرض عن طريق العطاء فكرة لم تنفذ حتى الآن على نطاق واسع. ولكنها بالنسبة لنا في ليبيا الحل الوحيد الذي لا نملك سواه. وما دام فلاحنا البدائي لا يريد أن يفعل شيئاً سوى أن يستولي على نقود البنك الزراعي ويتزوج جارته البلهاء مصراً على أن يزرع بندقيته في وسط كل حقل. وما دام اللّه نفسه قد أقام نظام العالم على بحر من العرق والفؤوس، فإن بلادنا ـ في الواقع ـ لا تملك فرصة واحدة لمواصلة بقائها إلا بالإصرار على رفض الحل الوسط وغسل يديها من قطعان الورثة التعساء، فدعونا نفعل ذلك.

ودعونا نغلق أبواب التكية المقامة فوق براميل الزيت، ونعلن لمواطنينا عزمنا على العمل بحزم، وبعنف إذا لزم الأمر، من أجل تنفيذ إرادة اللّه.

فإذا كان مواطنونا قادرين على مواصلة الحياة، فلا بد أن الإصلاح لن يقتلهم، وإذا كانوا مجرد مجموعة من الدراويش الذين يعيشون على صدقات شركات البترول، فلماذا ندق رؤوسنا في الحائط؟

أجل لماذا؟؟ من أجل الدراويش؟!

1968

31

أربعة خطوط مستقيمة!!

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

اذهب إلى مكة. أقول لك.

اتصل بمكتب السفريات واحجز لنفسك مقعداً إلى مكة. ودع المطوف يقودك في زحام المتقين ويعطيك حصتك من المغفرة.

دعه يرشدك إلى طريق الصلاح، فأنت غريب في هذه المنطقة.. وأنت لا تعرف سوى أزقة بنغازي وإذا قررت أن تعتمد على تلك المعرفة لكي تجد طريقك في مكة بدون مطوف، فمن المتوقع أن تقودك قدماك إلى طهران.

اشتر مطوفاً.. أقول لك.

اشتر حبيب الفقراء وتعلق به مثل قرادة، فإن ذلك الرجل قد احترف قيادة القراد إلى طريق الصلاح وحده رغم تعدد الطرق.

ذلك الرجل يستطيع أن يغسلك من ذنوبك كما يغسل المرء

حصيره القديم على شاطئ الصابري. معذرة! الطواف يغسل أكثر بياضاً: ولكني أردت أن أوضح لك الأمر.

فإذا انتهى الموسم وعدت إلى بنغازي محملاً بالسجاد والأواني النحاسية، فلا تنس أن المرء في الواقع لا يغير حياته خلال أسبوعين في مكة. ولا تترك أحداً يطالبك بتلك المعجزة، قل لكل من تراه: لقد كانت رحلة عظيمة، ولكن بنغازي شيء آخر.

ثم تذكر أن تطالب بعلاوة الحج عندما تعود لاستئناف عملك، فالمرء لا يفعل في ليبيا شيئاً بالمجان.. والقرش الذي تسرقه أنت خير من القرش الذي يسرقه رئيسك. فأنت ـ على الأقل ـ حصير مغسول.

بعد ذلك.. بقي أمر المقهى..

فقد حدث ـ خلال غيابك في مكة ـ أمور كثيرة جداً لم تستطع أن تقرأها في الصحف السعودية الضئيلة التوزيع. أمور هامة منها، أن يارينج ـ الذي قلت أنت عنه إنه جاسوس إسرائيلي ـ قد فشل في مهمته بطريقة تبعث على اليأس.. وظلت مشكلة الشرق الأوسط تبحث عن حل في مقاهي بنغازي رغم غيابك.

فماذا حدث؟

الروسيا لم تطلق أياً من صواريخها الذرية على إسرائيل كما تنبأت أنت. وقد خطب المدعو كوسيجين في الأسبوع الماضي وتطاير الشرر من عينيه حتى أضاء جبل القوقاز ولكنه لم يذكر شيئاً عن الصواريخ الجديدة التي قلت أنت إنه سيضرب بها قطع الأسطول السادس.. ولعلك ما تزال تعتقد أن كوسيجين رجل

يريد الحرب بأي ثمن، أما الثابت لدى معظم الناس فإنه لا يحب أن يتورط في أية معركة حقيقية قبل أن يتم بناء قواعده السرية فوق سطح القمر.

والمعروف أن الروس أطلقوا سفينة فضاء جديدة خلال غيابك، وذكروا أنها مزوّدة بصواريخ لتدمير أمريكا في حالة الحرب.

هذه الإشاعة التي لم تسمعها أنت في مكة ـ ظهرت عندنا بعد أن ثبت لرواد المقهى أن الصين الشعبية لن ترسل مائة مليون متطوع لكي يأكلوا إسرائيل.. وأن الفيت كونغ ـ الذين قلت أنت، إنهم يصلون إلى صحراء سيناء بالآلاف ـ قد غيروا خططهم واكتفوا بالقتال من أجل فيتنام وحدها.

الواقع أن كل ما قلته لنا بخصوص حال العالم قبل أن تذهب إلى مكة لم يحدث. ولعلك في حاجة إلى أن تشكر اللّه لأنك لم تتورط في مراهناتك القديمة، فالمرء لا يستطيع أن يتصور أنه كان بوسعك أن تدفع تلك المراهنات دون أن تضيع أجرة السفر.

أما بنغازي فهي كما تركتها.

أعني كما تركتها بالضبط.. لم يمت أحد، لم يعش أحد.

والبلدية لم تصلح الشارع.. لقد بعثت خمسين عاملاً لكي تردم الحفرة الصغيرة التي حفرها الأطفال بأظافرهم في الشارع الخلفي حيث يسكن الوزير كما قلت لنا، ولكنها لم ترسل نصف عامل لإصلاح شارعكم.. وإذا كانت البلدية ـ كما تعودت أن تدعوها قبل أن تذهب إلى مكة ـ مصلحة المصلحة، فإنها بالتأكيد لا تعتقد أنها في حاجة لأي من سكان زقاقكم المعتم.

حتى جاركم ـ الذي تزوج ابنة المدير ـ لم يستطع أن يلفت انتباه البلدية.. وقد زعمت أنت لنا أن هذا الزواج سيكون في صالح الزقاق، وأن المرء سيخرج من بيته ذات يوم ويجد حديقة ونافورة في وسطه، ويجد شركة الحافلات قد وضعت في خدمته ثلاثة أتوبيسات من ماركة النمر.

لم يحدث ذلك. لم يصل الأوتوبيس.. لا نمر ولا حمار سوى أطفال.. أطفال.. على مد العين أطفال.. فماذا كنت تقول قبل أن تذهب إلى مكة.

وزارة الأشغال ـ كما تركتها ـ تبيع الشموع.

ورغم أن المسؤول الذي زعمت أنت أن صهره يملك شركة لاستيراد الشمع من إيطاليا قد ذهب من الوزارة فإن النور لم يصل بعد وما زال زقاقكم يغرق في الظلام مجرد أن تغيب الشمس.. وما زالت الشمس تغيب.

وزارة الأشغال ـ كما تركتها ـ توزع العطاءات.

وقد قيل في المقهى ـ أثناء غيابك ـ إن العطاء الخاص بإنشاء كوبري إلى أثينا قد حسب من المزايدة بعد أن اتضح لرواد المقهى أن المرء يستطيع أن يحصل على نفس البضاعة من تونس، وبأسعار مخفضة للغاية إلى جانب اتقان اللسان العربي. مما دعا أصدقاءك ـ الذين عادوا من مكة في العام الماضي ـ إلى المطالبة بطرح عطاء جديد لإنشاء سور حول حدودنا مع تونس.

المعركة ما تزال قائمة. طرف يطالب بكوبري إلى أثينا وطرف يطالب بسور حول ليبيا، والمشكلة بين المتخاصمين أن أحدهما ذهب إلى مكة وأن الآخر لا يريد أن يذهب إلى هناك قبل إنشاء

الكوبري.. إنها مشكلة حسد كما ترى ولكن المرء بالطبع لا يجوز أن يوغل في نقاشها إلى هذا الحد.

المدارس كما تركتها. لا تفعل شيئاً، ولا تريد أن تفعل شيئاً سوى أن تعلم الأطفال مزيداً من حيل النصارى لكي يفسدوا دينهم ودنياهم. ولعلك رأيت بنفسك أن هذا المرض قد وصل إلى كل مكان.. حتى إلى السعودية. وأن الأولاد والبنات يمشون حاسري الرؤوس، ويقرأون فضائح الجغرافيا. ويدعون السلطان عبد المجيد زير النساء، وذلك الرجل الذي أوقف حياته على إنشاء المنائر البحرية وطباعة دلائل الخيرات.

البيت كما تركته.. ولكن السيدة حرمك تغيرت كثيراً.

إنها تملك الآن في رأسها العادي الحجم أحلاماً مذهلة بعرض السموات. أحلاماً تجعل جلد المرء يقشعر من الذعر، سوف تعصرها لك جميعاً في كلمة واحدة عندما تنسل وراء ظهرك وتقول لك بصوت ناعم (يا حاج).

إنها تعني أنك قد صرت عجوزاً.

وإنها أيضاً قد صارت عجوزاً، وأصبح في وسعها أن تذهب لزيارة الجيران مرتين في الشهر، وتذهب لعلاج عينيها في المستوصف العام.. وتطلع رأسها لكي تشتري ربطة الفجل من البائع المتجول.

إنها تعني كل ذلك. فالنساء الليبيات يتعلمن بالوراثة أن كلمة «حاج» تمثل عصراً جديداً بالنسبة لهن.. عصراً مثيراً مليئاً بالأشياء والمرء لا بد أن يكون على حذر عندما يعود من مكة.. ولا بد أن يقنع حرمه بأن الحج لا علاقة له بالبيت في بنغازي.

أجل.. المرء لا بد أن يكون على حذر، فالعجوز الليبية التي

قضت خمسين عاماً جالسة على الحصير في انتظار الفرج من مكة لن تستسلم بسهولة. إنها ستلجأ إلى كل الحيل المعقدة لكي تطلع رأسها وتشتري ربطة الفجل من البائع المتجول أو تذهب إلى المستوصف لعلاج عينيها.

وعندئذٍ يسقط سقف العالم يا أحسن الحجاج.

1968

32

القارب

«أنت تعتقد أنك وحيد لأنك بدأت تتحدث مع نفسك ولكنك في الواقع أكثر وحدة عندما تتحدث مع الآخرين».

الوقت في هلسنكي منتصف الشتاء.

والنهار طوله عقلة أصبع والسموات تجلس على حافة السياج، والشتاء بغل جهنمي يعمل في جر عربات الثلج، والشوارع تتضوع بروائح القهوة والسجق الناضج.

الوقت في هلسنكي منتصف الليل، وليس ثمة أحد في محطة القطار سوى «موناليزا» العاهرة وشرطي واحد أحدب الظهر يريد أن يشتري «موناليزا» بثمانية ماركات. والأضواء الزرقاء في الخارج تلعق الرصيف.

أنا أريد أن أعرف لماذا تفضل الأضواء أن تلعق الأرصفة، أعني لماذا لا ترتفع إلى أعلى مثل الغبار وذرات التراب والبالونات، أعني لماذا يسقط الضوء إلى أسفل؟

والشرطي البسيط التركيب يحاول أن يشرح لي تلك المعجزة ويراقب «مونا ليزا» أيضاً لكي لا تغادر المحطة بدونه. والفتاة الحمراء تبتسم بيأس عند شباك التذاكر المغلق وتحاول أن تلفت نظري إلى أنها تحتاج إلى لفافة تبغ.

* أنا يا سيدتي لا أشرب الدخان، أعني أنا آسف ولكني لا أدخن على الإطلاق.

وتقول بلباقة: هل قلت لك شيئاً عن التدخين؟ اسمع. هل قلت لك شيئاً؟

* أنت قلت ذلك بعينيك يا سيدتي.

* هل قالت لك عيناي اعطني لفافة تبغ؟

* لا.

* إذن دعني وشأني. أعني دعني وشأني، أو اعطني لفافة.

* لا.

ويمد الشرطي يده البسيطة التركيب بلفافة التبغ، وتقول «موناليزا» عبر سحابة الدخان ـ كيف حال القرود الذين تدعوهم أصدقاءك؟

* بخير.

* كلهم؟

* أجل ما عدا السيدة «لينا مايارفا» التي ماتت في حادث سيارة.

ويقول الشرطي فجأة: «لينا مايارفا»؟ أنا أعرفها. إنها امرأة طويلة القامة ترتدي معطفاً من الفراء وتقود سيارة ذات مقعدين، اسمعوا، تلك السيدة أنا نمت معها مقابل خمسة ماركات.

* أنت شرطي كذاب بسيط التركيب.

* ماذا؟

* أنت شرطي فحسب.

وتقول موناليزا بغضب: لماذا تشتمه؟ إن لينا امرأة عاهرة حقاً وأنت تعرف ذلك. أنت دعتك مرة إلى بيتها.

* أنا لم يدعني أحد للذهاب معه إلى بيته.

* احلف.

* أجل. لماذا لا أحلف؟ هل تختارين مرابطاً من هنا؟

* مرابط من هنا، وآخر من بلدكم.

ويقول الشرطي فجأة احلف بالقديس ماكوفيتشي. إنه يكفي وحده لأن يكسر عنقك إذا كنت تكذب علينا. ولكن دعني أحذرك أولاً. إن ذلك القديس يستطيع أن يكسر عنقك حقاً. إنه أسوأ قديس لدينا وقد تعوّد أن يأخذ كل عام خمس رقاب.

ويصل قطار الساعة الثالثة ويفتح قاطع التذاكر البوابة الحديدية المؤدية إلى الأرصفة ويترك قبعته تسقط فوق عينيه فيما يضع الركاب تذاكرهم القديمة أمامه على الرف ويغادرون المحطة عبر النفق.

ويقول الشرطي: احلف بالقديس ماكوفيتشي.

* لا.

* لماذا؟

* لأني لا أعرفه، أعني لأني لا أستطيع أن أحلف بشيء لا أعرفه، ثم إنني أفضل مرابطاً من بلادنا.

وتضع موناليزا يدها فوق كتفي وتسألني ببلاهة عما إذا كنت

سأختار مرابطاً مزيفاً إذا سمحت لي أن أحلف بواحد من بلادنا.

لا ـ أعني أنا لن أختار واحداً مزيفاً بطريق العمد. إنني سأحلف بمرابط حقيقي، أعني برجل ميت معترف به ولكني لا أستطيع أن أضمن أكثر من ذلك.

ويقول الشرطي البسيط التركيب: هذا طريق مسدود. نحن لا نستطيع أن نضمن ذلك أيضاً. اسمع لماذا لا تذهب إلى بيتكم وتتركني أجرب حظي مع هذه السيدة؟

* بثمانية ماركات؟

* أجل بثمانية ماركات، هل تعتقد أنها لا تكفي.

* لا تكفي.

* لماذا.

* لأن موناليزا امرأة أوروبية أعني إنها امرأة أوروبية شقراء. وأنا لا أستطيع أن أتصور أن أحداً في العالم يجرب حظه معها بثمانية ماركات.. اسمع لا تقاطعني إن هذه الفتاة تستطيع أن تكسب ثروة كل ليلة لو كانت تقيم في بلد معين.

● بلد معين؟

●أجل. أنا لن أقول لك اسمه ولكني أقسم لك هذه المرة بالقديس ماكوفيتشي أن موناليزا المتواضعة النشأة سوف تكسب هناك ثروة كل ليلة إذا قررت أن تجرب حظها مع متعهدي تموين العمال ومقاولي الأشغال العمومية.

ويقول الشرطي باستياء: هل تحاول الآن أن تفسد أخلاقها. اسمع. لماذا لا تعود إلى بيتكم وتتركني أجرب حظي بثمانية ماركات قبل أن تسمعك موناليزا.

وتضحك الفتاة الحمراء عند شباك التذاكر وتعلن بسخرية أنها سمعت كل ما قلته وأنها لا تصدقني لأنها تعتقد أن ذلك البلد لا يوجد إلا في الخرافات الشرقية.

* إنه يوجد هنا على الأرض أعني الآن في هذا العصر ويمتلئ بمتعهدي تموين العمال الذين يسرقون علب السردين لكي يدعونك أنت لوجبة كافيار.

ويقول الشرطي ببلاهة لكن موناليزا لا تساوي أكثر من ثمانية ماركات. أعني مثل علبة السردين بالضبط فلماذا يتعب المتعهد نفسه في شراء الكافيار.

* لا أدري. إن متعهدي تموين العمال لا يفكرون مثلنا.

وتقول موناليزا دعني أعرف اسمه. ألا يملك ذلك البلد اسماً على الإطلاق؟

* اسمه لا شيء. اذهبي إلى الجحيم.

ويصل قطار الساعة الخامسة ويفتح قاطع التذاكر البوابة الحديدية المؤدية إلى الأرصفة ويترك قبعته تسقط فوق عينيه فيما يضع الركاب تذاكرهم القديمة أمامه على الرف ويغادرون المحطة عبر النفق.

ويقول الشرطي البسيط التركيب: لماذا لا تذهب إلى بيتكم؟

* أنا لا أملك بيتاً.

* وماذا تدعو كهفكم في مانرهايم؟

* كهف. أعني ذلك عرين أضع فيه طفلي والآلة الكاتبة لكي لا يسرقها لصوص هلسنكي البلهاء.

وتقول موناليزا بصوت واهن يشبه صوت سمكة ميتة في

علبة سردين: إنه لا يملك بيتاً على الإطلاق، ولا يملك طفلاً أيضاً. اسمع، إن كل ما لديه آلة كاتبة مثيرة لضحك. يا إلهي تلك الآلة السخيفة أإنها تكتب من اليمين إلى الشمال وتطلع خطوطاً غاية في البشاعة.

* خطوط؟

* أجل. أعني حروفاً بشعة مثل الكتابة.

ويقول الشرطي بأناة إنها كتابة أيضاً. ما الذي يدعوك إلى العجب، إن العرب شعب عاقل من جميع الوجوه تقريباً.

وأضع مرفقي على كتف موناليزا العاهرة وألفت نظرها إلى أنها قد جرحت شعوري، وأنني لا أحب أن يضحك أحد ما على آلتي الكاتبة بما في ذلك السيدات اللاتي يجلسن في محطة القطار ويبعن الحب والجيلاتي بثمانية ماركات، ثم ألفت نظرها إلى أن آلتي الكاتبة لا تثير الضحك على الإطلاق.

* إنها آلة مقززة هائلة الصوت تجعل المرء يموت من الضحك.

* هذا كذب محض.

ويقول الشرطي إنه لا داعي للشجار، وإن صديقته سوف تعتذر لي بشأن ما قالته عن الآلة الكاتبة إذا كان ذلك كذب حقاً، أو تحلف بالقديس ماكوفيتشي.

ويهطل الثلج عبر أضواء المصابيح الممتدة على طول الشارع وتهمي الندف البيضاء الرقيقة الحواشي على أرفف المنازل والأرصفة كأن كل طيور العالم بدأت تنفض ريشها هناك ويصل قطار الساعة السادسة ويخوض في الثلج إلى نهاية الرصيف.

ثم تسقط مواشير الضوء الرمادية..

وتزحف السحب فوق سطح البحيرة المتجمدة، وتهبط موناليزا منحدر الشاطئ لكي تتبادل الحب مع الشرطي.

ثمانية ماركات، هذا ثمن علبة سردين، ولكن كم يساوي القديس ماكوفيتشي؟

1969

33

أقدم لك نفسي..

ماذا يحدث عندما يقع المرء فريسة الغربة والكونياك والغضب؟

سوء الحظ عادة ضارة مثل التدخين.. أنا وجدت ذلك في أحد كتب الحكمة، ووجدت أيضاً أن سوء الحظ يصيب المرء بالسرطان.. ويجعله يمشي أثناء نومه ويجر حقيبته وراءه ويخوض في الأمطار على طول قرى الصيادين المقامة فوق تلال البلطيق، وعندما تنقطع أنفاسه من المشي ويقرر أن يضع ترحاله في أول مكان يصادفه، فإن سوء الحظ يجعله يصادف نزل «الدب الذهبي» الذي يمتلكه «نيكولاس مالنوف» في مدينة (أولو)، ويتركه يسقط فريسة الكونياك المحلي طوال عطلة الأسبوع.

● هذا ما يفعله سوء الحظ. ويترك العجوز نيكولاس يضع يده اللزجة فوق كتفي كأنه يعرفني منذ ألف سنة ويسألني عن اسمي توطئة للدخول في حديث فضولي عن شيء ما يخطر بباله.

ـ ليس لي اسم.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء.. اسمي جنكيزخان.. أعني جنكيزخان الفظيع ابن الحاجة مقبولة.. هذا اسمي بالكامل. هل تحتاج إلى مزيد من التفاصيل؟

ويقول سوء الحظ أو العجوز نيكولاس.. أنا لم أتعلم قط كيف أميز بين صوتيهما. إن أحدهما على أي حال يرفع رأسه القبيح في دهشة ويقول لي: دعنا نشرب..

ـ لا..

ـ لماذا؟

ـ لا شيء.. دعنا نشرب زجاجة الكونياك. إن ذلك جزء من اللعبة على أي حال وما دام المرء قد جاء إلى نزل الدب الذهبي فليس ثمة ما يدعوه إلى رفض زجاجة من أي شيء.. دعنا نجلس هنا بجانب هذه الأيقونة ونسكر بأمانة.

ويبتسم لك سوء الحظ.. أعني العجوز نيكولاس، ويسحب قبعته القش إلى الوراء ويتركك تجلس بجانب الأيقونة فيما يعمل بأصابعه اللزجة في إعداد قطع الليمون فوق طبق المزة.

وتهب الرياح الشمالية عبر شقوق الباب. وتبعثر فوق مائدتي أصوات الناس والكلاب والقطارات وتضوع الرائحة على مدى السموات الصلعاء الخالية من الود، وأتذكر على الفور أنني جئت إلى هنا نتيجة سوء الحظ.

دعنا نعد إلى هلسنكي هكذا أقول في ذات نفسي. دعنا نهرب من هذا المكان الفظيع ونعود إلى السيدة ناتالينين.. إنهم هناك على الأقل لا يقدمون الكونياك بقطع الليمون. ثم إن المرء

يستطيع أن يقتل الوقت بممارسة بعض الحب.. فلماذا لا نترك هذا العجوز وشأنه ونعود على الفور.

● ويمد نيكولاس يده اللزجة بقطعة الليمون ويسألني برزانة متعمدة بحثاً عن مقدمة لحديث ما: من أين جئت؟

ـ من الجحيم؟

ـ أعرف.. يقول العجوز نيكولاس نكاية بي.. إن سلوكك الشرس ينم عن ذلك.. ماذا دهاك لماذا تتحدث بشراسة هكذا، يا إلهي، أنا لم أر مخلوقاً مسعوراً مثلك.. لقد حاولت أن أكسب صداقتك، ولكنك لا تبدو أنك في حاجة إلى أحد.

وينهض العجوز مكسور القلب، ويدب ببطء إلى ركنه المعتم وراء حافة البار ويترك قبعته القش تسقط فوق عينيه في محاولة محزنة لإبداء بعض الكبرياء.. وتضوع رائحة الكونياك عبر السموات الصلعاء الخالية من الود، وأشعل لفافة أخرى وأتذكر على الفور أنني كنت حقاً سيئ الطباع تجاه نيكولاس مالنوف، وأنني عاملته بفظاعة دون مبرر.. فالعجوز البائس ليس مسؤولاً عن فضائح سوء الحظ.. إنه أيضاً بدوره مجرد ضحية مثلي لسوء الحظ نفسه.

* وأقول له: عد إلى هنا. أنا لم أتعمد أن أكون شرساً معك.. كل ما في الأمر أنني أشعر بالضيق، وأشعر كأنني ثعلب مشنوق في كرمة العنب.

ـ اشرب زجاجتك وحدك.

ـ أنا أشعر بالضيق، هذا كل ما في الأمر، أعني مثل شعورك بالصداع أو بوجع الأسنان. إن المرء لا يعرف لماذا يحدث ذلك.. تعال إلى هنا.

ويقول العجوز الجريح الكبرياء اشرب زجاجتك وحدك.. أنا لم أعد أرغب في الجلوس معك.. إنك تجعلني أشعر كأنني أجلس في عربة الموتى..

ـ تعال إلى هنا.

ويدب العجوز بتثاقل متعمد من وراء حافة البار ويحضر معه بعض قطع الليمون ونشرب معاً نخب الدب الذهبي، ثم يقول لي العجوز إن النزل تمّ بناؤه منذ عام واحد فقط، وإنه اختار له اسم «الدب الذهبي» لأن بقية الدببة التي تعيش في المنطقة كلها رمادية اللون ووسخة ومنتنة.

ـ اتفو..

ـ ماذا دهاك الآن؟

ـ لا شيء.. أنا أشعر بالضيق، هذا كل ما في الأمر وأشعر مثل دب مات فجأة على بعد متر واحد من خلية العسل.. إنني لا أستطيع أن أستمع إلى قصصك السخيفة عن حانتك. هذا كل ما في الأمر. دعنا نتحدث عن شيء آخر دعنا نتحدث عن الضيق وسوء الحظ.

ويمنحني العجوز ابتسامة بلهاء مع قطعة الليمون ويدعوني إلى أن أشرب لكي أتغلب على شعوري بالضيق، ثم يرفع قبعته القش عن عينيه الفضوليتين ويستند في مقعده ويسألني برزانة متعمدة عما إذا كنت أعتقد حقاً أنني مصاب بسوء الحظ.

ـ أجل يا سيدي، أنا مصاب بذلك المرض المزري.. إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال ذلك.. إنني مصاب به بصورة مضحكة وقد تعلمت أن أعيش معه، وتعلمت أن أحتمل مقالبه المزرية، ولكنني أحياناً أقع فريسة الغضب عندما أكتشف أن هذا

المرض الفظيع يحاول أيضاً أن يتعلم ممارسة النكات معي، كما حدث هنا مثلاً.. إن وصولي إلى الدب الذهبي دون أي مكان آخر في العالم ليس مجرد صدفة. إنه تدبير مزرٍ من سوء الحظ المزري، ولكنه بالتأكيد تدبير يجيء من باب النكتة. فأنا لا أخسر شيئاً بوصولي إلى هنا، إنني فقط أكسب شعوراً جديداً يشبه أن يعلق أحد ما قلادة ذهبية في عنقك لكي يشنقك بها عارياً في السوق.

ويقول العجوز بدهشة: أنت تتحدث بلهجة جادة إلى حد مضحك. اسمع، ماذا دهاك. ليس ثمة ما يدعى بسوء الحظ.. إن الأمر كله مجرد حالة نفسية مفاجئة، لماذا لا تشرب المزيد؟

* وأشرب مزيداً من الكونياك وأقول لنفسي إن أحداً لا يستطيع أن يصدق شيئاً مما أقوله عن سوء الحظ. إن الناس كلهم يعتبرون ذلك مجرد حكاية غير معقولة. فلماذا لا أترك الناس وشأنهم. هكذا أقول في ذات نفسي.. لماذا أتحدث مع هذه المخلوقات المزرية. إن أحداً منهم لا يعرف ما أعنيه.. إن أحداً منهم لم يشنق في كرمة العنب، ولم يجلس وراء آلة كاتبة مجنونة مثل طفل مجنون فوق حصان حديدي مجنون لكي يطارد الأشباح وطواحين الهواء.. إن اللعبة تخصني وحدي. فأنا فارس الحصان الحديدي على أي حال.. أنا صاحب السيف الخشبي الذي يركض في غرفة الأطفال ويقاتل ببسالة حتى يسقط جميع أعدائه الوهميين.. إن الأمر لا يدعو إلى الندم ولكنه بالتأكيد قد يدعو إلى الضحك.

فلماذا لا أنصت للنكتة وحدي؟

ويسألني العجوز فجأة: ماذا؟ هل قلت شيئاً؟

وأمنحه ابتسامة مع قطعة الليمون وأدعوه إلى أن يشرب مزيداً من الكونياك على حسابي، ولكنني لا أقول له شيئاً بخصوص الآلة الكاتبة. إن ذلك من شأني وحدي.. إن العجوز لا يحتاج إلى أن يعرف ذلك السر، فأنا أحس في الواقع أن آلتي الكاتبة مجرد حصان حديدي في غرفة طفل. إنها تقفز مثل حصان حديدي بالضبط وتصدر صوتاً مشابهاً أيضاً ولكن العجوز لا يحتاج إلى أن يعرف كل شيء.. المرء لا بد أن يحتفظ ببعض الأسرار لنفسه. وأنا أحتفظ لنفسي بهذا السر.. إن الآلة الكاتبة حصان يركض في مكان واحد.. يركض داخل جدران غرفة واحدة ويمتطيه طفل يشهر مسدساً من البلاستيك. ولكن هل ثمة ما يمنع ذلك الطفل من أن يتصور أن كل شيء يحدث حقاً وأنه يركض بحصانه في تلال تكساس ويقتل الهنود الحمر حتى يتفصد جبينه بالعرق!

ويسألني العجوز مرة أخرى: ماذا؟ هل قلت شيئاً؟

وأمنحه ابتسامة وقطعة ليمون وأدعوه إلى أن يشرب على حسابي ولكنني لا أقول له شيئاً بخصوص الهنود الحمر.. إن ذلك من شأني وحدي، فأنا أغزو قراهم كل يوم ممتطياً حصاني الحديدي وأقاتلهم بابتهاج. وعندما يقفز أحدهم على ظهري أمسكه من عنقه وأرميه على الأرض ثم أركض بالحصان الحديدي إلى سفح الجبل وأستعمل مسدسي الإضافي حتى أراهم يولون الأدبار مطلقين صرخاتهم المذعورة. وكان الهنود الحمر يخسرون كل معركة معي رغم أنني أحياناً كنت أصاب ببعض الرضوض نتيجة اصطدامي بالكراسي المتناثرة في

غرفتي.. إن ذلك أيضاً من شأني وحدي، فالمرء لا بد أن يتحمل متاعب لعبته المفضلة وما دمت قد قررت أن أقاتل الهنود الحمر بالآلة الكاتبة فلا مفر ـ على الأقل ـ من أن أصطدم ببعض الكراسي.

ويسألني العجوز مرة أخرى: ماذا؟ هل قلت شيئاً؟

وأمنحه ابتسامة كالعادة وقطعة ليمون ولكني أضطر إلى أن أتجاهل أسئلته، رغم رغبتي في إبداء بعض الود تجاهه.. فهو يعرف أنني لم أقل شيئاً.. إنه يعرف ذلك في كل مرة ولكنه يواصل ملاحقتي بالأسئلة في رزانة متعمدة لكي يرضي فضوله.. إن العجوز نيكولاس مالنوف يحترق فضولاً لكي يعرف كل شيء عن كل أحد.. وهذا واضح في سلوكه المزري، ولكنه بالنسبة لي يرتكب خطيئة الظلم فأنا لا أملك شيئاً أقوله له عن نفسي سوى قصة الحصان الحديدي الذي يركض فوق مكتبي طوال العام دون أن يصل إلى أي مكان..

* فكيف يقدم المرء نفسه باعتباره مجرد فارس فوق حصان حديدي؟

كيف يفتح المرء فمه ويقول لأحد ما: أقدم لك نفسي يا سيدي.. أنا فارس يركض بحصانه في مكان واحد طوال العام.. أنا جوكي في غرفة الأطفال أخلق المتفرجين والسباق على حد سواء، وأعمل أحياناً في قتال الهنود الحمر أيضاً..؟

كيف يجد المرء الشجاعة لكي يقول ذلك كله دون أن يتعلل بقليل من سوء الحظ؟ إن العجوز نيكولاس مالنوف قد وقع فريسة الفضول مبكراً جداً وعليه أن ينتظر حتى يحل الكونياك

عقدة لساني.. أما قبل ذلك فليس ثمة مفر من مواصلة الكلام عن سوء الحظ فقط..

على عادة الناس في كل مكان..

1969

34

كلما فتح الله باباً للإنسان أقامت الفلسفة وراءه زنزانة

الفلسفة السياسية لا تستطيع قط أن تحدد مفهوماً واعياً لمعنى (الحرية). إن المرء قد تعتريه الدهشة تجاه هذا الزعم، لكنه في الواقع ـ عندما ينظر إليه مرتين ـ يكتشف بوضوح أن الفلسفة التي تبدو مضطر للعمل داخل منهج سياسي محدد لا تستطيع أن تجد لكلمة الحرية أية أبعاد تقع خارج ذلك المنهج دون أن تتورط في الفوضى، فالمشكلة أن الفلسفة السياسية ليست فكراً نظرياً مفتوحاً على جميع الجهات، وليست أيضاً محاولة عامة لإيجاد ذلك الفكر المفتوح، إنها دائماً مجرد قالب منحوت في جسم الفكر المفتوح، إنها جسر دائم للعبور وسط منطقة مترامية الأطراف. وإذا كان المرء لا يتصور أن (الشعب) سوف يتصرف مثل قطيع من أسماك السردين ويتحرك كله في اتجاه واحد لكي يسقط في فخ واحد، فإنه لا بد أن يتوقع حدوث الصدام الفوري بين الذين قاموا بتصميم الدهليز وبين الذين لا يعتقدون أنه يستطيع أن يؤدي إلى الهدف.

وهذا بالضبط ما يحدث دائماً داخل أية فلسفة سياسية.

ويحدث بطريقة مفاجئة، ويؤدي إلى الصراع في نهاية المطاف حتى تسقط الفلسفة أو تتورط في اللجوء إلى وسائل الرجعية والعنف. ولعل (لينين) ـ وهو أكبر رأس في قطيع الفلاسفة السياسيين المتخمين بالغرور ـ كان يشير إلى هذه الحقيقة عندما قال ذات مرة (إن الشيوعية سوف تظل في حاجة إلى البنادق حتى يصير العالم كله شيوعياً).

فالبنادق هي محاريث الفكر السياسي.

والصدام المسلح لا بد منه على أي حال ما دامت الفلسفة عاجزة عن احتواء أبعاد الفكر الإنساني، تلك الكارثة المزمنة التي تميزت على الدوام بالعنف ووسائل القهر العقلي وإدماج المجموعة في فكرة الفرد بطريقة خالية من أبسط مبادئ العدل. والمرء يستطيع أن يعتبر (الشيطان) مسؤولاً عن هذه اللعبة المحزنة، ولكنه سيبدو أكثر واقعية إذا ترك الشيطان جانباً وقال بهدوء إن الصدام يحدث في الواقع نتيجة عجز الفلسفة السياسية عن إيجاد الحد الفاصل بين (الحرية) وبين (الفوضى).

وأنا أعتقد أنني أستطيع أن أثبت هذه النقطة بوضوح أكثر إذا أتيحت لي الفرصة لكي ألفت النظر إلى أننا نتبنى تعريفاً ناقصاً عندما نصرّ على أن (الحرية هي حق التصرف الحر من أجل سعادة الإنسان) فالواقع أن ذلك نصف الحقيقة فقط، أما النصف الباقي فإنه يقول إن (الحرية هي حق التصرف الحر من أجل شقاء الإنسان) أيضاً.

وإذا كان ذلك يبدو مضحكاً للوهلة الأولى، لأن المرء لا يستطيع أن يتصور أن الإنسان يمكن أن ينال حرية التصرف لكي

يجلب لنفسه الشقاء، فأنا أتمنى أن ألفت النظر هنا إلى أن ذلك في الواقع هو ما فعله اللّه نفسه عندما منح الإنسان حق الذهاب إلى الجحيم.

فأنت لست حراً إذا كنت مرغماً على البقاء في الجنة.

أنت تنال منحة الحرية عندما تتاح لك فرصة اتخاذ القرار للبقاء في الجنة أو الذهاب إلى مكان آخر. وإذا كان ذلك لا يعني أنك ستختار لنفسك الشقاء، فإنه يعني بالتأكيد أن اللّه منحك حق (الحرية) كاملاً على أي حال.

* لذا فإن الصراع مع اللّه مستحيل.

إنك لا تستطيع أن تجد شيئاً ترفضه دون أن تتورط في السخف، لأن اللّه لم يضعك في الجنة، ولم يضعك في النار أيضاً، لقد منحك حياتك كلها منذ أول يوم لكي تتخذ لنفسك القرار الذي تعتقد أنه يناسبك أكثر من سواه، بغض النظر عن لعبة (السعادة والشقاء).

* هنا في هذه النقطة بالذات تبدو مأساة الفلسفة السياسية بكل أبعادها.

فالفرق الواضح أن السياسة لا تمنح الإنسان سوى (نصف حريته) لأنها تصر على إغراقه في السعادة، وليس ثمة رجل سياسي واحد يستطيع أن يتصور أنه من حق الإنسان ـ نظرياً على الأقل ـ أن يرفض (السعادة). إنهم جميعاً يقفون في الشرفة ويلقون على الشعب خطبة مؤداها أنهم يزمعون أن يحملوه إلى الجنة سواء أراد أم لم يرد.

وأنا لا أزمع أن أقول إن رغبة السياسة في إسعاد الشعب هي الكارثة، ولكنني أريد أن أشير إلى تاريخ العالم بأسره وأقول

بأعلى صوتي إن السياسة أخطأت الطريق على الدوام وتسببت ـ أحياناً ـ في كوارث إنسانية قاتلة ونهائية ومليئة بالشقاء لمجرد إصرارها على (سعادة الشعب).

لقد فعل أدولف هتلر ذلك.

وفعله المدعو موسوليني والرئيس ليندون جونسون والملك إدريس الأول ومئات الملائكة السياسيين الذين وقفوا في الشرفة وفتحوا أذرعتهم المليئة بالحب وقرروا أن يحملوا (الشعب) إلى الجنة بقرار نهائي واحد دون أن يخطر ببالهم أن اللّه نفسه لم يقرر أن يحمل أحداً إلى أي مكان.

إن (الحرية) الحقيقية لن تبدأ من هذه النقطة أبداً.

فالفلسفة السياسية لا تستطيع أن تعرف على وجه الضبط، ما الذي يؤدي إلى سعادة الشعب أو إلى شقائه ما دامت مجرد دهليز جاهز للعمل. ووقوع الخطأ محتمل على الدوام، فالمرء لا يجوز أن يزعم أنه وحده يعرف كل شيء بالتفصيل، ويعرف أين يجد سعادة الشعب وأين يتحرك العالم، وكيف تتم خطة العمل. إنه ـ عندما يفعل ذلك ـ يتورط أحياناً في فخ الغرور الأسود الذي سقط فيه ذات مرة المدعو أدولف هتلر بجانب مئات العباقرة الآخرين.

فاللعبة من الداخل أن الرجل السياسي يعتبر نفسه مثل ربان سفينة الركاب يعرف وحده أين تذهب السفينة وماذا تستطيع أن تحمل ومتى يجوز لها أن تغير خط سيرها. وهذا الاعتقاد يبدو عادلاً لو كانت الإنسانية مثل المحيط الهادئ بالضبط مجرد حوض مائي واضح المعالم محدد بالخرائط وأجهزة القياس. ولكن الإنسانية ليست كذلك بأي حال. إنها ـ في الدرجة الأولى ـ

نمو متواصل يهدف إلى تغيير المعالم والأبعاد تغييراً مستمراً لإيجاد الأفضل على الدوام، والمرء لا يستطيع أن يضع خريطة لعملية النمو دون أن يضطر إلى إيقافها مرة واحدة أو يكتشف ذات يوم أن خريطته لم تعد تشبه في الواقع شيئاً على الإطلاق.

لقد حدث ذلك لقيصر روسيا الذي فاجأته الثورة كما يفاجأ المرء برؤية رجل كامل النمو لم ير سوى صورته عندما كان طفلاً.. أعني كما يعود المرء الآن لكي يتعرف على مدينة طرابلس بخريطة مطبوعة في القرن الماضي.

إنه لا بد أن يبدو مضحكاً، ولكنه أحياناً يبدو مثيراً للذعر إذا كان يملك البنادق المطلوبة لفرض فكرته المتأخرة بالقوة. وليس ثمة فرصة واحدة لتجنب هذا الفخ ما دامت الفلسفة السياسية تسمح لنفسها بحق بناء الدهاليز على مسرح الفكر الإنساني.

* إن مشكلة (الحرية) لا بد أن تجد حلاً سليماً.

ولا بد أن يبقى ذلك الحل داخل نطاق الفكر الواعي الخالي من ألعاب الرومانسية والأشعار المريضة والنظريات غير العاقلة التي تتبرع دائماً بإيجاد الحلول على الورق وحده، وأنا أعني أن أقول بذلك إنه لن يجدينا في نهاية المطاف أن نثبت أن (الحرية) هي حق التصرف من أجل السعادة أو الشقاء، إذا كان كل ما نستطيع أن نحدده بعد ذلك لا يتعدى العمل النظري المحض.

فالمرء لا يأكل النظريات.

وليس من المحتمل أن تتوقف الفلسفة السياسية عن العمل بمجرد أن نثبت لها أن (الحرية) ـ نظرياً على الأقل ـ لا تستطيع أن تلتقي معها في أية نقطة، لأن ذلك بالضبط هو السقوط في فخ الفوضى.

وما دمنا نهدف حقاً إلى إيجاد سبل العمل الواعي، فنحن مطالبون في الدرجة الأولى بإلغاء التنافس بين الفلسفة السياسية وبين (الحرية) المطلقة بإيجاد الخلفية الواحدة المشتركة بينهما معاً.

● وذلك العمل ليس صعباً بأي حال. وليس جديداً أيضاً.

إن نقطة الانطلاق أمام فلسفة السياسة ومفهوم الحرية أيضاً هو الإنسان وحده. والقاعدة العامة أن كل شيء يبدأ من هذه النقطة لا بد أن يهدف إلى (احترام حق الإنسان في الاختيار) بغض النظر عن فكرة الدهليز السياسي الجاهز للعمل. وإذا كان هذا الاتجاه سوف يلغي أسباب الصراع الفكري كلية فإنه أيضاً ـ وهذه في الواقع هي الورقة الرابحة ـ يستطيع أن يحقق معظم ملامح الديموقراطية الصحيحة.

فالفلسفة السياسية مضطرة هنا إلى التخلي عن لعبة (سعادة الشعب).

والملائكة الذين يقفون في الشرفة لحمله إلى الجنة بخطبة واحدة مضطرون أيضاً إلى التزام جانب الواقع التزاماً كلياً. لأن الخطبة لن تسقط من الشرفة بل تصل إليها من كتلة الشعب، ولأن الرجل السياسي لن يلعب دور المهندس بل دور المقاول وحده.

ذلك يعني أن الشعب هو الذي سيتولى الحكم بطريقة ديمقراطية.

ويعني أيضاً أن الفجوة القائمة بين مقعد الحاكم وبين عملية النمو المتواصل داخل القاعدة سوف تقفل كلية بوسائل الديموقراطية في النقاش والعمل. فالحاكم قد يضطر إلى الوقوع في الخطأ نظراً لعجزه عن متابعة ملامح النمو، ولكنه بالتأكيد لن

يترك ذلك الخطأ قاعدة للعمل لأن وسائل النقاش تستطيع أن تسلط الضوء فوقه على الفور.

وأنا أريد أن أقول هنا إن الطريق الوحيد أمام فلسفة السياسة لكي تتجنب ظاهرة الصراع المؤدي إلى استعمال العنف هو في الواقع أن ترفض منذ بداية الطريق كل مناهج الدكتاتورية الواعية أو غير الواعية وتضع الغرور جانباً، وتختار البداية من (الإنسان) وحده.. أعني من حيث بدأ اللّه.

هذا المنهج يستطيع أن يحل مشكلة الحرية بطريقة عادلة.

ويستطيع أيضاً أن يمنح قاعدة الانطلاق نقطة ثابتة واضحة المعالم يمكن الرجوع إليها في أي وقت، فالمنهج الإنساني بسيط التركيب إلى حد يدعو إلى الثقة.

إنه مجرد ثلاث نقاط مضيئة على مدى العالم بأسره:

* الإنسان يقول رأيه كما يشاء.

* الإنسان يختار عقيدته كما يشاء.

* الإنسان لا يخاف من الأذى الجسدي إلا إذا قام بإيذاء إنسان آخر إيذاءً جسدياً.

والمنهج السياسي الذي يستطيع أن يضمن توفر هذه القاعدة بداخله هو المنهج الوحيد القادر على تجنب مزالق الفلسفة العميقة الغور. فالشعب يبدأ من هنا في ممارسة الإشراف الواعي على عملية النمو، وتنقية معتقداته من التشويه وإطلاق إمكانيات الفكر الخلاق القادر على تحقيق النقد والعمل معاً.

* والشعب يبدأ من هنا لكي يمارس إنسانيته بطريقة عادلة.

ولكن المرء لا بد أن يتذكر على الفور أن وجود هذا المنهج

شيء، وقدرته على ضمان الفعالية شيء آخر، فليس ثمة فلسفة سياسية في العالم لا تزعم أنها مليئة بالإنسانية إلى حافتها.. وليس ثمة فلسفة سياسية أيضاً ـ بما في ذلك الديموقراطيات الحديثة في الغرب ـ لا تتورط هنا في رذيلة الكذب المحض.

فالإنسان ما يزال مضطهداً في جميع الفلسفات. وما يزال ـ مثل كلب الزينة ـ مجرد شعار على الترف الفكري. وما دامت السياسة عاجزة عن احتواء مناهجه العظيمة وحمايتها حماية تامة بقدرة القانون الفعال الموثوق به، فإن فلسفة السياسة ستظل على الدوام مجرد قاطع طريق مسلح بالبنادق يذرع هذا العالم لكي يبني زنزانة وراء كل باب يفتحه اللّه للإنسان، ويضع أمامه شرطياً مسلحاً، وعلامة مرور.

وأحياناً أيضاً مشنقة.

1969

35

الرهان..

في هلسنكي ليس ثمة حمار واحد يجلس في القفص رقم 32 على يمين المدخل في حديقة الحيوان وقد وضعوا في خدمته مواطنة عجوزاً تدعى «ماريانا سالنوف» وكتبوا فوق قفصه أنه حيوان عديم الفائدة يكثر في البلدان المتأخرة ويتناسل مرتين في العام، وأنه ـ رغم الأسطورة الشائعة عن نهيقه ـ لا يستطيع في الواقع أن يصدر سوى صوت واحد يشبه إلى حد ما مواء القطة.

وقد خطر لي في بداية الأمر أن ذلك كله مجرد نكتة حمقاء يعدها مدير الحديقة للزوار عند المدخل، وأن المرء يعرف بالسليقة أن نهيق الحمير ليس في الواقع مجرد أسطورة، ولكن المواطنة «ماريانا سالنوف» أقسمت لي بشرفها مرتين على أن الأمر خالٍ من الهزل، وأن المعلومات المذكورة على القفص قد جاءت ـ بالطرق الرسمية ـ من مصادر متخصصة في جامعة هلسنكي وأن الحمار يصدر حقاً بين حين وآخر صوتاً يشبه مواء القطة.

وأعطيتها لفافة تبغ وسألتها عما إذا كانت قد سمعت ذلك

بنفسها خلال ساعات عملها في خدمة الحمار فهزت رأسها الصغير الحجم وقالت بثبات: لا. أنا لم أسمع ذلك بنفسي. إنني أستطيع أن أكذب عليك ولكني في الواقع لم أسمع هذا الحمار يصدر صوتاً من أي نوع، إنه يجلس في قفصه طوال النهار ويراقب زوار الحديقة ويبتسم لهم أيضاً ـ أعني هكذا يقول الزوار، ولكنه لا يصدر أية أصوات.

وقلت لها إن الزوار يتصورون أشياء كثيرة غير حقيقية في حديقة الحيوان وإن الحمار لا يبتسم ولا يموء مثل القطة أيضاً. إنه يغمض عينيه ويصرخ بملء صدره ويجعل المرء يستيقظ من نومه مذعوراً على بعد ميلين كاملين وإن المعلومات الواردة بشأنه من جامعة هلسنكي مجرد كلام للاستهلاك المحلي لكي لا يعرف المواطنون السعداء هنا ماذا يحدث في بلدان الناس غير السعداء.

ولم تفهم المواطنة «ماريانا سالنوف» كلمة واحدة. وقد وقفت متكئة على القفص وطفقت تنظر إليّ بشك واضح ثم بصقت على الأرض وقالت على الفور: أنا لا أعرف ماذا تعني ولكنك تكذب على أية حال. إن ذلك واضح في عينيك ثم إنك لم تر حماراً واحداً في حياتك.

* ماذا؟..

* إنك لم تر حماراً واحداً في حياتك. ذلك واضح في عينيك.

ووضعت يدي على صدري وأقسمت لها بالقديس «أوغستين» أنني أكاد أموت من الضحك نتيجة الأشياء الفظيعة التي تراها في عيني، وأن الحمار ابن العاهرة يصدر صوتاً قبيحاً يجعل المرء يقفز من مكانه، وأنني قفزت ذات مرة حتى رأيت

أسقف المنازل على طول زقاقنا عندما صرخ أحد الحمير وراء ظهري فجأة.

* وهزت المواطنة ماريانا سالنوف رأسها الصغير الحجم معلنة بوقار: أن ذلك أيضاً كذب.

* يا إلهي ماذا يستطيع العناد المزري أن يفعل بأحد المواطنين. إن المرء لا يصدق أذنيه ولكن هذه العجوز البلهاء تعتقد حقاً أنني لم أرَ حماراً واحداً طوال حياتي.. يا إلهي أنا رأيت من الحمير أكثر مما رأيت من النجوم وسمعتها تصرخ في زقاقنا وفي الحي المجاور وعلى طول الطريق العام وفي وسطه أيضاً وفي منطقة الماجوري والفندق القديم وسمعتها ذات مرة تصرخ في السحاب، وأنا لم أرَ شيئاً حقيقياً في حياتي أكثر من الحمير.

* وأغمضت المواطنة ماريانا سالنوف عينيها الخاليتين من أهداف وجعلتهما تختفيان وراء قبعتها مثل زبيبتين زرقاوين مجعدتين ثم قالت باهتمام مفاجئ: أنا أعرف أنك تكذب، وأن الحمار لا يصدر صوتاً قبيحاً، وأعرف أنك لا تستطيع أن تراهنني.

* أراهنك؟..

* أجل، أعني تتركني أربح بعض نقودك، لأنك في الواقع ستخسر الرهان.

● لماذا؟

أنت تعرف لماذا؟ لأن الحمار يموء مثل القطة إن كل الكتب تقول ذلك ويقوله زوار الحديقة ورئيس قسم الأحياء في جامعة هلسنكي، وأنت ستخسر الرهان.

* ونظرت إلى الحمار. كان يتابعني بعينيه القبيحتين في دهشة واضحة، وكان يملك كل الناس إلى جانبه في هلسنكي وقد خطر لي أنني سأخسر الرهان حقاً أمام معلومات رئيس قسم الأحياء في الجامعة فالمرء قد يصر على أية معلومات خاطئة ما دام يعرف أن ذلك يحدث لصالح المواطنين السعداء الذين لا يجوز أن يسمعوا قط بالخوارق التي تحدث في بلدان الآخرين. وقلت للمواطنة إنني لا أستطيع أن أراهنها، لأنني أعتبر ذلك من جانبي عملاً متسماً بالخداع، وإنني لا أريد أن أسرق نقود امرأة مثلها لمجرد أن اللّه لم يجعلها تولد في زقاقنا وتسمع بنفسها أية أصوات يمكن أن تصدر من حمير المنطقة المكسورة القلوب.

* وهزت ماريانا سالنوف رأسها الصغير الحجم وقالت بعناد: أنا أريد أن أراهنك. هل تدفع مائة مارك؟

ولم يكن ثمة مفر من أن أقبل الرهان. لقد كان عملاً مزرياً ولكنني لم أستطع أن أقنع تلك السيدة بأنها تلقي بنقودها من النافذة، وقد أصرت على القول بأنني سأخسر على طول الخط وأنها بدأت ـ أيضاً ـ تفكر في لون الفستان الذي ستشتريه بنقودي. وعندما سألتها عما إذا كانت تعرف أنها قد تخسر ذلك الرهان قالت بثقة مضحكة: أنا لن أخسر شيئاً، دعك من محاولة خداعي. إنني أعرف ما أفعله بالضبط وأعرف أن اللّه لم يصب الحمار بشيء يدعوه إلى الصراخ. إنه يموء مثل القطة فحسب.

* وأعلنت لها نيتي في إيضاح تلك النقطة، فأنا أعرف أن الحمار السيئ الحظ يملك أكثر من سبب يدعوه إلى الصراخ، وأن رئيس قسم الأحياء في جامعة هلسنكي يعرف ذلك أيضاً، وأن

الطريقة الوحيدة للكشف عن هذه الحقيقة هي أن تتركني أذكّر الحمار السعيد بتلك الأسباب.

* وقالت المواطنة بثقة: افعل ما تشاء أنا لا أستطيع أن أفرض عليك شيئاً. ولكنك إذا جعلت ذلك الحمار يصدر صوتاً ما فسوف يبدو مثل مواء القطة وسوف تدفع لي المائة مارك.

* ونظرت إليه مرة أخرى كان يجلس في منتصف القفص ويتابعني بعينيه القبيحتين في دهشة واضحة. وكان أحد الزوار قد وقف على الجانب المقابل وطفق يحاول إغراءه بقطعة من الشوكولاته. ولكن الحمار لم يهتم به، كان قد اكتشف أنني زائر يختلف حقاً عن الآخرين، وكان يريد أن يعرف لماذا أتشاجر مع خادمته.

* وبدأت أتحدث إليه، كنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون قد نسي ماضيه كلية، وأن شيئاً ما في أعماقه القذرة لا بد أن يذكّره بالنهيق إذا استطعت أن أجعله يعود بذاكرته إلى حياة أسلافه في الفندق القديم، وقد تحدثت إليه بالعامية الليبية المستعملة في الفندق القديم وقلت له إن أسلافه كانوا يعملون في جر عربات النقل المتوسطة في سوق الجريد، وإن المرء كان يضع في ظهورهم مشفة حادة تنغرز في العظم حتى تصل إلى النخاع.

* ورفع الحمار أذنيه فجأة ثم وقف في منتصف القفص، وأطلقت المواطنة ماريانا سالنوف صرخة خافتة وقالت بذعر: ابتعد عن القفص. إنك تثيره بتعاويذك السحرية يا إلهي أين تعلمت هذه الأصوات الفظيعة؟

* وأقسمت لها أنني لا أعرف أية تعاويذ سحرية، وأنني لا أتحدث سوى لغة يومية تستعمل في سوق الجريد ثم طلبت منها

أن تكف عن مقاطعتي إذا كانت ما تزال راغبة قبض قيمة الرهان، وعندما عادت إلى الوقوف بجانب القفص كانت تقطب حاجبيها في شك واضح وكانت بدأت تحس أنها قد تخسر ذلك الرهان حقاً، ما دامت تواجه زنجياً ساحراً.

* وقلت للحمار المنتصب الاذنين إن القصة بدأت في ـ بنينة ـ وأن المرء كان يحضر الحمير من تلك القرية السعيدة ويجعلها تعمل في نقل الذبائح المسلوخة من مجزرة الصابري إلى حوانيت اللحم في سوق الجريد. ثم اخترع أحد ما كروسة فظيعة تنزلق فوق عجلتين ثقيلتين من العجلات المستعملة في قطارات السكة الحديدية وربطها على صدر حماره وتركه يجرها عبر أزقة السوق طوال النهار وبعض أجزاء الليل.

* وقد استطاع ذلك الحمال أن يحتكر وسيلة النقل في السوق وأصبح بوسعه أن ينقل أكثر من خمس ذبائح مسلوخة في مرة واحدة وينقل أيضاً علب الحلوى التركية وأكياس الدقيق وبراميل الزيت.

* وبالطبع بدأ بقية الحمالين يبحثون بدورهم عن عجلات السكة الحديدية ويضعون فوقها لوحاً من الخشب ويربطونها على صدور حميرهم لمواجهة وطيس المنافسة في سوق الجريد، وقد ازدادت العجلات ثقلاً بمرور الوقت وكبرت ألواح الخشب وراء مزيد من الحمولة حتى اكتشف أحد الحمالين الجشعين ذات يوم أنه قد وضع فوق كروسته الفظيعة أكثر مما يستطيع حماره أن يحتمل.

ووقف الحمال حائراً في وسط الطريق ثم حكّ رأسه فجأة وأخرج عصا غليظة وقال للحمار لأول مرة في تاريخ العالم «أر

يا يهودي» ثم انهال على ظهره ضرباً بالعصا وحدثت المعجزة في النهاية وأثبت الحمار أنه يستطيع أن يجر أكثر مما يحتمل إذا شتمه المرء ودعاه مجرد يهودي وانهال على ظهره ضرباً بالعصا.

* ومشى الحمار في وسط القفص بقلق، وتحركت المواطنة ماريانا سالنوف من مكانها ولكن أحداً منهما لم يقل لي شيئاً. كانا ينصتان بتركيز واضح.

وقلت للمخلوق السعيد إن الحمالين في سوق الجريد بدأوا منذ ذلك اليوم يعملون في تطوير العصا. وقد وضعوا في طرفها أول الأمر مسماراً حاداً قصير الرأس ثم وضعوا مسمارين. وعندما ازداد نشاط السوق بعد اكتشاف البترول بدأ الحمالون يضعون مشفة كاملة.

* وقد عملت تلك الآلة الحادة في ظهور أسلافك بدأب وساهمت في إنعاش حركة النقل داخل أسواق ليبيا إلى حد لم يسبق له مثيل ولكنها كانت أيضاً تترك وراءها جروحاً عميقة الغور تزدحم إلى حافتها بالقيء والذباب الميت.

* ودار الحمار في القفص مرتين متتاليتين ثم هز ذيله وطفق يصدر صوتاً واهناً يشبه إلى حد ما مواء القطة، وضحكت المواطنة ماريانا سالنوف وبدأت تستعد لإعلان انتصارها بإشارة متزنة من يدها، وقلت للحمار عبر سياج القفص: أنا أردت أن أذكرك بما حدث فحسب، أجل لقد بدأت القصة في بنينة ولكنها انتهت نهاية مفجعة في سوق الجريد وقد رأيت أحد أسلافك ذات مرة يجر عربة محملة بصناديق الملح المرصوفة فوق لوح الخشب إلى السحاب ورأيت الجراح العميقة الغور في صدره تنزف قيئاً منتناً والذباب يلعق القيء ورأيت عينيه يأكلها القراد.

وهز الحمار رأسه فجأة كأنه يريد أن يطرد شيئاً من قفصه وقلت له: أجل لقد رأيته ينزف قيئاً تحت حمولة الملح ورأيت الحمال يغرز مشفاته في جرحه حتى جعله يسقط على الأرض مسلوخ الركبتين ثم طفق يضع الملح على جراحه.

* ونهق الحمار..

لقد أغمض عينيه وطفق يصرخ بملء صدره حتى اهتزت جدران القفص، وتوقف الزوار وعمال الحديقة والمارة في الشارع الخلفي لكي يتبينوا طبيعة ذلك الصوت المفجع، وصرخ الأطفال في كل البيوت وطأطأت أشجار التمبر رؤوسها وطفقت تتهامس بعصبية، وانشق قلب التلة المجاورة، وبكى الضبع في القفص رقم **192** وانطلقت المواطنة ماريانا سالنوف تجري مذعورة في اتجاه الباب الرئيسي دون أن تتذكر أنها مدينة لي بمائة مارك.

يا إلهي ماذا يستطيع العناد أن يفعل بأحد المواطنين.

1969

36

من مساوىء الفودكا..

المرء يولد في بنغازي الرمادية، ويفقد أظافر قدميه في ركل علب الحليب الفارغة في الشوارع، ويغرق بضع مرات في بئر «الكلبة» ويشج أحد ما رأسه مرة في الشهر على الأقل، ثم يكبر رغم أنفه ويكتشف ذات يوم أنه مليء بالسأم إلى حد لا يطاق.

ويبصق المرء على الأرض ويقول لنفسه إنه يريد أن يرحل من هنا، ويريد أن يضع كل شيء جانباً ويمشي في اتجاه أنفه حتى يموت من الإعياء. وفي العادة لا يموت المرء حقاً لأن الشيطان المضحك يسارع إلى حمله فوق كتفه، ويطعمه طوال الطريق ويزوده بالويسكي أيضاً ثم يقوده إلى ساحة العشب الأخضر في مدينة أمستردام لكي يتعرف على السيدة «هيلينا شنايدر»..

هذا يحدث نتيجة السأم وسوء الحظ.

وقد حدث لي ذات مرة، وحملني الترام رقم 16 مع السيدة «هيلينا شنايدر» إلى ساحة العشب الأخضر المقابلة للترعة الرئيسية في مدينة أمستردام، واكتشفت أنني أملك امرأة حقيقية، ونصف

زجاجة من الفودكا، وأنني لم أعد أشم إلى رائحة حارتنا المشمسة في سوق الحشيش.

● وبصقت على الأرض وسألت نفسي عما إذا كان ذلك كله ليس مجرد حلم سخيف يفاجئني كالعادة في حارتنا المشمسة. ثم مددت يدي وتحققت من وجود العشب والسيدة، وبحثت عن الزجاجة وشربت نخب ذلك بضع مرات.

* حسناً.. لقد كان شرب الفودكا خطأ لا يغتفر.

فالمرء عندما يهرب من بنغازي لا يجوز أن يفقد وعيه مطلقاً.. إن ذلك يجعله عرضة للأحلام إلى حد لا يطاق، ويجعل بنغازي تتسرب إلى رأسه عبر سحابة غير مرئية من وجوه الأصدقاء. وعندما يبدأ في الحديث معهم يعود بالطبع إلى حارتنا المشمسة في سوق الحشيش، ويفقد كل ما فعله الشيطان من أجله.

وقد عدت ذلك اليوم إلى سوق الحشيش. أعني أنا لم أعد، ولكنني شربت من الفودكا بطيش لا يغتفر، وسقطت فريسة الذكريات القديمة ووجوه الأصدقاء. وعندما اعتراني الذعر وقررت أن أدفن رأسي في صدر السيدة «هيلينا شنايدر» اكتشفت مفتوح العينين أن أحد الأصدقاء يجلس بالضبط عند رأسي.

* وسألته بأدب: ماذا تريد؟

* لا شيء.

* ولماذا تجلس هنا؟

* لا شيء.

وقلت له إنني أعرف كل حيله وإنني أتمنى أن يعود إلى حارتنا المشمسة ويتركني وشأني، ولكنه لم يتحرك. لقد ظل جالساً فوق العشب بصلادة مطلقة، وظل ينظر إلى صدر السيدة «هيلينا شنايدر». ثم جاء جارنا الحلاق في سوق الحشيش وقال له صديقي إن صدر السيدة يبدو شهياً إلى حد لا يطاق، وقد سمعت ذلك فيما كنت أحاول أن أبتلع الكأس الفظيع وضحكت رغم أنفي وبدأت أحس أنني على وشك الإغماء من فرط السعال، ولكن جارنا الحلاق سارع إلى خبطي على ظهري معلناً في وقار أن عليّ ألا أفرط في الشرب إلى هذا الحد.

● ذلك ليس من شأنك.

● شنو؟

قلت لك ذلك ليس من شأن أي أحد منكما. إنني أريد أن أشرب كما أشاء. فلماذا لا تعودان إلى سوق الحشيش وتتركاني أتدبر الأمر بنفسي.

وقال صديقي مكسور القلب: نحن لا نضايقك على الإطلاق، لماذا تريد أن تطردنا. دعنا نمكث بعض الوقت. إن العالم هناك لا يطاق.

ونظرت إليه. كان على وشك البكاء من فرط السأم، وكانت قدماه ما تزالان ملطختين بتراب المقبرة المقابلة لساحتنا المشمسة. وأعطيته قليلاً من الفودكا، وتركته يلمس شعر السيدة «هيلينا شنايدر» بأصبعه فقط، ثم قلت له إن عليه أن ينصرف لشأنه. ولكنه لم يفعل ذلك حقاً. لقد اختفى فترة من الوقت ثم عاد مرة أخرى يقود وراءه كل الناس الذين أعرفهم في بنغازي.

وسألتني السيدة «هيلينا شنايدر» عما إذا كنت أحب أن

أمسك يدها قليلاً على عادة العشاق في أمستردام، ولكني لم أستطع أن أحقق لها هذه الرغبة المخجلة. فقد كانت الساحة مليئة بالناس الذين أعرفهم وكان صديق آخر يجلس فاغراً فمه تحت الشجرة المقابلة.

* ماذا تفعل هنا؟

* لا شيء.

* ولماذا لا تذهب للعمل في جريدتك؟

وتقول السيدة «هيلينا شنايدر» بذعر مفاجئ: يا إلهي. ماذا دهاك؟ لماذا تحدث نفسك؟

وأعلن لها أنني لا أحدث نفسي بل أتحدث مع أصدقائي الذين تركتهم ورائي في مدينة بنغازي الرمادية. وأنهم قد وصلوا جميعاً إلى الساحة الخضراء منذ الكأس الحادي عشر. وعندما تلفتت السيدة حولها لترى أصدقائي غمزها جارنا الحلاق خمس مرات متتالية وشرع يحك لها بطنه، ولكنها لحسن الحظ لم تكن قادرة على رؤية أحد منهم..

* ليس ثمة أحد.

* إنهم يملأون الساحة، ولكنك لا تستطيعين أن تريهم.. ابتعدي قليلاً. إنني لا أريد أن أمسك يدك على عادة العشاق في أمستردام أمام أصدقائي. ابتعدي أكثر من ذلك. دعينا نتحدث عن إسرائيل، إنني لا بد أن أتجنب أحاديث العشاق أمامهم. دعينا نتحدث عن فيتنام وفضائح الحل السلمي في الشرق الأوسط. إن ذلك سوف يساهم في عزائهم إلى حد ما.

وقالت السيدة «هيلينا شنايدر» باشمئزاز: يا إلهي.. ماذا

دهاك؟ ليس ثمة أحد هنا؟

* إن الساحة مليئة بالناس الذين أعرفهم.

* أين؟

هناك تحت الشجرة.. انظري وراءك.. إن ذلك الرجل الذي يلوّح لك بيده قد عاش مائة عام في بنغازي دون أن يرى ساحة واحدة مغطاة بالعشب الأخضر أو يرى امرأة أيضاً.

وهذا جارنا الحلاق يحك لك بطنه منذ ساعة كاملة.. وصديقي الآخر الذي ترك العمل بفعل السأم والروتين وأنباء القتال في الشرق الأوسط وجاء إلى هنا لكي يسلبنا زجاجة الفودكا.

وقالت السيدة «هيلينا شنايدر» وهي تلتفت وراءها: أنا لا أرى أحداً هنا. ماذا دهاك؟ لماذا تسكر إلى هذا الحد.. دعني أستلقِ بجانبك، إن ذلك سوف يساعدك على استعادة صحوك.

* لا..

* ماذا؟

* قلت لك إنك لا تستطيعين أن تستلقي بجانبي في الساحة العامة. إنها مليئة بأصدقائي البؤساء، وأنا لا أريد أن أفعل أمامهم شيئاً من هذا النوع. إن ذلك يبدو قاسياً إلى حد لا يحتمل.

واتكأت السيدة «هيلينا شنايدر» بمرفقها على الأرض المعشبة وبدأت تحدق في وجهي بدهشة.. وكانت عيناها تومضان في ضوء الساحة الأخضر مثل قنديلين مبهجين من الفيروز، وكان عطرها الهادئ لقد بدأ يزحف على ركبتي داخل صدري ويقرضني ببطء. وعندما أغمضت عيني واستدرت على الجانب

الآخر لكي لا أنظر إليها قالت السيدة بصوت خافت: يبدو أنه ليس ثمة فائدة.

* لا.. ليس ثمة فائدة. إن شيئاً في العالم لا يستطيع أن يغريني بتعذيب أصدقائي.. ابتعدي قليلاً. دعينا نتحدث عن إسرائيل.. أو سيل الكيش.. أو العلاقات العامة بين ليبيا وحكومة مالطا.

* اذهب إلى الجحيم.

* معذرة.. دعينا نتحدث عن أي شيء آخر. أنا لا أريد أن أتسبب في غضبك، وأنا أرحب بأي حديث يخطر ببالك، ولكن ابتعدي قليلاً.. إن أصدقائي ينظرون إلينا جميعاً.. ابتعدي أكثر من ذلك.

* اذهب إلى الجحيم.

* يا إلهي.

* اذهب إلى الجحيم، أنت مخمور كالعادة. هذا كل ما في الأمر، وسوف تقع في فضيحة أخرى مع الشرطة.

وحط أحد الطيور الصغيرة بجانبي ورأيته يقفز فوق الأرض المعشبة بنزق وينقر في طبق المزة المقلوب، ثم رفع رأسه فجأة وطار مذعوراً فيما كانت السيدة «هيلينا شنايدر» تنهض في يأس وتلبس حذاءها وتنطلق عبر الممر دون أن تلتفت وراءها.

* إنها غاضبة مني، أعني من أصدقائي وزجاجة الفودكا، فأنا ـ في الواقع ـ لم أفعل ما يستدعي غضبها. لقد جئت معها إلى هنا لكي أتبادل معها الحب وأمسك يدها على عادة الناس في أمستردام.. ولكن المرء لا يستطيع أن يتنبأ بما تفعله نصف زجاجة

من الفودكا البخيسة الثمن.. إنها أحياناً تحمل فوق ظهرها مدينة كاملة مليئة بالناس الذين تعرفهم معرفة وطيدة. وتجعلك تتحدث معهم.. وتحس بالخجل من نفسك أزاء نظرات اللهفة في عيونهم.

والمرء لا يعرف كيف يشرح ذلك للسيدة «هيلينا شنايدر».. إنها لم تولد في بنغازي ولم تفقد أظافر قدميها في ركل علب الحليب الفارغة، ولم تغرق في بئر «الكلبة» مرة واحدة.

إنها امرأة عظيمة غاضبة فحسب. وليس ثمة مفر من أن أتركها تذهب لشأنها.

1969

37

البناء من الداخل

في بنغازي ثلاثة أولياء صالحين ينامون في قبورهم على قارعة الطريق العام، وفي طرابلس ولي آخر يستلقي داخل قبره المرمري في وسط شارع البحر، والمرء يعرف بالطبع أنهم جميعاً أولياء صالحون حقاً وأنهم سوف يكسرون رأسه إذا غامر بإثارة غضبهم في الجريدة اليومية، ومع ذلك فأنا أعتقد أن أحداً منهم لن يكسر رأسي هذه المرة لأنني في الواقع لا أتورط في الحديث عنهم هنا إلا باعتبارهم مجرد مظهر ملموس لحقيقة متناهية الفظاعة والقبح تأخذ بخناق إنساننا الليبي المعاصر وتجره إلى المقصلة.

فالمرء لا يشق طريقاً في وسط المدينة ويترك إنساناً ميتاً في وسطه إلا إذا كان يعتقد بصورة أو بأخرى أن ذلك الإنسان ليس في الواقع ميتاً تماماً، وأنه يستطيع أن يدعوه لنجدته وقت الحاجة ويتوقع أن يراه يخرج من قبره محملاً بالهدايا مثل سانتا كلوز الذي يصل دائماً في الميعاد لتحقيق رغبات الأطفال. والمرء عندما يفعل ذلك يضع نفسه ـ دون أن يدري ـ في الصف

الثاني وراء قبر رجل ميت.. ويصبح مجرد طفل في انتظار سانتا كلوز.

وأنا لا أريد أن ألفّ حول هذه النقطة مرتين، إنني أريد أن أقول إن إنساننا الليبي المعاصر ـ الذي تحمله الصحف المحلية فوق رأسها، ما يزال في الواقع ـ مع صحفه المحلية أيضاً ـ يشق الطرق العامة ويترك القبور في وسطها لأنه لا يعرف ما إذا كانت الطرق تخص الموتى أم تخص الأحياء.

إنه لا يعرف أين يقف بالضبط، ولا يستطيع أن يحس بالتناقض المفجع الذي يأخذ بخناق المرء عندما يتصور فجأة ما تعنيه قبور الأولياء المقامة على طول الطريق. إن ذلك في الواقع لا يعني سوى شيء واحد مزر يستطيع أن يقتل إنساننا الليبي بالضحك أو بالخوف إذا استطاع أن يراه من زاويته الصحيحة. إنه مجرد محاولة لبناء الدنيا بمعونة الموتى.

مجرد نوع من ثقافة الأطفال التي يتبناها مجتمع الرجال البالغين نتيجة سقوطهم فريسة الخوف أو تبلد العقل أو الغباء العادي. والمرء لا يجوز أن يتصور أن إنساننا الليبي المعاصر يقف في الواقع عند نقطة ثقافية أخرى أكثر تقدماً.

إنه ما يزال مجرد إنسان من الدرجة الثانية باعتراف صحفه المحلية نفسها وباعتراف معاهده الثقافية وتاريخه الفكري الخالي من الصراع، فكل شيء في ليبيا ـ كل شيء يخص الفكر في ليبيا ـ يضع الإنسان في الصف الثاني ويجلس فوق جثته.

وأنا أريد أن أشير هنا بصورة خاصة إلى مكانة الفقهاء في مجتمعنا الحالي ومكانة الأولياء الصالحين وقصص الجن والرصيدة وقصص القيادات الفكرية غير الناضجة والخرافات والعادات لكي

تتحدد أمامنا الحقيقة البسيطة القائلة إن الإنسان الليبي لا يجلس في الصفوف الأمامية.

* إنه يجلس وراء ضريح الولي ويحمل إليه الشموع والبخور والدعوات ليلة الجمعة لكي يساعده في حل مشاكله. ويجلس وراء فقي المنطقة ويحمل إليه الذبائح والبيض لكي يضع في خدمته بعض ملوك الجن العاطلين عن العمل، ويجلس وراء النجمة ويحمل إليها بيضة الخميس وراتبه الشهري لكي تساعده في معرفة المستقبل والماضي معاً.. ويجلس وراء العيساوي الذي ينقلب إلى سبع في وسط حلقة الذكر ووراء شيخ المحلة والدرويش العمومي ووراء كل أحد تضعه الرياح أمامه دون أن يتصور لحظة واحدة أنه يملك مجرد الحق النظري في الجلوس في الصف الأمامي.

* فالإنسان لا بد أن يتعلم ذلك بطريق الديموقراطية الفكرية والظروف التي سادت في ليبيا لم تحقق في الواقع الشروط المطلوبة لتنمية تلك المنحة. إن كل ما وصل إليه إنساننا الليبي طوال تاريخه الحافل أوصاه بأن يبقى في الصف الثاني، وقد لزم ذلك الإنسان مكانه دون أدنى محاولة للرفض، وما يزال يلزمه حتى الآن رغم كل ما تقوله الصحف المحلية.

فالبناء من الخارج لا يكفي وحده لتحقيق المعجزة. والمرء يستطيع أن يقول بثقة إن كل محاولات البناء التي تتم لإحراز التقدم من الخارج فقط تتسبب أيضاً في إغفال البناء الحقيقي في داخل الإنسان وتجعله في الغالب مجرد مسألة ثانوية. والخرافة تقول إن مصباح علاء الدين السحري استطاع أن يحقق من أجله كل شيء ويبني له القصور المرمرية ويغرقه بالذهب والحرير

ولكنه لم يستطع أن يجعل علاء الدين نفسه أكثر من صبي حلاق متواضع الإمكانيات. إن علاء الدين عاد للعمل في دكان الحلاق بمجرد أن فقد مصباحه لأن التغير الهائل الذي حدث في حياته كان في الواقع كله من الخارج.

والبترول في ليبيا، وفي كل مكان آخر ـ يشبه مصباح علاء الدين.

إنه يستطيع أن يبني القصور والمدن الرياضية والطرق المضاءة بمصابيح النيون، ويستطيع أن يجعل المرء يبدو أكثر وسامة في بدلة مفصلة وحذاء مصنوع في ميلانو، ويستطيع أن يغير وجه العالم، ولكن البترول الذي تملكه الدنيا بأسرها لا يستطيع أن يعمل على إحياء إنسان واحد من موته الفكري.

إن ذلك لا بد أن يحدث بطريق آخر، ولا بد أن يتحرك الإنسان نفسه ويأخذ مكانه في مواجهة العالم بصدره، ويرفض كل شيء في طريقه حتى يكتشف في نهاية المطاف أنه في الواقع لا يستطيع أن يضع أحداً أمامه أو وراءه دون أن يفقد توازنه.

عندئذٍ يجد الإنسان مكانه الصحيح، ويقف أمام اللّه وحده، ويلمس حقيقة الظواهر المتمثلة في الكون من حوله.

وعندئذٍ يجلس الإنسان حيث وضعه اللّه.

* إن الصحف المحلية لدينا ما تزال بعيدة بعداً كافياً عن هذه النقطة، وكذلك ما تزال القيادات الفكرية البسيطة الإمكانيات التي تريد أن تفترض أن بوسعها حقاً أن تقدم لإنساننا الليبي طريقاً إلى الخارج. فكل ما تملكه بلادنا ـ باستثناء البترول

ومشتقاته ـ هو في الواقع النوايا الحسنة والأفكار غير الناضجة في الصحف المحلية.

وأنا أريد أن أشير بصورة خاصة إلى بعض المحررين البسطاء الذين يقومون الآن بتغذية شعبنا فكرياً عن طريق الصحف، فهؤلاء الناس ـ في الواقع ـ يعملون بإمكانيات متناهية البساطة إلى حد يدعو إلى الدهشة، ويفتقرون أيضاً إلى بديهيات الفكر القادر على القيادة. إنهم ـ في الغالب ـ مجرد حفنة من أنصاف الأميين الذين ألقتهم ظروفنا الفكرية المجدبة في صالة المحررين وتركتهم ينزفون فلسفة وعرقاً دون أية نتائج معقولة. ومع ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يتصور مجتمعنا في ليبيا يخلو من هذه النماذج الفكرية المتناهية البشاعة قبل أن يخلو من أضرحة الأولياء ورواد الصف الأول الوهميين.

فاللعبة من الداخل أن الإنسان الليبي لا يستطيع أن يظهر اهتمامه الفكري بأي اتجاه إلا إذا عرف أن ذلك يهمه حقاً، وهو في الواقع لا يستطيع أن يعرف ذلك قبل أن يلقي بخوره وشموعه جانباً وينتصب على قدميه لكي يواجه العالم بصدره مدركاً في وضوح متناه أنه ليس ثمة إنسان آخر حي أو ميت أفضل منه.

* وذلك يعني أن يتعلم إنساننا الليبي مدى قداسة الديموقراطية الفكرية.

ويتعلم أنه وحده يحمل أمانة الله في تحقيق كبرياء الإنسان، وأنه ليس ثمة أحد آخر يستطيع أن يكون أفضل منه أو أسوأ منه، وأن ذلك بالضبط هو مسؤوليته في هذا العالم إلى أن يحمل كفنه فوق رأسه ويذهب لتقديم الحساب.

إن اللّه قد خلق هذا العالم من أجل الإنسان وحده بغض النظر عن لونه أو أفكاره، ووضع فوق كاهله أمانة المسؤولية في تأدية أهداف هذه المعجزة. واللّه لم يضع أحداً أمام الإنسان ولم يفصله عن السماء بجثث الأولياء.

فإذا سقط الإنسان في فخ ثقافي ما نتيجة طيشه وحده، فإنه لا يستطيع قط ـ والتاريخ كله يقول ذلك ـ أن يخرج مرة ثانية من هذا الفخ قبل أن يتعلم ـ بطريقة أكثر ثباتاً ـ أنه لا يملك مكاناً في العالم سوى مكانه الأصلي في الصف الأمامي عند واجهة السماء مباشرة.. وأن كل طريق آخر مليء بالفخاخ.

وإنساننا الليبي المعاصر لا ينال عناية فكرية كافية لكي يتعلم هذه الحقيقة الجوهرية. إنه يعيش أسير صحفنا المحلية المتواضعة الإمكانيات التي تحشو دماغه بالأفكار غير الناضجة وتجره من أنفه لكي يبقى دائماً وراء مسؤولياته في البناء الواعي. إن صحفنا المحلية تخلق له أشياء جديدة كل يوم بالمجان وتعمل على بيع ثقته للمسؤولين الليبيين دون أن يطلب أحد منها ذلك. وتعرض إنساننا الليبي بمثابة صورة خرافية تقدس الحكام والسياسيين ومدراء المصالح من باب التقديس لذاته، وتقبض مقابل هذه الكارثة معونة شهرية من وزارة الإعلام.

وليس ثمة أحد في ليبيا يطلب من صحفنا المتواضعة الإمكانيات أن تفعل ذلك من أجله، وليس ثمة إنسان ليبي واحد في مركز السلطة يطلب من صحفنا شيئاً أكثر من النقد الواعي، وليس ثمة مسؤول ليبي واحد يتمنى أن تمتدحه صحفنا العرجاء لمجرد رغبتها في ذلك. إن المسؤولين الليبيين ـ وهذه حقيقة مسطحة ـ لا علاقة لهم بما يحدث في صحفنا.

ذلك سببه الإنسان الليبي نفسه.

سببه الجهل وضآلة الإمكانيات الفكرية والجلوس دائماً في الصف الثاني والمساهمة في البناء بكتابة الأشعار وحدها، وسقوط الإنسان فريسة الحيل الصغيرة التي تجعله يتصور أن بوسعه أن ينال ما يشاء باستعمال لسانه وحده. ونحن في ليبيا نعيش فكرياً هذه المرحلة المقلقة التي يبدو أنه لن يكون بوسعنا أن نخرج منها إلى منطقة أكثر جدوى قبل أن يبيدها الزمن.

إننا نفتقر إلى الأصالة الفكرية.

ونفتقر إلى ومضات العقل القادر على تحقيق كبريائه بالإبداع وحده.. فالعالم من حولنا لا يضم شيئاً سوى اللّه والإنسان ولكنه في بلادنا يضم اللّه وكثيراً من الأشياء الأخرى ثم الإنسان. ونحن لا نستطيع أن نرى بوضوح عبر هذا الحجاب. إننا لا بد أن نخترقه بطريقة أو بأخرى، ولا بدّ أن ننتظر فرصتنا بثبات.

● فليكن معلوماً لدى صحفنا المحلية.. ليكن معلوماً لدى الأولياء الثلاثة الذين يجلسون على قارعة الطريق... ليكن معلوماً لكتّاب الأحجبة والمنجمين وصغار المحررين الذين يدبجون افتتاحية كل عام.. ليكن معلوماً للجميع أنني هنا لم أتعمد إثارة غضب أحد، ولا أريد أيضاً أن يكسر أحد رأسي لأنني لم أتورط في الحديث عنهم إلا باعتبارهم مجرد مظهر ملموس لحقيقة متناهية الفظاعة والقبح تأخذ بخناق إنساننا الليبي المعاصر وتمنع عن عينيه صفحة السماء.

1969

38

أسلحة الغربة

«هذه رائحة الجنوب»

تقول المرأة الغجرية عند مدخل محطة القطار «هذه رائحة الحب والجنوب. اقترب أيها المسافر، دعني أقرأ كفك» ثم تعترض طريقي وتقول باتزان «دعنا نتعارف وسوف أقرأ لك كفك على الحساب».

وأفتح لها كيس نقودي الخالي من النقود.

ويمد شرطي المحطة يده ويجرها جانباً ويحرر لها محضراً بتهمة الاحتيال، ثم نفترق وتودعني بعينيها البسيطتين وتدعوني باسم «الأمير».

وبعد ذلك تقول عجلات القطار على طول حقول القمح في أوكرانيا «الميلاد أول سن في منشار الموت. الميلاد أول سن في منشار الموت» ويطل الموت من النافذة.

أنت تتوقع أنه يحمل منجلاً وأنا أقول لك إنه يحمل آلة كاتبة، وإنه يمضغ اللبان.

هذا ما أقوله لك. وعندما ينحني لكي يتحدث معك سوف ترى أيضاً أنه يفوح برائحة الكولونيا ماركة السبع، وأن نابيه ذهبيان، وأنه يكره إسرائيل مثلنا، ولكنك ستضطر إلى أن تكرهه بدورك.

أنا أعرف الموت إلى هذا الحد.

وأعرف وجهه، وأعرف أنه يحمل آلة كاتبة ويعمل موظفاً مربوطاً إلى الدرجة الخامسة في صحيفة البرافدا، وقد رأيته يحتفل بعيد ميلاد لينين، وقرأت خطبته في القطار.

ليمت الموت..

الكلب المربوط في الدرجة الخامسة، الساحر الأعور بائع الخطب، الشاعر بلا شعر الذي يفوح برائحة الكولونيا ماركة.. ليمت المتنبي الداعر.

* ويقول الفلاح نيكيتا يانسيف الذي يجلس بجانبي «هل تحدث نفسك دائماً هكذا؟ أعني أنا أيضاً أحدث نفسي بين حين وآخر». ثم يمد لي يده ويقول بوقار: «دعنا نتعارف وسوف أقرأ لك كفك على الحساب».

* الاسم نيكيتا يانسيف.

* المهنة فلاح في صحيفة البرافدا.

* العمر ألف سنة.

وأمد له يدي مثل عظم مغسول ومغطى ببعض اللحم يأتي دائماً في الميعاد.

* الاسم مسيلمة الكذاب ابن تفاحة.

* المهنة فلاح في صحيفة البرافدا أعني طرابلس.

* العمر ألف سنة وليلة واحدة.

ويقول الفلاح «الذي يسبقك بليلة يغلبك بكل حيلة. أنا لا أملك فرصة واحدة. هل تحب أن تبدأ بالحديث عن صحيفة طرابلس.

هل قلت شيئاً عن صحيفة طرابلس؟

هل ذكرت ذلك الاسم على الاطلاق؟ أنا أعمل في صحيفة البرافدا. هذا ما قلته. مربوط من عنقي إلى الدرجة الخامسة في صحيفة البرافدا، أصفق مع من يصفق، وأطلع لساني لمن يطلع له اللّه لسانه وأصنع الفكر بالمحراث.

هذا ما قلته.

أنا صاحب الوقت والآلة الكاتبة الذي يأتي عندما يعم الأرض الفساد ويطهرها بمحراثه وحمارته العرجاء ثم يقبض راتبه مرتين في اليوم. أنا حادي القافلة الذي يتعلق بذيل أول جمل ويغني بأعلى صوته لكي يصل المسافرون في الميعاد.

أنا تاجر بلا حانوت.

نبي بلا رسالة.. قرداتي بلا قرد. أنا أقوال الصحف بلا صحف. والآن جاء دورك أيها الرفيق نيكيتا يانسيف.

ويقول الفلاح الذي يفوح برائحة الكولونيا ماركة السبع «أنا تاجر بحانوتين واحد أبيع منه للناس، والآخر ادخره لهم عندما يغيرون رأيهم. أنا نبي برسالتين، واحدة أعرضها على الناس، والأخرى أدخرها لهم عندما يغيرون رأيهم. أنا قرداتي بقردين، واحد ألعب به أمام الناس عندما يجتمعون لتحية صاحب الجلالة

والآخر أدخره لهم عندما يغير صاحب الجلالة رأيه. أنا كاتب حكومي».

ثم يدخل مفتش القطار ويقطع له نصف تذكرة لأنه نصف كاتب.

ويتبادل معه الحديث عن ميلاد لينين الخمسين لأنه نصف تاريخ، ويدعوه باسم «نصف نيكيتا يانسيف»، ويعطيه نصف سيجارة ويلقي النصف الباقي من النافذة.

* هكذا يعامل أحباب اللّه، هكذا يصبح نيكيتا المضاعف نصف كاتب، ورسالتاه نصف رسالة، وقرداه نصف قرد. هذه عادة الفكر الحكومي.

وتهز السنابل الذهبية رؤوسها في حقول القمح في أوكرانيا.

ويمد الفلاح يده لكي يطلع زجاجة الفودكا التي سرقها من عروق الشعب، ويطلع نسخة من صحيفة طرابلس الغرب ويقرأ منها بصوت عالٍ ما تيسر من خطبة الجمعة.

«ليحفظ اللّه مولانا العالي الجبهة حتى الساعة الثالثة من أول يوم في سبتمبر. ليحفظ اللّه مولانا ويرعاه ذخراً لوطننا الحبيب حتى الدقيقة الخامسة والتسعين من التاريخ المذكور أعلاه».

هذه عادة الفكر الحكومي، يصلي من أجل راتبه. يعيش من أجل راتبه، يفقس فكراً من أجل راتبه. هذه عادة شعراء البلاط، هل عرفت ما أعنيه؟

هذا سمك البوري الذي يأكل طعمك ويزلق فوق صنارتك العارية.

هذا جحا الغرب الذي لا يهمه منك سوى طعم صنارتك.

هذا الساحر الذي ينقلب في كل صورة لكي يلائمه كل طعام تجود به يداك بلا مقابل سوى الدعاء والتأييد حتى الساعة الثالثة من أول يوم في سبتمبر.

هذا الفكر الحكومي الذي يعيش من أجل راتبه. هل عرفت ما أعنيه.

ويقول نصف الفلاح نيكيتا يانسيف «اعط سيدك ما يشتريه بنقوده. اعطه ما تعتقد أنه يريد أن يشتريه بنقوده. افعل مثل الطبل والمزمار وطبل وزمر في كل عرس. لماذا تعرض نفسك للهلاك؟» يقول ربع الفلاح نيكيتا يانسيف «أنت تنال راتبك هذا كل ما في الأمر، أنت تذهب لكي تناله بالبريد المسجل ألف في المائة كل شهر. أنت صاحب بضاعة مضمونة. ماذا يهمك من الباقي. أنت مفكر حكومي؟» يقول الفلاح نيكيتا يانسيف.

أنت تنال راتبك، هذه قاصمة الظهر. أنت رأس للايجار. هذه قاصمة الظهر. آلة كاتبة تعمل بقطع النقود المعدنية. إن الحكومة التي تدفع راتبك، ترضى أيضاً أن تمسخك إلى آلة كاتبة تعمل بقطع النقود المعدنية دون أن تدري. الفكر لا يشترى في البحر، فلا تدع أوهامك تخدعك. إن الذي يعمل لمصلحة الشعب لا يقبض راتبه مقدماً بل يكسبه في الزحام لكي يعرف أنه يستحقه.

ويقول سدس الفلاح نيكيتا يانسيف «اذهب إلى جهنم».

* معلوم. هذه هي وجهتي ولكن الزحام وحده سوق الفكر الشعب سوق الفكر. أكشاك الصحف وعيون الناس سوق الفكر. الحكومة التي تدفع لك راتبك تجعلك فكراً رسمياً، وهذه حقيقة واقعة، والفكر الرسمي أول خطوة على طريق الكارثة

وآخر خطوة أيضاً. هذه هي حقيقة واقعة مرتين.

دع الفكر يأتي من أسفل. دعه يأتي من القاعدة، وسوف ترى أنك تملك فرصة حقيقية لاختيار الأفضل، ولكن لا تدفع ثمن الأفكار مقدماً. لا تشتر الحوت في البحر بنقود الشعب.

ويقول ما بقي من الفلاح نيكيتا يانسيف «اذهب إلى جهنم. هذه مجرد حالة من حالات الحسد البسيط.

اذهب إلى جهنم، واقبض راتبك بأمان».

ثم تومئ السنابل الذهبية في حقول القمح في أوكرانيا، ويومئ الفلاحون والنجوم، ويدق الموت على آلته الكاتبة لكي يعد أقوال الصحف بلا صحف، ويذهب القطار.

● إلى جهنم أيها الحصان الحديدي.

إلى البوابة الرئيسية مباشرة على يمين أهل الجنة، فأنا أملك تذكرتي وأملك الصبر وعيون العرافة الغجرية.

أنا قارئ الكف الذي لا يعوقه جدار المستقبل، وقد قرأت كف مولاي على الحساب.

ويذهب القطار بأمر من سيده الأمير. يذهب إلى أوكرانيا إلى سيبيريا إلى سقف العالم المنحني في غربته على حافة المحيط، ويترك النهار وراءه ويترك الشمس أيضاً، ويخوض في الليل القطبي إلى ركبتيه، ويخوض في الليل إلى الأبد. هذا أحسن. امش.

1970

39

رباط العنق..

قصة مخجلة حدثت ـ والحمد لله ـ في مجتمع غير إنساني.

طائر البطريق مخلوق محافظ يحب النظام والعشرة الطيبة ويعيش طوال حياته مرتدياً بدلة السهرة على حافة التلال المقفرة في القارة الطيبة.. وعندما يعقره الجوع البدائي يعود للمحيط بحثاً عن طعامه من صغار الأسماك والبراغيث ويغطس وراءها في بدلة السهرة أيضاً. فالعادة المتبعة هنا أن يحتفظ المواطن بلياقة مظهره تحت كل الظروف ويغلق أزرار قميصه إلى حافة الياقة ويثبت رباط عنقه تحت معطفه الأسود ثم يغطس تحت الماء لكي ينال برغوثه.. إن المحيط لم يشهد قط بطريقاً واحداً يجلس على مائدة العشاء في غير بدلة السهرة حتى منتصف الصيف الماضي.

* إذ ذاك حدثت الكارثة وراء المحيط، ورأت التلال المقفرة في القارة القطبية بطريقاً كامل النمو يتكلم عارياً ـ هكذا كما ولدته أمه ـ ويطارد البراغيث ويأكلها بأصابعه أيضاً.. كان بطريقاً حقيقياً لا شك فيه. ولكنه كان يتصرف مثل أحد الهيبز البلهاء

الذين يذرعون شوارع سان فرانسيسكو، وكان ـ فيما يبدو ـ قد نال لتوه قليلاً من الحشيش..

* وقد غطس وراء البراغيث عارياً كما ولدته أمه وشرع يطاردها على مشهد من المحيط والتلال المقفرة.. وعندما أمسك أحدها نزع رأسه بأصابعه والتهمه نيئاً، فيما كانت بقية البراغيث تراقبه واجمة مبدية أقصى ما لديها من مشاعر الدهشة.. كانت قد تعودت على احتمال الموت فوق مائدة العشاء وكانت طيور البطريق تجعل المائدة تبدو دائماً بمثابة احتفال صغير بموت البراغيث، تلك اللفتة المهذبة التي تخفف كثيراً من وقع الكارثة، أما هذا المخلوق العاري فقد جعل كل شيء يبدو حقيقياً إلى حد مفجع.. كان يفتقر إلى لمسة المواطن المتحضر الذي لا ينسى أن يذكر عليك اسم اللّه قبل أن يقطع عنقك.

* وقد ألحق العار بمجتمع طيور البطريق المحافظة.

وشوّه سمعتها لدى البراغيث وصغار الأسماك، وجعل المحيط نفسه يغير رأيه بعد أن اعتقد طوال مليون سنة أن مجتمع طيور البطريق على الأقل محصن كلية ضد أبناء الحرام.. لقد تبين بوضوح أن الشيطان يعمل على جميع الجبهات ضد المواطنين المحافظين الذين لم يكفوا قط عن محاولة بناء العالم في بدلة السهرة.

* وفي ذات يوم حدث الصدام.

لقد كان ذلك بالطبع أمراً متوقعاً فالناس في كل مكان، أعني حتى في القارة القطبية، لا ينتظمون داخل مجتمع واحد إلا بغرض محاربة الشيطان وإبقائه دائماً خارج الحدود متيقظين طوال الوقت لطرده فوراً بمجرد أن يتبين لهم أنه تسلل بينهم في

صورة ما، ولأن الناس، أعني طيور البطريق، لم تر الشيطان في حياتها قط، ولا تعرف شكله أيضاً، فإنها تلجأ إلى تمييز أفرادها بعلامات محددة لكي ينفضح أمر الشيطان فور وصوله. إنه سيبدو غريباً من الخارج على الأقل..

* وكان البطريق الأبيض غريباً من الخارج.

وكان لا يلبس البدلة الرسمية المعترف بها فوق التلال المقفرة، ولا يلبس أيضاً رباط العنق. وقد اكتشف المواطنون المحافظون ذلك كله بنظرة واحدة، وعرفوا في قرارة أنفسهم أن الشيطان الأزلي قد تسلل داخل حدودهم، وانطلقوا يراقبونه خلسة متوقعين أن يروه يكسر عنقه فوق الصخور نتيجة غضب اللّه، أو تسقط فوق رأسه نجمة من السماء.. فقد كان من المعمول به داخل مجتمعات المواطنين المحافظين أن يتوكلوا على اللّه ويخولوا له كل الأمور المريبة، وينتظرونه في صمت ريثما يسلط غضبه السماوي في جثة أعدائهم.

* وقد ظلّ الطائر الأبيض في صحةٍ جيدة، وظل يتسكع عارياً وراء البراغيث المدهوشة، ويلعّب حاجبيه أيضاً لبنات المواطنين المحافظين، كان المرء يستطيع أن ينال حاجته من الحب في غير بدلة السهرة.. وفي نهاية المطاف حدثت المعجزة ووقعت إحدى البنات في حبه إلى أذنيها، أعني إلى رباط عنقها.. وجلست بجانبه فوق التلال المقفرة وشرعت تراقبه بإعجاب فيما كان يأكل برغوثة بيده اليسرى.. لقد بدت اللحظة مواتية لكي يرسل اللّه شهابه المنتظر فوق رأسه، لكن السماء بدت آمنة إلى حدّ لا يصدق.

* وإذ ذاك انعقد المجلس الأعلى في مجتمع البطريق.

وتصدر نبأ الجلسة الطارئة نشرة الأخبار، وتناولته الإذاعة في التعليق على الأنباء، وذكرت في هذا الشأن أن وزير الشؤون السماوية قد نفد صبره من انتظار الشهاب، وأنه أفتى بجواز تدخل السلطة لتنفيذ الإرادة الإلهية، وفي اليوم التالي اقتيد الطائر الأبيض إلى ساحة العدالة..

* «اتفو» قال ممثل النيابة «اتفو عليك أيها المواطن الأبيض.. ما الذي دعاك إلى أن تولد عارياً.. ألم يكن بوسعك أن تنتظر قليلاً ريثما يضع اللّه فوقك بدلة السهرة؟».

* «المرء لا يرى ظهره» قال الطائر الأبيض لممثّل النيابة «المرء يا سيدي لا يستطيع أن يرى ظهره، هذه مشكلتي بالضبط.. أنا لم أعرف قط أنني لا أملك معطفاً حتى قلتم أنتم ذلك لي.. أعني لماذا ألبس بدلة في وجهي من أجل ذنب لم أرتكبه عن عمد. ثم إنني لست عارياً. انظر بنفسك.. إنني ألبس بدلة بيضاء».

* «ها ها» قال قاضي القضاة بدلة بيضاء؟ وكيف تعرف أنك تلبس بدلة على الإطلاق؟.

ونظر الطائر حوله حائراً، وبحث عن دليل يثبت للمحكمة أنه يلبس بدلة حقيقية، لكنه لم يجد ثمة ما يقوله.. كان دليله الوحيد أنه يشعر بالدفء وكان الدفء وحده لا يكفي.

* أين رباط العنق.. قال قاضي القضاة.

* «وأين القميص» قال عضو اليسار.

* «وأين الذيل» قال ممثل النيابة.. هذه هي الفضيحة أيها السادة.. إن المرء لا يستطيع أن يتصور أنه سيجلس معه على مائدة عشاء واحدة بدون ذيل.

* ثم إنه يأكل بيده اليسرى «قال عضو اليمين» لقد رأيته يفعل ذلك بنفسي، أعني هل بوسعكم أن تتصوروا شيئاً قبيحاً إلى هذا الحد؟

* يأكل بيده اليسرى؟ قال قاضي القضاة.. يا إلهي. وماذا يفعل بيده الحقيقية إذن؟.

* «لا شيء يا صاحب الفضيلة» قال عضو اليمين.. لا شيء على الإطلاق.. إنه يدليها بجنبه كما تدلي فخامتك يدك اليسرى إلى جانبك. أعني أنا رأيته بنفسي..

وأطرق الطائر الأبيض برأسه ونظر خلسة إلى يده اليمنى.. لم تكن تختلف حقاً عن يده اليسرى ولم يكن ثمة داعٍ لأن يعتبرها القاضي اليد الحقيقية.. لكنه لم يقل ذلك للمحكمة، ولم يقل لها أيضاً إن بدلة السهرة يمكن أن تكون بيضاء ذات مرة دون أن ينقلب البطريق إلى زرافة.. لقد كان واثقاً أن المحكمة لن تخلط بينه وبين الزراف.

* ثم صدر الحكم بعد المداولة.

وأعلن القاضي أنه قد ثبت لدى المحكمة أن المخلوق الأبيض الذي لا يلبس بدلة أو رباط عنق ليس بطريقاً بل زرافة متنكرة، قد تمّ فضحها بفضل يقظة السلطة ووزارة الشؤون السماوية، وتقرر القضاء على هذه المؤامرة في المهد حماية للمجتمع.. والمحكمة إذ تصدر حكمها العادل بطرد الزرافة خارج الحدود، تهيب بجميع المواطنين أن يبقوا دائماً يداً واحدة، وبدلة واحدة، وأن يأكلوا دائماً بيدهم اليمنى..

واستقبل الطائر الأبيض الحكم بجنان ثابت.

* ثم عاد فترك جنانه يرتعد مثل المروحة عندما هبّت الرياح

القطبية على القارة واكتشف أن عزلته عن مجتمعه تعني موته المحقق خلال أول أسبوع في موسم الشتاء. لقد رأى بوضوح أنه لا يستطيع أن يعيش وحده في حجم القطب، ورأى أيضاً أنه لا يستطيع أن يصل إلى مكان آخر لكي يعيش مع الزراف.

إنه سيموت وحده في بدلته البيضاء.. وسوف يكون أول بطريق في التاريخ تدفنه الملائكة مكفناً. فليرحمه اللّه وليسكنه فسيح جنّاته بدل تلال القارة المقفرة.

1970

40

ثلاثة مزامير لملكة الغجر

- 1 -

.. واعلمي يا مولاتي أن الفقر كان رجلاً ذات مرة، وكان يملك في حوزته حربة واحدة، لأنه بدون الحربة يموت المرء بالجوع أما الثياب والوقود والأصدقاء فإن الفقر بالطبع لم يكن بوسعه أن ينال شيئاً منها.

* واعلمي يا مولاتي أنه لم يكن بوسعه أيضاً أن يصطاد بحربته ما يشاء، أعني من دون بقية الصيادين كان الفقر وحده معرضاً للموت بالشبع.. وكان اللّه قد قال له «أيها الصياد أنت تصطاد الصقور فقط، تلك الطيور المهيبة الخالية من الشحم التي لا تمنح المرء شيئاً بعد عناء صيدها سوى الريش والعصب السيئ المذاق».

* وفي طاعة اللّه عاش الفقر يطارد الصقور.

كان يترك السهل العامر بالخنازير البرية والأرانب وراء ظهره،

ويحمل حربته فوق رأسه الشقي ويتسلق الجبال بحثاً عن أوكار الصقور حتى تدمى قدماه. وكانت الصقور توغل في البعد عاماً بعد عام وتختار أوكارها في قمم أكثر علواً لكي تصيبه باليأس، ولكن المرء يا مولاتي لا يستطيع أن ينال نعمة اليأس إلا إذا كان يملك فرصة الخيار وقد احتمل الصياد السيئ الحظ متاعب الجري وراء لقمة عيشه واجتاز السهل كل يوم على مشهد من الخنازير البرية المدهوشة وانطلق يزحف على ركبتيه بحثاً عن وكر صقره فوق القمة.

* وكان ينتظره في مهب الريح طوال النهار، ويغرس حربته في قلبه ثم يحمله بين يديه ويعود به إلى السهل لكي ينتف أكوام الريش مكسور القلب، ويأكل العصب السيئ المذاق بسنه الوحيدة.

سناً واحدة، كان يملك الفقر لأن أكثر من ذلك يدخل في باب الثراء.

وكان يعمل بها طوال الليل لكي ينال من جثة الصقر ما يسد رمقه ثم يرمي البقية لأي خنزير بري يصادفه فالفقر أيضاً لم يكن بوسعه أن يدخر شيئاً من لقمة عيشه، وكانت الخنازير تتناقل أخباره بود من دون بقية الصيادين وتعتبره صديقها، لكنه على أي حال لم يكن بوسعه أن يملك أي أصدقاء.

* هذا يا مولاتي حدث في أرض بعيدة وراء بحر الظلمات.

عندما كان الفقر رجلاً مثل بقية الرجال.. وكان عليه أن يكسب قوته اليومي لكي يدفع عن نفسه شر الموت في دار الفناء، لقد كانت الصقور وحدها ضحاياه، وأنا أقول يا مولاتي إن المرء يحس بالرثاء تجاه الصياد والضحية معاً.

- 2 -

وفي أرض بعيدة وراء بحر الظلمات يولد صقر من جديد.

«يولد في خيمة هندي أحمر، يولد حاملاً ريشاته فوق رأسه، أعني يا مولاتي بعد أن يأكله الفقر، ثم يبني خيمته ويملؤها بالأطفال والخير ولحم الخنازير والفراء والشموع المصنوعة من شحم الجاموس، ويباركه ساحر القبيلة ويرقّيه إلى رتبة مزارع ويدعوه (شاسا كامبالا) أي الصقر مرة أخرى، فالناس هنا يا مولاتي لا يختارون أسماءهم بالصدفة، إن كل واحد منهم يحضّر اسمه وريشاته معه من وراء الموت ويحضر في حلقه حربة الفقر.. أعني لكي لا ينسى ثأره القديم.

* وفي كل يوم تطلع الشمس في الأرض البعيدة وراء بحر الظلمات، وفي كل يوم يغادر (شاسا كامبالا) خيمته ممتطياً صهوة الجاموسة ويغمس ريشاته في ضوء الشمس الذهبي ويكتب حكاية الثأر، لهذا السبب يا مولاتي يحمل كل هندي أحمر ريشاته فوق رأسه.

* لكي يكتب حكاية الثأر.

* بالعرق.

بماء الذهب، بسكة المحراث، بكيزان الذرة، وعندما يعتريه الملل من الكتابة يشرب قدحاً من عصير الذرة ويغني بقية الحكاية على الربابة، فاعلمي يا مولاتي، وقولي لبقية الغجر إن الشمس لا تطلع كل يوم لكي تنصت إليه، وكان الفقر رجلاً ذات مرة.

- 3 -

هس، هذا وقع خطواته على أرضية الصالون.

* هذا ليس صوت الربابة، لقد قلت لك إنه يولد أينما تولد الصقور ويحمل حربته الوحيدة وسنه الوحيدة، ويتسلق الجبال بحثاً عن لقمة عيشه، هس يا ملكة الغجر.

* جوني حضر إلى الصالون، لعب البوكر وسرق سبعة الديناري، وقع في الحب خلال فترة الاستراحة، شرب الويسكي بدون صودا، جوني قلب الأسد.

* عنوانه الصفحة الأولى من كتب التاريخ.

مهنته حاج إلى بيت المقدس، أعني ريتشارد قلب الأسد، وليس متزوجاً وليس عنده أطفال أو ريشات ولكنه يملك عدسة تصوير، ويعلقها في عنقه عندما يطوف بأزقة بيت المقدس، ويرشو الأطفال الحفاة لكي يتصوروا معه ويقف بينهم ويبتسم بسنه الوحيدة.

ويتصور مع بائع الماء ومع بائع العرقسوس.

* يتصور في الحنطور المزين بالريشات والأجراس، ويتصور بجانب ضريح صلاح الدين ويبتسم بسنه الوحيدة على عادة الحجاج إلى بيت المقدس وينعم بالشمس والبحر والجيلاتي ويقرض أظافره.

نحن عدنا يا صلاح الدين وتصورنا في الحنطور.

* بم بم يقول جوني صلاح الدين.

بم بم قال جوني في مؤتمره الصحفي الأخير، هذا يا مولاتي قلب الفقر يلقي خطبته من شرفة البيت الأبيض كنيسته مسدسه كل عالمه مربوط في حزامه وليس لديه مزرعة أو أطفال أو ريشات أو بيت مقدس ليس لديه سوى جوني وكان الفقر رجلاً

ذات مرة وقد تمّ انتخابه بأغلبية ساحقة لأن كل مواطن في المنطقة كان يتناقل أخباره بود ويعتبره صديقه، الهنود الحمر وحدهم أبعدوا عن الانتخابات لأن القاتل لا يختاره المقتول.

● بم بم يقول ريتشارد في حملته الانتخابية.

بم بم إلى الأبد..

فاعلمي يا مولاتي أن خير الكلام ما قل ودل، وأن بم .. بم أقل ما أقل، وأدل ما أدل وأن الصقر يموت من هنا ويولد من هنا بين ذراعي امرأة مثلك.

امرأة تنتظر عودة مزارع.

امرأة تكتب حكاية لطفلها بريشة مغموسة في محبرة هذا الليل، امرأة مثل الأرض تنتظر عودة مزارع وتغذي بذوره من صدرها باللبن وحكايات الثأر.

فاعلمي يا مولاتي أن الليل محبرة وأن الشمس محبرة وأن الريشة تكتب في صفحة السماء دبيب النملة على الأرض لأنه بالكلمات يحيا الإنسان ليس بالخبز.

* ثم اعلمي، وقولي لبقية الغجر إنه لو كان الفقر رجلاً لمات من الجوع... ولكن الجهل...

....

....

آه الجهل

1970